

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

نظرات في مقارنة الأديان

د . عصمت نصار

كلية الآداب جامعة القاهرة

فرع بنى سويف

طبعة ٢٠٠٥

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

<https://www.facebook.com/books4all.net>



نظرات في

مقارنة الأديان

د . عصمت نصار

كلية الآداب جامعة القاهرة

فرع بنى سويف

طبعة ٢٠٠٥

دار الهداية

للطباعة والنشر والتوزيع

تليفون : ٧٩٥٤٣٧٩ - ٠٢

محمول : ٣٢٤٨٧٨٩ - ٠١٢

رقم الإيداع ٨٩٧٣ / ٢٠٠١

الترقيم الدولي I.S.B.N

٨ - ٢٢٤ - ٢٢٢ - ٩٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

العلاقة بين الدين والفلسفة

لا غرو في أن محاولة إيجاد العلاقة بين الدين والفلسفة تعد من أصعب وأدق القضايا المعاصرة ، ويرجع ذلك للمشكلات التي تقف أمام الباحثين عائقاً دون إيجاد نسق واحد يجمع بينهما.

منها مشكلة التعريف :- ما الدين ؟ هل بالمعنى الاصطلاحي أم الفني أم الإجرائي ؟ وما الفلسفة ؟ هل هي الحكمة العقلية المجردة ، أم صنعة الأديان ، أم وليدة الثقافة المطروحة ؟

وقد أجمع جل الباحثين على أن الأجواء الثقافية السائدة وطبيعة الخطاب الفلسفي أو الديني المطروح على مر الأحقاب التاريخية المختلفة قد ساهمت بقدر كبير في تحديد العلاقة بينهما فعندما ينتصر الفكر الديني تصبح مهمة الفلسفة تفسيره وتبريره وعندما تنتصر الفلسفة تنحصر مهمة الدين في نقضها أو الانطواء تحت مبحث القيم والكمون في الأخلاق .

وإذا ما توازنت القوى بينهما تبدو العلاقة بينهما في صور عديدة ؟

تصالح وتوافق ، تصارع وتتأظر ، أو تجاور .

وعلى الرغم من احتدام الصراع بينهما في بعض الحقب التاريخية فلم يستطع أحد الطرفين إزاحة الآخر أو القضاء عليه بل أضحي الأمر على العكس من ذلك تماماً فهناك ديانات من وضع الفلسفة ، وهناك فلسفات من صنع الأديان .

وإذا ما نظرنا إلى مباحث فلسفة الدين ولا سيما مبحث فلسفة الإلحاد فنجد أن معظم الحركات الإلحادية لم تكن نقضاً لفكرة الألوهية فحسب بل كانت ضد الفكر الديني بوجه عام ، الأمر الذي يبرر المساجلات والمناظرات التي حفلت بها الثقافة الإنسانية منذ قديم الأزل .

ولما كان الجمع بين الفلسفة والدين في سياق واحد من الأمور

التي يصعب تحقيقها فكان لزاماً على رجالات الفكر والدين التحلي بالتسامح في النقد والالتزام بأداب التناظر في النقاش حتى يتحقق التوازن المنشود في ثقافات الأمم.

أما مبحث مقارنة الأديان الذي نحن بصدده يعد من أعرق العلوم التي انبثقت عن فلسفة الدين فإذا ما نظرنا إلى أطوارها الساذجة فسوف نجد للمسلمين فيها إسهامات لا تتكرر نذكر منها الملل والنحل للشهرستاني ، والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، وإن كان يؤخذ على مثل هذه الأعمال تعصبها الملى وافتقارها إلى عدة البحث العلمي في الوصف والتاريخ والنقد والتحليل .

أما الأبحاث العلمية الحديثة في مقارنة الأديان فلم تظهر إلا في أخريات القرن السابع عشر وقد اعتمدت في دراستها على العديد من العلوم منها التاريخ ، الجيولوجيا ، الآثار وذلك لتحديد نشأة الديانات والتعرف على مراحل تطورها وكما تحولت بين علوم اللغة للوقوف على دلالات الكلمات في البيئة التي نشأت فيها ومقارنتها بعد ذلك بمثيلاتها في الديانات الأخرى فكلمة ثالوث على سبيل المثال تختلف دلالتها في الديانة المصرية عنها في الديانة المسيحية كما تستعين كذلك بعلم الاجتماع والأنثروبولوجي وذلك لتمكن من التفرقة بين الظاهرة الدينية والظاهرة الاجتماعية وتبين مدى قبول المجتمع لهذه الديانة أو تلك وكذا رصد الحركات الإلحادية والإصلاحية . كما تعتمد على علم الجغرافيا لتحديد أماكن ظهور الديانة وانتشارها .

وقد أنيطت بعلم مقارنة الأديان وظيفة رئيسة هي مقابلة الأفكار العقدية بين الأديان بعضها ببعض بغض النظر عن طبيعة هاتيك الأديان وذلك للكشف عن أوجه التشابه والاتفاق والاختلاف والتأثر بينهما .

والله نسأل الهداية وتجنب الزلل والشطط في القول والفعل (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) .

د . عصمت نصار

٨ محرم ١٤٢٦

٢٠٠٥ / ٢ / ١٧

الفصل الأول

مفهوم الدين

ونشأته

مفهوم الدين ونشأته

تتضح كلمة الدين إذا ما وضعت في مقابلة المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي كما يظهر معناها أكثر وضوحاً ودلالة إذا ما قارناها بمثيلاتها في مجال مقارنة الأديان كالملة والنحلة إلا أننا سنعمل أولاً علي بيان كلمة الدين من الناحية اللغوية لما في المعنى اللغوي من عموم يعرب عن دلالة اللفظة في معناها العام ثم نثني بالمعنى الاصطلاحي لما له من أهمية لدي علماء مقارنة الأديان .

أولاً : معنى كلمة الدين

١- يطلق الدين في اللغة العربية ويراد به معان مختلفة تفرق كل كلمة عن الأخرى حسب موقعها في السياق الذي وردت فيه .
فيطلق الدين في اللغة على كثير من المعاني منها : الجزاء والحساب والمكافأة ومنه قوله تعالى : (مالك يوم الدين) أي يوم الجزاء والحساب وما جاء في الحديث المرسل عن أبي قلابة : (..كما تدين تدان) أي كما تفعل تجازى . كما يطلق على الخضوع والطاعة والانقياد ، وعلى الحال والشأن والعادة والسيرة والرأي والسياسة .
وقد يستعمل الدين في الشريعة على سبيل الاستعارة ، فيراد به ما يؤخذ العباد به من التكاليف ، قال الراغب : " والدين يقال للطاعة والجزاء ، واستعير للشريعة ، والدين كالملة ، لكنه يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشريعة " (١).

وتعدد المعاني اللغوية لكلمة (دين) وكثرتها مرجعه إلي أصل الاشتقاق في اللغة وقد بين ذلك الدكتور محمد عبد الله دراز فقال : " كلمة " الدين " تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه : " دانه يدينه " وتارة من فعل متعد باللام (دان له) ، وتارة من فعل متعد بالباء (دان به) ، وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصيغة .
فإذا قلنا : (دانه يدينه) عنيانا بذلك أنه ملكه وحكمه وساسه ودبره وقهره وحاسبه وجازه وكافاه ، فالدين في هذا الاستعمال يدور

على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك .
وإذا قلنا : (دان له) أردنا أنه أطاعه وخضع له ، فالدين هنا هو
الخشوع والطاعة والعبادة والورع .

وإذا قلنا : (دان بالشئ) كان معناه أنه أتخذ ديناً ومذهباً أي
اعتقده أو اعتاده أو تخلق به ، فالدين على هذا هو المذهب والطريقة
التي يسير عليها المرء سواء كانت نظرية أو عملية فالمذهب العملي
لكل امرئ هو عادته وسيرته .. والمذهب النظري عنده هو عقيدته
ورأيه الذي يعتنقه . والمعنى الثاني ملازم للأول ومطابق له (دانه
فدان له) أي قهره على الطاعة فخضع وأطاع ، كما أن الاستعمال
الثالث تابع للاستعمالين قبله لأن العادة أو العقيدة التي يدين بها ، لها
من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ، ويلتزم إتباعها " (٢) .

٢- أما في الاصطلاح فيختلف تعريف الدين بين علماء الأديان
وفلاسفة الدين فبينما يربط علماء مقارنة الأديان من المسلمين
تعريف الدين بالأديان السماوية نرى غيرهم يحذفون هذا الاعتبار
وهذا صحيح لأن التعريف كما يقول المناطقه لابد أن يكون مانعاً
جامعاً فنحن سنعرف الدين هنا بمعناه العام بقطع النظر عن
الأديان السماوية .

وقد عرف الدكتور عبد الله دراز الدين بقوله " هو الاعتقاد بوجود
ذات - أو ذوات - غيبية علوية لها شعور واختيار ، ولها تصرف
وتدبير للشئون التي تعنى الإنسان ، اعتقاد من شأنه أن يبعث على
مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة ، وفي خضوع وتمجيد " (٣) .

وبعبارة موجزة ، هو : الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة
هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين .

أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجية فنقول هو جملة
النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية ، وجملة القواعد
العملية التي ترسم طريق عبادتها (٤) .

هذا والدين بهذا المفهوم الشامل يتناول نوعين من الدين وهما :

١- الأديان السماوية : ويراد بها : ما كان مصدره الوحي الإلهي
وجاء على لسان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ،

كاليهودية ، والنصرانية والإسلام .

ب- الأديان الوضعية : ويراد بها : ما كان مصدره العقول والمجتمعات البشرية من العقائد والشرائع كالديانة البوذية والبرهمية ونحوهما من الأديان والإلحاد بصوره المختلفة .
والفارق الأساس بين هذين النوعين من الأديان هو أن الدين السماوي مصدره الوحي الإلهي وبالتالي هو معصوم من الخطأ. أما الأديان الوضعية فهي غير معصومة من الخطأ ضرورة لأنها من وضع البشر. إلا أننا في فلسفة الأديان لابد وأن نتعرف على الجانب الآخر ألا وهو الجانب الفلسفي الإنساني الذي ركز فيه الباحثون على الدين باعتباره معطى من المعطيات الاجتماعية والإنسانية وهو ما نسميه الدين أو الأديان الوضعية أي التي هي من وضع البشر والمجتمعات الإنسانية .

واليك بعضاً من هذه التعريفات :

يقول " سيسرون " في كتابه (عن القوانين) : " الدين هو الرباط الذي يصل الإنسان بالله " (٥).

ويقول " كانت " في كتابه (الدين في حدود العقل) : " الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية " (٦).

ويقول " شلاير ماخر ، في (مقالات عن الديانة) : " قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة " (٧).

ويقول " الأب شاتل " في كتاب (قانون الإنسانية) " الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق : واجبات الإنسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه " (٨).

ويقول " روبرت سبنسر " في خاتمة كتاب (المبادئ الأولية) .
" الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية ، هو العنصر الرئيسي في الدين " (٩).

ويقول " تايلور " في كتاب (المدنيات البدائية) : " الدين هو الإيمان بكائنات روحية " (١٠).

ويقول " ماكس مولر " في كتاب (نشأة الدين ونموه) : " الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره ، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه هو التطلع إلى اللانهائي ، هو حب الله " (١١).

ويقول " إميل برنوف " في (علم الديانات) : " الدين هو العبادة . والعبادة عمل مزدوج : فهي عمل عقلي به يعترف الإنسان بقوة سامية ، وعمل قلبي أو انعطاف محبة ، يتوجه به إلى رحمة تلك القوة " (١٢).

ويقول " ريفيل " في (مقدمة تاريخ الأديان) : " الدين هو توجيه الإنسان سلوكه ، وفقا لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية ، يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم ، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها " (١٣).

ويقول " جويوه ، في كتاب (لا دينية المستقبل) : " الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية (١٤). والشعور الديني هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائي في الكون " .

ويقول " ميشيل مايير " في كتاب (تعاليم خلقية ودينية) : " الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ، ومع الناس ، وفي حق أنفسنا " (١٥). ويقول " سلفان بيريسيه ، في كتاب (العلم والديانات) : " الدين هو الجانب المثالي في الحياة الإنسانية " (١٦).

ويقول " سالومون ريناك " في (التاريخ العام للديانات) : " الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزا أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا " (١٧).

ويقول " إميل دور كايم " في (الصور الأولية للحياة الدينية) : "الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أي المعزولة المحرمة) - اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة (١٨).

وقد أدلى الشيخ مصطفى عبد الرازق بدلوه في بيان معنى الدين وذلك بعد أن ذكر ما قاله " ماكس مولر " واستخلص منه الآتي :-

١- نظام اجتماعي لطائفة من الناس ، يؤلف بينها إقامة شعائر موقوتة ، وتعبد ببعض الصلوات ، وإيمان بأمر هو الكمال الذاتي المطلق ، وإيمان باتصال الإنسان بقوة روحانية أسمى منه حالة في الكون ، أو متعددة ، أو هي الله الواحد .

٢- حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد ومن أعمال عادية تتعلق بالله .

٣- احترام في خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة . ولعل هذا المعنى الأخير هو أقدم هذه المعاني (١٩).

وقد ذكر العالم الاجتماعي "دور كايم" للدين عدة تعريفات واعتراض عليها ولا مجال هنا لعرضها لأنها تحتاج لمناقشة وبيان رأينا فيها ويكفي أن نذكر ما ارتضاه من تعريفات الدين حيث قال بعد أن قسم الدين إلى عقائد وأفعال (فالعقائد الدينية هي العلم بطبائع الأمور المقدسة وما بينها من روابط والعلم بعلاقاتها بالأمور غير المقدسة) (٢٠).

ثانيا : معاني كلمات أخرى مرتبطة بالدين :

سبق أن ذكرنا أن هناك كلمات مرتبطة في المعنى قرباً وبعداً بكلمة الدين مثل كلمات : الملة والمذهب وعن العلاقة بينهما، وحاصل ما ذكره أن كلا من الدين والملة متفقان معنى ، مختلفان اعتباراً ، أو إضافة .

قال الإمام الراغب في مادة (ملل) : " الملة كالدين وهو أسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ، ليتوصلوا به إلى جوار الله . والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي تسند إليه نحو : (فاتبعوا ملة إبراهيم) آل عمران (٩٥) - (واتبع ملة آبائي) يوسف (٣٨).

ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ، ولا إلى أحاد أمة النبي * ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون أحادها .

فلا يقال : ملة الله ، ولا يقال : ملتي وملة زيد كما يقال : دين الله ودين زيد . ولا يقال : الصلاة ملة الله (٢١) ... وتقال الملة اعتباراً بالشيء الذي شرعه الله ، والدين يقال اعتباراً بمن يقيمه إذ كان معناه الطاعة " وقال " الشريف الجرجاني " - " الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار ، فإن الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى ديناً ، ومن حيث إنها تجمع تسمى ملة ، ومن حيث إنها يرجع

إليها تسمى مذهباً (٢٢).

وقيل : الفرق بين الدين والملة والمذهب أن الدين منسوب إلى الله تعالى والملة منسوبة إلى الرسول ، والمذهب منسوب إلى المجتهد .

وقال صاحب المنار :

" أقول : الدين في اللغة : الجزاء و الطاعة و الخضوع ؛ أي سبب الجزاء ، ويطلق على مجموع التكاليف التي يدين بها العباد لله فيكون بمعنى الملة والشرع .

وقال : إن ما يكلف الله به العباد : يسمى شرعا ، باعتبار وضعه وبيانه . ويسمى ديناً ، باعتبار الخضوع وطاعة الشارع به ويسمى ملة ، باعتبار جملة التكاليف " (٢٣).

ومن الأمور الواضحة في النصوص المذكورة أن الدين والملة يطلقان على معنى واحد هو : جملة التكاليف التي يدين بها العباد لله . كما ذكر كل من الإمام الراغب وصاحب المنار . وأن التباين والاختلاف بين الدين والملة يرجع إلى ناحيتين .

(الأولى) من الناحية الاعتبارية : أي من حيث المعنى الذي يراد ويعتبر ، فما يكلف الله به عباده من الأحكام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يسمى ملة . باعتبار جملة التكاليف الشرعية ومجموعها ، كما يسمى ديناً من حيث الخضوع والطاعة والانقياد لهذه الشرائع الإلهية .

(الثانية) من حيث النسبة والإضافة والحكم . أي من حيث ما يسند إليه كل من الدين والملة ، ويبدو هذا في أمور ثلاثة :

(أ) إن الملة لا تضاف إلى الله تعالى بل تضاف إلى النبي فلا يقال : (ملة الله) وإنما يقال كما جاء في القرآن الكريم : (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً - واتبع ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب) ، ونحو ذلك .

وهذا بخلاف الدين فإنه يضاف إلى الله كما في قوله تعالى : (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) (النور ٢).

(ب) إن الملة لا تضاف إلى أحاد الأمة وأفرادها وإنما تضاف إلى المجموع .

فلا يقال : " ملة زيد أو على " وإنما يقال الملة اليهودية أو ملة النصارى مثلاً .

وهذا بخلاف الدين فإنه ينسب إلى الأحاد و الأفراد فيقال دين محمد ودين زيد كما يضاف إلى المجموع فيقال دين المسلمين و نحو ذلك * .

(ج) إن الملة لا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون أحاده بخلاف الدين ، فلا يقال : الصلاة ملة كما يقال مثلاً الصلاة دين والحج والجهاد دين إلى غير ذلك .

أما المذهب : فيراد به : مجموعة الآراء والأفكار التي تستند إلى العقل إما ابتداءً واستقلالاً كالاتجاهات الفلسفية التي لا تستند إلى نصوص الوحي وإما استناداً إلى النص واستنباطاً منه كالمذاهب المختلفة في الأمور الشرعية مثل المذاهب الفقهية أو في الفكر الكلامي مثل مذهب المعتزلة الأشاعرة فهذه من الممكن أن تسمى مذهباً أو فرقة .

ثالثاً :- نشأة الدين :-

إن أهم ما يشغل الباحث في فلسفة الأديان أو في علم مقارنة الأديان متى وكيف نشأ الدين .

وبما أننا مسلمون والحمد لله نجد بين أيدينا كما هائلاً من النصوص الصحيحة والصريحة التي تحدثنا عن أصل التدين وعن حقيقته . وكيف كان في الإنسان وهل هو فطري أم مكتسب . إلا أننا التزاماً منا بالمنهج العلمي البحت الذي يحتم علينا أن نبحت الأمر بحثاً مجرداً من أية مؤثرات أولاً ثم ننشئ بعد ذلك بما نراه صواباً .

* ونري أن في هذه القرون تكلفاً غير مقبول فما الذي يمنع من الناحية اللغوية إضافة كلمة الملة إلي أحاد الأمة وعدم إضافة القرآن كلمة الملة إلي أحاد أمة النبي ليس دليلاً علي منعها إذ الكلام يتعلق بلفظة عربية ولم يتعلق بتقرير حكم شرعي وإضافة كلمة الملة إلي الأنبياء في قوله تعالى : (وأتبعنا ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) أري أن فيه دليلاً علي إضافتها إلي أحاد الإنسان وبالتالي يجوز إضافتها إلي أحاد الأمة . والذين منعوا إضافتها إلي أحاد الأمة لم يذكروا دليلاً أو علة للمنع .

حتى يظهر البحث في أتم ما يكون من الناحية الموضوعية والشكلية .
انقسم الباحثون في نشأة الدين إلى فريقين :
الفريق الأول : القائلون بتطور الدين، والفريق الثاني : القائلون
بفطريته .

النظريات التطورية :-

أما النظريات التطورية فتتكون من مذاهب متعددة أهمها المذهب
الحيوي والمذهب الطبيعي والمذهب التوتمي - وأما النظريات
الفطرية - فيمثلها أحسن تمثيل المذهب المؤله عند "شميت" - "ولانج"
وغيرهما . ولعلماء المسلمين رأى في فطرية الدين سنذكره في
موضعه من هذا البحث .

إلا أننا سنعرض تاريخ تلك النظريات أولاً ، وأقوال أصحابها
بشيء من التفصيل .

١ - المذهب الحيوي :-

ينسب هذا المذهب إلى عالمين من أشهر العلماء الباحثين في العلوم
الإنسانية المختلفة - أولهم " تيلور " وثانيهم سبنسر ولم يختلف الاثنان
إلا في نقطة واحدة سنبينها في حينها . أما فيما سوى ذلك ففكرتهما
واحدة ، وقد عرف مذهب " تيلور " بأنه المذهب الحيوي الحقيقي .
أما مذهب سبنسر فقد أطلق عليه اسم "Manism"، وإن كان الاثنان
لا يختلفان في جوهرهما كما قلنا ، ذهب الاثنان إلى أن أقدم دين في
الوجود " هو الاعتقاد في الأرواح وعبادتها " . ولفهم الأمر على
حقيقته لابد من فهم نشأة النفس الإنسانية من منظور القائلين بعبادة
الأرواح (٢٤) .

نشأة النفس الإنسانية :-

كانت أولى الآلهة عند أصحاب المذهب الحيوي هم الأسلاف .
ويسمى هذا المذهب "Evhemerisme" نسبة إلى الفيلسوف اليوناني
"Evhemere" كان هذا الفيلسوف يشرح فكرة الآلهة بتكهن الملوك
الموتى وبهذا كان أسبق الباحثين إلى وضع أسس مذهب حيوية المادة
أو المذهب الحيوي (٢٥) .

أما كيف نشأت الفكرة عند تيلور فيقول " إنها نشأت عن اعتقاد الإنسان البدائي في الحياة المزدوجة التي يحياها في يقظته من ناحية وفي نومه من ناحية أخرى - فقد تصور الحياتين على اعتبار أن كلتيهما حياتان حقيقتان واقعتان . فما يراه في نومه - أي في حلمه - إنما هو تعبير عن حياة حقيقية قضاها ، لها كل مقومات الحياة التي يمارسها أثناء اليقظة .

فحين يحلم أنه زار بلادا بعيدة ، يعتقد عن يقين أنه زارها . ويستخلص من هذا أنه يوجد فيه كائنان ، أحدهما الجسد ، وهو الكائن الملتصق على المكان الذي نام فيه ، وله صفات مادية من تحيزه في المكان وعدم انتقاله . وثانيهما كائن آخر له قدرة على التنقل من مكان إلى مكان ، في الوقت الذي يكون الكائن الأول - وهو الجسم - ساكنا في حالة النوم . ومن التجارب المتعددة التي تحدث للبدائي في نومه - وما يراه من أحلام ومن ملاحظته أن من يقابلهم في حلمه لهم أيضا أجسام بعيدة ونفوس قريبة منه .. من هذا كله ثبت له أن فيه كائنا آخر غير الجسم ، يستطيع - في ظروف معينة - أن يترك هذا الكائن العضوي الذي يسكن فيه ، وأن ينطلق بعيدا عنه ، ولهذا الكائن الآخر كل الصفات المادية التي للكائن الأول . ولكن يتميز عنه في الوقت عينه بميزات متعددة - إنه أكثر حركية . إنه يخترق في لحظات أمادا طويلة ، إنه أكثر شفافية ولينا ، إنه ينفذ من أجزاء الجسم - من الأنف أو الفم على الخصوص . يمكن اعتباره ماديا بدون شك ولكنه من مادة لطيفة أثيرية ، تختلف أشد الاختلاف عما يعرفه الإنسان تجريبيا . هذا الكائن ، هذا القرين هو النفس (٢٦).

... تلك هي النفس التي اعتقد كثير من المجتمعات البدائية أن لها - بجانب قدرتها الأثيرية العجيبة - القدرة المادية على الإيذاء - فهي تستطيع أن تنزل النكبات بالناس - وأن تحاربهم من وراء أسجافها الخفية وعوالمها غير المنظورة .

ولهذا كانت القبائل الأسترالية تلجأ إلى قطع الإبهام الأيسر لقتلاهم، لكي تفقد نفس القتل القدرة على الانتقال .

ولكن هذه النفوس عامة - برغم قدرتها المادية - فهي كما قلنا - " جسم لطيف أثيري وهوائي " لا يمكن أن نحسه أو نلمسه.

ومما زاد البدائي اعتقاداً بأن للنفس تلك القدرة العجيبة ، ما كان يلاحظه في حالات مرضية من إغماء وتشنج أو في حالات جذبية يغيب فيها الإنسان عن وعيه .

وكان يفسر هذا بأن مبدأ الحياة الحساسة انطلق عن الجسم مؤقتاً، إن مبدأ الحياة امتزج بالقرين ، بالنفس ، وإن غياب النفس لحظة كان معناه توقف الحياة والفكر . وقد قال سبنسر بالملاحظات المختلفة عن فكرة الثنائية المغروسة في الإنسان عند الأمم البدائية.

عبادة النفوس الإنسانية . عبادة الأرواح الدينية:-

لم تكن النفس الإنسانية " روحاً " إنها متصلة بالجسد ولا تخرج منه إلا نادراً ، وإذا لم تكن النفس شيئاً أكثر من ذلك ، فإنها لم تعبد أي عبادة. أما كيف عبدت وأصبحت قدسية ، فهذا إنما يتحقق بتحولها إلى أرواح ، تبتعد عن المكان المعين الذي كانت تشغله من الجسد ، ولا يستطيع الإنسان أن يتصل بها إلا بمراعاته لطقوس خاصة. فالنفس إذن لا تصبح روحاً إلا إذا انتقلت من الجسد الإنساني والموت وسيلتها في هذا الانتقال (٢٧).

ولم يتميز الموت عند البدائي عن إغفاءة طويلة أو نوم مستغرق له كل صفات النوم إنه انفصال النفس عن الجسد . يشبه في هذا ما يحدث في كل ليلة ، ولكن انفصاله أبدى سرمدى . ويزداد عدد هذه النفوس شيئاً فشيئاً ، إلى أن تكون عالماً من نفوس حول عالمنا الحي، ولهذه النفوس مطامعها وميولها الإنسانية . ولذلك تحاول المشاركة في حياة أصحابها القدامى - سواء بمساعدتهم أو بما تنزل بهم من مصائب وآلام . وموقفها هذا يتبع ما تحتفظ به إزاءهم من عواطف وأحاسيس ، فتسيطر على من تحب ، بما لها من قدرة على النفاذ. وهذه الحالة الروحية النفسية لم يكن الإنسان البدائي يتصور فيها نفساً فردية ، ذاتاً له على الخصوص . بل كان يعتقد في قوة منبثة خلال الوجود كله . وعلى هذا كان السحر قبل الدين ، لأن فكرة المانا *

* فكرة المانا : ظهر هذا اللفظ عند الميلانزيين واكتشفه لأول مرة عندهم "كوردنجتون" . ويقصد به القوة السحرية " قوة متميزة تمام التميز عن كل قوة

قوة سحرية بجانب قوتها الدينية ، وتكون قوتها السحرية أكثر . غير أن "preuss" ذهب إلى أن فكرة القوة السحرية تحتوى مجموعة من الصفات الشاذة . بينما ذهب العالمان الإنجليزيان "king" و "Marett" إلى أن أول تصور ديني للإنسان ، كان تصورا لقوة عامة بكل معنى العمومية منبثة في الأشياء ونشأة النفوس الفردية عن تخصيص لفكرة المانا . ثم تركزت وتشخصت في شتى الأشياء والموجودات (٢٨) .

٢- المذهب الطبيعي :-

كان الحيويون في غالبيتهم علماء أجناس وعلماء إنسان . وكانت الأديان التي بحثوها تعتبر من الديانات الأولى التي اعتنقتها الإنسانية في عهود همجيتها . ولذلك لا نجدها تصل إلى فكرة وجود موجود كامل يسيطر على الكون ، إلى فكرة روحية دينية سامية . إنما عبدت موجودات روحية دون هذا الموجود السامي الأعلى . عبدت نفوس الموتى والأرواح والجنات وعلى العكس من هذا كان أصحاب المذهب الطبيعي ، درسوا طائفة من أرقى الحضارات في أوربا وآسيا . ولذلك اتجهت أبحاثهم إلى إثبات وجود فكرة هذا الموجود الأسمى لدى الإنسانية الأولى .

مذهب مولر . الدين حقيقة تجريبية :-

كانت الفكرة التي ذهب إليها المذهب الحيوي أن الدين في منشأه لم يعبر عن حقيقة تجريبية ، أي أنه لم ينشأ عن استجابة لمسائل تسيطر عليها التجربة وتوسمها بوسمها .

أما المذهب الطبيعي فكان على العكس من ذلك ، فقد اعتبر التجربة أمرا مسلما لا يتسرب إليه أي شك وأقام الدين على هذا الأساس .

يقول مولر " ينبغي أن يبدأ الدين بتجربة حسية لكي يأخذ مكانه الذي يردده إلى عنصر مشروع بين معارفنا (٢٩)" لقد أخذ مولر هذا المبدأ التجريبي القديم "لا شيء في العقل ما لم يكن من قبل في

مادية تؤثر بكل الأشكال إما للخير وإما للشر ، ويحصل الإنسان على أكبر الميزات إذا ما تملكها وسيطر عليها .

التجربة (٣٠) " أخذ هذا المبدأ وطبقه على الدين . وقرر أنه لا شيء يتحقق في عقيدة الإنسان ، ما لم يكن قد أتى قبل عن حواسه . وعلى هذا لن يوجه إلى هذا المذهب ما وجه من قبل إلى المذهب الحيوي من نقد اعتبر أهم نقد وجهه دور كايم إليه : وهو أن الدين لا ينبغي أن يظهر بالضرورة عن أوهام أو عن أحلام ، وإنما كمجموعة من الأفكار ومن العقائد ومن العبادات منتظمة في مذهب ، وقائمة على أساس من الحقيقة والواقع إلا أن النقد يوجه إلي هذا المذهب من قبل أصحاب الأديان السماوية بصفة عامة والإسلام علي وجه الخصوص حيث لا يمكن إخضاع العقائد الإسلامية والدينية السماوية للتجربة الحسية أو حتى للتجربة الذاتية إذ الاعتقاد في الأديان السماوية صادر من الذات العليا التي يستحيل أن تخضع هي للتجربة ومن ثم نري أن الأديان السماوية ستلفظ من بين هذه الرؤية الطبيعية التجريبية في نشأة الدين . ولكن ما هي هذه المحسات التي تولد عنها الفكر الديني ؟ هذا هو السؤال الذي تساعد دراسة الفيدا على معالجته . لقد دلت هذه الدراسة على أن أسماء الآلهة إنما هي أسماء مشتركة من الممكن ببساطة التوصل إلى أصلها الأصلي ، وتعني كلها ظواهر الطبيعة الرئيسية .

ومن الأمثلة على ذلك كلمة " Agni " - هو أسم أحد آلهة الهند الرئيسيين . لم يكن لهذا الاسم - أول الأمر - أية دلالة دينية أو أية إشارة إلى فكرة ميتولوجية ، بل كان يشير فقط إلى فعل النار المادي - كما تدركها الحواس .

قد استخدم هذا الاسم على هذا الأساس في الفيدا ، والذي يدل على أن هذا المعنى كان بدائيا ، أننا نجده في اللغات الهندية الأوربية، ففي اللاتينية "ignis" وفي السلافية القديمة "ogny" وكل هذه الكلمات - فيما نرى - متصلة بكلمة " Agni " السالفة الذكر .

وكذلك نجد صلة واضحة بين الكلمة السنسكريتية "Zeus"، "Dyaus" اليونانية و"Jovis" اللاتينية و"Zio" في اللغة الألمانية الشمالية .

وهذا كله يدل دلالة واضحة على المصدر الواحد الذي تتلاقى عنده هذه الكلمات وذلك قبل أن تنفصل تلك اللغات ، وتعتبر كل لغة

منها قائمة بذاتها وأما ما تعبر عنه كلمة "Dyaus" فهو الشمس المتألله . ومعنى هذه الكلمة ومعنى غيرها من الكلمات يدل على أن أول عبادة إنما اتجهت إلى عبادة الطبيعة في قواها وعناصرها المختلفة . فكانت تلك القوى والعناصر الطبيعية أولى الأشياء المؤلهة (٣١). وهكذا بدأت الإنسانية دينها.*

فكرة اللامتناهي :-

كيف وصل ماكس مولر إلى فكرة اللامتناهي وهي أوج الفكر الديني عنده ؟

يتبين هذا بوضوح من تطور البحث الاجتماعي في الدين مبتدئين ببيان فكرة التطور الديني عند أوجست كونت حتى ندرك الفرق بين رؤية أوجست كونت للتطور وما ذهب إليه مولر . لقد ذهب أوجست كونت إلى أننا نستطيع أن نكتشف قانون تطور العقل الإنساني في الفكر الديني نفسه . إن الدين إنما نشأ عن حاجة عقلية غريزية في النوع الإنساني. وظهر حالما ظهرت الإنسانية نفسها (٣٢).

وقد أخذ الدين أول الأمر صورة الفيتيشزم ، ومذهب الفيتيشزم يؤله كل شيء ، يؤله الحجر والنبع والشجرة ، وذلك بأن ينسب لها قوة غيبية. ثم ظهرت عبادة النجوم وهي تكون حالة وسطا . ثورة مرت بها الإنسانية من مذهب الفيتيشزم إلى مذهب الشرك. ثورة وليست تطورا بسيطا - فيما يقول كونت - ففي الحالة الأولى كانت الآلهة غير فعالة بينما كانت ساكنة في الثانية .

الآلهة في الأولى كانت في باطن كل شيء ، فأصبحت في الثانية خارجية وسامية ، وقد أدى تقدم الملاحظة والمعرفة والرغبة في شرح متناسق متكامل واحدي للكون إلى مذهب التوحيد (٣٣). إن الملاحظ - في هذه الحالات الثلاث - أن قانون التطور الديني

* بهذا التصور الساذج المتناقض تماما مع الوجود والأديان السماوية تصور " مولر " أنه وضع شكلا مقبولا لا لمنشأة الدين ويؤكد مولر بفكرية هذه أسبقية الكثرة على التوحيد وهو الأمر الذي لا نقره ولا نوافقه عليه لأن كل الأديان السماوية أكدت أن الواحدية هي الأسبق في الوجود عن التعددية.

هو قانون النقصان الثابت للفكر اللاهوتي . كلما تقدمت الإنسانية وقطعت شوطاً في مدارج الرقى ، كلما نقص تصور الفكر الديني للآلهة وللدين عامة .

جاء ماكس مولر بعد ذلك ، ووضع فكرة متوسطة بين فكرة الفيتيشزم وفكرة التوحيد ، هذه الفكرة المتوسطة هي فكرة حدس ذاتي - حدس ذاتي لفكرة اللامتناهي - الدين هو اللغة التي يعبر بها الناس عن احساساتهم الغامضة وعن عواطفهم ، وقد أخذ أول الأمر صورة تلك الآلهة المتعددة " Varuni " - " Agni " الخ. وفي كل مرة يعبد فيها واحد منهم بعد الآخر ، يصبح هذا الأخير أقوى الجميع . ويحتوى كل الآخرين ، ويعتبر واحداً ، وهذه العبادة الغامضة في أول أمرها ، أوحى بفكرة اللامتناهي التي ترمز إليها الآلهة. الإله الذي يعبد - في نظر هؤلاء - إنما يحتوى في باطنه عددا لا متناهيًا من الآلهة التي تعاقبت قبله - والذي بعده سيحويه ، وسيحوى هذه السلسلة من الآلهة ، ولكن سرعان ما دخل مذهب التطور في الأبحاث الاجتماعية والأنثوجرافية ، وقضى على نظرية - لم يكن الله فيها إلا فكرة راقية لا يستطيع أن يصل إليها البدائي - وهذا ما يحتمه قانون التطور الجازم (٣٤).

٣- المذهب التوتمي :- (٣٥)

يعد المذهب التوتمي واحداً من النظريات التطورية في فكرة الإله أو المعبود والتي تعد هذه الفكرة محور فلسفة الأديان .

* * *

النوع التوتمي* :-

إذا كانت الرسوم التي تصور التوتم تثير عواطف دينية مقدسة ، فإن من الطبيعي - أن تكون الأشياء المصورة - والتي ترمز إليها الرموز مقدسة أيضا ؛ ولو إلى حد معين . وهذه الموجودات التوتمية الحقيقية نباتات وحيوانات . وتستخدم هذه الموجودات في التغذية . ومن البدهي أن عنصر هذه الموجودات الديني سيؤدي إلى القول بأنه ينبغي تحريم أكلها، اللهم إلا في بعض الأكلات الدينية. وأن من يقدم على هذا ، فجزاؤه الموت ، وكان يعتقد أنه يسكن في النبات أو الحيوان التوتمي عنصر هام لا يمكنه أن يدخل في المكان غير المقدس إلا إذا أعطبه وأتلفه وقضى عليه ، ولكن أباحت العشائر لبعض أفرادها الذين بلغوا سنا معيناً، أكل تلك النباتات والحيوانات . ويبدو أن تحريم أكل هذه الحيوانات ، إنما هو تحريم شكلي ، لأن ترخيص أكله كان في بعض الأحوال، ثم توسيع نطاق هذا الترخيص، سيوسع بالتالي من دائرة الإباحة .

غير أن إباحة أكل التوتم لم يكن يتم إطلاقاً ، كانت هناك قيود تحدده . وفي بعض القبائل التي كان يتجاوز أفرادها الحد المعين في أكل توتم من التواتم ، فإن الاتحاد - وهو النظام الاجتماعي الأكثر شمولاً من العشيرة يعاقب هؤلاء الأفراد بواسطة عمل سحري عقاباً قد يؤدي إلى قتلهم .

وهذا يبين مدى احترام القبائل والعشائر القديمة لمعبوداتهم وقدر تقديسها مهما كانت - وفي هذا إشارة تبين الدوافع النفسية التي جعلت بعض الهنود يعبدون بعض الحيوانات كالبقر وما شابه ذلك - ويرى سبنسر وجلين أن هذه التحديدات والنواهي طارئة على المجتمع التوتمي ، وأن الأصل هو الإباحة .

ويثبتون هذا بدليلين - الأول - كان من الواجب على أفراد

* ظهور الكلمة : لم تظهر كلمة توتم كمصطلح في علم لأجناس إلا في آخر القرن الثامن عشر . وقد ظهرت للمرة الأولى في كتاب لونج الهندي . وقد ظهر هذا الكتاب في لندن سنة ١٧٩١ وحتى هذه السنة كان المذهب التوتمي يعتبر نظاماً أمريكياً بحتاً .

العشيرة أو على رئيسها في بعض الظروف الدينية الأكل من الحيوان أو النبات التوتمي .

الثاني : إن الأساطير تقول : إن مؤسسي العشيرة من الأسلاف العظماء كانوا يأكلون بانتظام من توتهم .
فالتحريم إذن لم يكن موجودا في أول الأمر ، إنما كان من المشاع أكل الحيوان التوتمي (٣٦).

لم يوافق دور كايم على هذا ، ويرى أن أكل التوتم في بعض الحفلات الدينية لا يعنى إطلاقاً أنه يستخدم في الأكل العادي . بل إن الأمر على العكس تماماً . إن الطعام الذي يتناول في أكلات دينية هو طعام ديني ، ولا يباح أكله لغير المقدسين . أما أن الأساطير تقول إن الأسلاف كانوا يأكلون من توتهم ، فلا ينهض حجة تاريخية على تحليل أكل الحيوان في مبدأ الأمر ، ولا يمكن أن تعتبر الأساطير وثيقة تاريخية . إن الغاية من الأساطير هي تفسير عبادات موجودة أكثر منه تفسيراً وتحليلاً للتاريخ . وإن الأساطير التي تقول إن الأسلاف - في العهد الوحشي الأول - كانوا يأكلون من توتهم هي على اتفاق مطلق مع العقائد والعبادات الموجودة الآن ، والتي تمارس في الوقت عينه . إن الكهول والشخصيات التي وصلت إلى درجة كبرى دينية ، يخلصون من النواهي والتكاليف التي يخضع لها بقية الناس ، إنهم يأكلون الشيء المقدس ، ولكن لم يكن هذا الطعام مشاعاً لكل غير مقدس (٣٧).

ومن الأمور الطريفة التي ينبغي أن نلاحظها أن التوتم كان ينسب إلى الأم تارة وإلى الأب تارة أخرى بمعنى أن الولد كان يرثه عن الأم أو عن الأب .

إن من المؤكد في الاجتماع الأسرى - أن النظام الأمي أقدم من النظام الأبوي - وقد أدى هذا إلى تحريم أكل التوتم الأمي وتقديسه تمام التقديس ، وإن كان التوتم - تبعاً لتطور ما - قد أصبح أبويًا .

وبجانب تحريم أكل التوتم عامة ، فإنه لا يحل أيضاً قتله إذا كان التوتم حيواناً ، أو قطعه إذا كان نباتاً . ولكن هناك حالات استثنائية ، إذا كانوا في حاجة الضرورة . إذا كان الحيوان مفترساً أو مؤذياً وفي بعض القبائل لم يكونوا يقتلونه برغم ما يقدمه من أذى كالذباب مثلاً . أو إذا لم يجدوا شيئاً غيره يأكلونه ، وكانوا أحياناً يقتلون الحيوان

التوتمي ، لا لحسابهم بل للآخرين !! (٣٨).
ومن خلال هذه التحليلات والتحريكات نلاحظ أن الصور والرموز
التوتمية أقدم بكثير من التوتم نفسه ، من الحيوان والنبات . إن تلك
الرموز لا يمكن لغير المتطهرين لمسها أو رؤيتها ، بينما الحيوان أو
النبات يلمسه غير المتطهرين أحيانا (٣٩).

أفراد العشيرة :-

أعتبر الإنسان في كثير من الديانات ، الموجود غير المقدس ،
نلاحظ هذا في كثير من الأديان الأكثر تحضرا من الأديان البدائية كما
نلاحظ هذا في الأديان الكبيرة . وصفة التقديس في الأنبياء صفة
ضئيلة ، هم بشر يأكلون ويمشون في الأسواق اللهم - إلا في
المسيحية. أما التوتمية فلا توافق على هذا الرأي . إن أفراد العشيرة
لهم صفة مقدسة * لا تقل إطلاقا عن الصفة المقدسة التي تمنح
للحيوان . والسبب في هذه القداسة ، أن الإنسان يعتقد أنه حيوان أو
نبات من النوع التوتمي . إنه يحمل أسم التوتم . والمشاركة في الاسم
هي أيضا مشاركة في الطبيعة (٤٠).

ننتهي من هذا إلى أن إنسان العشيرة كان يعتبر مقدسا وأن
القداسة تشيع فيه ، ولكن هناك أجزاء كانت أكثر قدسية وتميزا هي :
الدم والشعر وبين بطلانها وسيأتي مزيد إيضاح لهذا الأمر في
موضعه من هذا البحث *

الدم : الدم شيء مقدس إلى أكبر حد بحيث أنه في قبائل استراليا
الوسطى كان يدخل في جميع الطقوس و العبادات . ولم تكن
النورتونجا تكتسب القداسة في بعض الأحيان ، إلا إذا رسمت بالدم
الإنساني ولم تكن بعض القبائل تضع رسومها الدينية إلا على أرض
تلطخت بالدماء . وكان على المريدين في بعض الطقوس أن يقطعوا
بعض شرايينهم لكي ينبثق الدم منها ، وكان لا يباح للنساء حضور

* وهذا يشير إلى كيفية وقوع الوثنية في الأزمنة الغابرة حيث اتخذ الناس أصناما
جعلوها نماذج للصالحين فيهم مثل " ود وسواع ويغوث ونسرا " وهذه الآلهة أشار
إليها القرآن الكريم في قوله {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا
يغوث ويعوق ونسرا * } (نوح ٢٣) .

هذا المشهد أو رؤية الدماء . أما الدماء المهرقة فقد عددوا لها فضائل عظمت ، تختلف عند مختلف القبائل . وإذا ما سقط دم جمعه في مكان ووضعوا عليه قطعة خشب ، تنبه الناس إلى طهارة المكان ، ولم تكن النساء تستطيع أن تقترب منه . وقد اعتبرت أشياء أخرى مقدسة لأنها تشبه الدم في لونها - التراب الأحمر مثلا - وكان يستخدم كثيرا في الطقوس الدينية ، إن قداسه منشأها إلى حد كبير مشابهته للدم في لونه ، وبهذا اعتبر جوهرًا قريبًا منه (٤١).

الشعر : كان للشعر قدسية كبيرة ، وقد دخل كما رأينا في صنع بعض الرموز . واعتبر قطع الشعر نفسه عملاً عبادياً يصطحب بطقوس خاصة ، وإذا ما مات البدائي قطع شعره ، وحفظ في مكان خاص لا تراه النساء ولا غير المتطهرين .

(ولم يكن الدم والشعر هما وحدهما المقدسين ، فهناك أجزاء من أعضاء الجسد كانت مقدسة أيضا غير أنها كانت أقل قدسية من الدم والشعر ، وكانت أيضا تدخل في العبادات ولها مكان في الطقوس .

ولم تكن القداسة متساوية في جميع أفراد العشيرة ، بالنسبة للرجال والنساء كان الرجال أكثر قدسية من النساء ، والنساء على العموم كانت من العالم غير المقدس . وإذا ما اجتمعت الجماعة التوتمية أي العشيرة أو القبيلة ، كان الرجال يقيمون في جانب ، والنساء يقمن في جانب آخر منفصل وكان معسكر الرجال محرماً على النساء . ثم يختلف الرجال أيضا في القداسة ، فالشبان غير المتطهرين أقل قداسة من الرجال ، ولا يباح لهم حضور الطقوس . أما المقدسون فكان يباح لهم ما لا يباح للآخرين من حقوق كآكل الحيوان التوتمي مثلا) (٤٢) .

وهنا تستوقفنا آية قرآنية وهي " كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين " أل عمران (٩٣) ، وإسرائيل هو يعقوب وهو نبي من أنبياء الله والسؤال الذي يستوقفني هو هل كان إسرائيل الذي هو يعقوب خاضعاً لهذا الفكر التوتمي فحرم على نفسه أشياء كانت مباحة أم الكلام غير الكلام ؟ ونرجئ الجواب على هذا السؤال في نهاية هذا الفصل.

أساس التوتمية أو المانا التوتمية - وفكرة القوة :-

تقدس التوتمية - كما رأينا - الرموز - ثم التوتم - الحيوان أو النبات - ثم أفراد العشيرة وتشيع القداسة في كل هذه العناصر - بشكل متساو أحياناً ، وبشكل غير متساو في أحيان أخرى . غير أننا لا يمكننا أن نقول إن لأحد هذه العناصر أي ميزة دينية خاصة على الأخرى إذن ما هو علة العواطف والأحاسيس المتشابهة التي توحى بها قدسية تلك الكائنات المختلفة في نفس المريد " أو العابد " (إن علتها مبدأ منبث بشكل عام ، وبدون أدنى تمايز في الرموز التوتمية وفي أفراد العشيرة وفي النوع التوتمي . وإن العبادة التي كان يمارسها البدائي إنما تتجه نحو هذا المبدأ وحده (٤٣) . التوتمية - في واقع الأمر - ليست هي الدين الذي يقُدس هذه الحيوانات أو هؤلاء الناس أو تلك الصور فحسب ، (إنها نوع من القوى العامة غير المشخصة ، إنها توجد في كل هاتيك الموجودات . بدون أن تختلط بواحد منها ، ولا واحد من هؤلاء يمتلكها جميعها ، وكل واحد منهم يتشارك فيها . إنها مستقلة عن كل الأشياء الجزئية التي تحل فيها . ثم إنها سابقة عليهم في الوجود ، وباقية بعدهم . يموت الأفراد ، وتتعاقب الأجيال ، وهذه القوة باقية حاضرة على الدوام حية ، شبيهة بذاتها ، لا تغير فيها ولا تبدل ولا اختلاف . تهب الحياة للكائنات الموجودة كما وهبت كائنات الماضي ، كما ستهب كائنات المستقبل ، إنه الإله الذي تتجه كل عبادة توتمية إليه بالتقدير والتبجيل ، ولكنه إله غير مشخص ، لا أسم له ولا تاريخ ، يفيض على العالم ، ويثبت في عدد غير محدود من الأشياء (٤٤) .

إن هذه القوة العامة المنبثة غير المشخصة لا تتناول فحسب النوع التوتمي وأفراد العشيرة والرموز ، إنما تمتد دائرة فعلها إلى أفق أوسع من هذا ، كل ما في العشيرة ، ويتصل بالتوتم ، يشيع فيه هذا المبدأ ، إن لها صفة دينية ما ، ما دام البعض منها يتناوله التحريم والنهي ، والبعض منها له وظائف معينة في الطقوس الدينية ، فهو لا يختلف إذن في طبيعته عن الأشياء التي تتصل بالتوتم - إنه يتصل بالضرورة بنفس المبدأ . إن الإله التوتمي - إن صح هذا التعبير -

يشيع فيها كما يشيع في كائنات العالم المقدس .

من خلال ما سبق يظهر لنا أن الدين بهذه الصورة يعد مكتسباً ، كالعادات والظواهر الاجتماعية وهذه نظرة بعض الفلاسفة والمفكرين للدين يقول (فولتير) إن الإنسانية لابد أن تكون قد عاشت قروناً متطاولة في حياة مادية خالصة ، قوامها الحرث ، والنحت ، والبناء ، والحدادة ، والنجارة قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات- إن فكرة التآليه إنما اخترعها دهاه ماكرون، من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء)(٤٥).

وقد ذهب إلى ذلك أيضا (جان جاك روسو) حيث رأى أن كلا من الدين والقانون من صنع المجتمع . إذ يرى أن الحالة الأولى للإنسان بمثابة لوح مصقول حال من العلم والصناعة والأخلاق والفن ، إذ يقرر : أن الإنسان كان متواحداً في الغاب ، لا يعرف أهله ، لا لغة له ، ولا صناعة ، ولا فضيلة ، ولا رذيلة من حيث إنه لم يكن له مع أفراد نوعه أية علاقة يمكن أن تصير علاقة خلقية. ثم إنه نتيجة لفكرة العقد الاجتماعي والتربية الملائمة. حينما ينتقل الإنسان من حالة التوحد إلى حالة الاجتماع . لابد لهذا المجتمع من (دين مدني) لا يدع الفرد ناحية من الحياة مستقلة عن الحياة المدنية ، وإنما لزم الدين لأنه ما من دولة قامت إلا وكان الدين أساسها على أن يكون هذا الدين قاصراً على العقائد الضرورية للحياة . هذه العقائد هي عقائد القانون الطبيعي: وجود الله ، والعناية الإلهية ، والثواب والعقاب في حياة أجلة ، وقداسة العقد الاجتماعي والقوانين ولكل أن يضيف إليها ما يشاء في ضميره. ومن الواضح أن القول بأن العقائد المذكورة هي عقائد القانون الطبيعي : أنها عقائد طبيعية بحتة ، لا تستند إلى وحي من حيث إن في الوحي تعدياً على حقوق الشخصية (٤٦).

وقد قرر المرحوم الدكتور (دراز) : أن هذه النظرة الساخرة للأديان والقوانين ليست مبتكرة وإنما ترديد لصدى مجون قديم كان يتفكه به أهل السفسطة من اليونان ، وكانوا يروجونه فيما روجوه من المغالطات والتشكيكات ، فقديما زعم هؤلاء السوفسطائيون : أن الإنسان كان في أول نشأته يعيش بغير رادع من قانون ، ولا وازع من خالق ، كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة .. ثم كان أن

وضعت القوانين فاختلفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة .. فهناك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ، ترى كل شيء ، وتسمع كل شيء وتهيمن بحكمتها على كل شيء . هذا وقد ثبت في نهاية القرن الثامن عشر خطأ هذه المزاعم أعنى فكرة أن الدين مكتسب وأن الإنسان الأول عاش بلا دين . اتضح خطأ هذه الفكرة نتيجة لكثرة الرحلات خارج أوروبا واكتشاف العوائد والعقائد والأساطير المختلفة ، التي تبين مقارنتها أن فكرة التدين أقدم في المجتمعات البشرية من كل حضارة مادية ، ولم تتركز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ، بل إنها تعبر عن نزعة أصلية مشتركة بين الناس (٤٧).

(ب) القول بفطرية الدين :-

يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن التدين أمر فطري وطبيعي في الإنسان مهما كانت صورته عن الآلهة وعلى أي طريقة كان تدينه فمذ نشأة الإنسان لم توجد جماعة إنسانية في أي مستوى حضاري بلا دين ، كما ثبت ذلك من خلال الرحلات العلمية والاكتشافات الأثرية .

يقول معجم " لاروس " للقرن العشرين : إن الغريزة الدينية مشتركة : بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية (٤٨) .

ويقول " هنري برجسون " : " لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة " (٤٩) . إن التدين فطرة في الإنسان فهو تلبية لحاجات النفس الإنسانية في جوانبها المختلفة العقلية ، والوجدانية ، والإرادية إذ هو تكميل للقوة النظرية في الإنسان حيث يجد العقل في الدين ما يشبع حاجاته ، وتكميل لقوة الوجدان ، إذ أن العواطف النبيلة من الحب ، والشكر ، والتواضع ، والحياة ، والأمل ، وغيرها ، تجد في الدين مجالا ومنهلا لا ينفد كما أن الدين ضروري لتكميل قوة الإرادة في الإنسان ، إذ يمدّها بأعظم البواعث والدوافع وأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس .

وفى ضوء هذه الحقائق نقول : إنه إذا صح تعريف الإنسان عند علماء الاجتماع بأنه (حيوان مدني بطبعه) فإنه يصح أيضا أن نعرفه بأنه (حيوان متدين بفطرته) (٥٠).

وقد ذهب كثير من علماء المسلمين إلى القول بفطرية التدين وأن التوحيد أمر مركوز في النفس الإنسانية ، وهذا بدوره يدفعنا إلى سؤال هام يرتبط بنشأة التدين وهو : هل الأصل والأسبقية للتوحيد أم الأسبقية كانت للتعدد والوثنية والتوحيد مرحلة تالية للقول بتعدد الآلهة ؟

وفى الجواب على هذا نقول إن الباحثين في هذه المسألة يرجعون إلى الفريقين اللذين سبق ذكرهما وهما أنصار مذهب التطور ، والقائلون بفطرية التدين .

أولا : أنصار مذهب التطور : الذين حاولوا تطبيقه على تاريخ الأديان مثل (سبنسر) * (دور كايم) * وغيرهما .

ومذهب هؤلاء : أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يرتقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته .

يقول إميل دور كايم - : بدأ الدين بأن تصور الناس قوة لا شخصية، متفرقة في الأشياء ، تمنحها مالها من قوة ، ثم تشخصت هذه القوة في (التواتم) أولا : وفى الإله الواحد أخيرا، فكانت لنا فكرة الله كموجود مشخص مقدس ، فإن هذه الفكرة ليست مستقاة بما عند القبائل الهمجية في استراليا ، وإفريقيا ، وأمريكا، وبعض الاجتماعيين يرى أن الدين هو ما نشعر به من قوة باطنة، لا مكتسبة بالاستدلال ، ولكنها اجتماعية، والدين أقوى مظاهر الحياة الاجتماعية وأهمها (٥١).

ثانيا : أنصار المذهب الفطري : أي الذين يقولون بفطرية التوحيد وأصالته : وهم جمهور كبير من علماء الأجناس ، وعلماء الإنسان وعلماء النفس مثل : (لانج) الذي أثبت وجود عقيدة (الإله الأعلى).
فيرى هؤلاء : أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في

* هو : هربرت سبنسر فيلسوف إنجليزي ت ١٩٠٣ م اشتهر في علوم الطبيعة وعلم

النفس والاجتماع والأخلاق والتاريخ .

* هو إميل دوركايم ت ١٩١٧ م يعد واضع علم الاجتماع المعاصر .

البشر ، إذ لم تنفك عنها أمة من الأمم ؛ فتكون الديانات الوثنية والشرك بصوره المختلفة ليست إلا أعراضاً طارئة على عقيدة التوحيد (٥٢).

مكونات الدين :-

يتكون الدين في معناه العام سواء كان وضعياً أو سماوياً من أمرين اثنين أولهما الجانب النظري وثانيهما الجانب العملي .

١- الجانب النظري :-

يراد بالجانب النظري في الدين مجموعة القواعد التي تنظم علاقة المتدين بمعبوده أو بالآخرين كما تضع هذه القواعد والضوابط الأطر النظرية التي يرجع إليها في كيفية أداء الطقوس وبيان المعتقد وما شابه ذلك من التفاصيل الموجودة في كل دين من الأديان أو يرجع إليها من أجل معرفة التصورات النظرية للأديان وغالباً ما تكون هذه القواعد هي عبارة عن الكتب المقدسة التي تضم مجموعة المعتقدات والمعاملات مثل التوراة والإنجيل والقرآن وأقوال الأنبياء والمرسلين بالنسبة للأديان السماوية (٥٣).

٢- أما الجانب العملي :-

فهو عبارة عن الممارسات والأعمال والطقوس الفعلية الناتجة عن المعتقدات القلبية التي يقوم بها المتدين في أي دين من الأديان كما يضم هذا الجانب التصرفات والسلوكيات التي يقوم بها المتدين تجاه الآخرين الذين يختلفون معه في الدين أو الذين يخالفونه في المعتقد فمن مجموع الأمرين يتكون الدين (٥٤).

* * *

مراجع الفصل الأول

مرتبة حسب ترتيب الورود

- (١) المفردات في غريب القرآن ص ١٧٥ دار الباز - مكة المكرمة وراجع مادة (د ي ن) في المعاجم اللغوية .
- (٢) الدين - د/ محمد عبد الله دراز ص ٢٥ ، ٢٦ مطبعة السعادة ١٩٦٩م.
- (٣) المصدر السابق ص ٢٩
- (٤) المصدر السابق ص ٤٩ ، ٥٠
- (٥) المصدر السابق ص ٣٤
- (٦) المصدر السابق نفسه
- (٧) المصدر السابق نفسه
- (٨) المصدر السابق نفسه
- (٩) المصدر السابق ص ٣٥
- (١٠) المصدر السابق نفسه
- (١١) المصدر السابق نفسه
- (١٢) المصدر السابق نفسه
- (١٣) المصدر السابق نفسه
- (١٤) المصدر السابق ص ٣٦
- (١٥) الدين - د/ محمد عبد الله دراز ص ٣٦ مطبعة السعادة ١٩٦٩م.
- (١٦) المصدر السابق نفسه
- (١٧) المصدر السابق نفسه
- (١٨) المصدر السابق نفسه
- (١٩) الأديان في القرآن للدكتور / محمود بن شريف نقلاً عن الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه الدين والوحي والإسلام .
- (٢٠) المصدر السابق نفسه
- (٢١) المفردات ص ٤٧١
- (٢٢) التعريفات للجرجاني ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
- (٢٣) تفسير المنار ٢١١/٣ ط الشعب
- (٢٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٤٣٤ وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٨

- (٢٥) نشأة الدين وتطوره للنشار ص ٥٦، ٥ - مكتبة المتنبي - القاهرة ١٩٧٥ م.
- (٢٦) المصدر السابق ص ١٣.
- (٢٧) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ١٦ ، الدين والمجتمع ص ٢٣ وما بعدها على عبد الواحد وافي - مكتبة نهضة مصر - القاهرة - بدون تاريخ .
- (٢٨) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ١٩ ، ٢١
- (٢٩) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٢٤
- (٣٠) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٢٦ وأنظر أيضاً الدين والمجتمع ص ٢٥ د/ على عبد الواحد وافي .
- (٣١) المصدر السابق ص ٢٨ وأنظر أيضاً
- (٣٢) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٢٩
- (٣٣) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٤٠ - ٤٣
- (٣٤) المصدر السابق ص ٤٦
- (٣٥) الدين - د/ محمد عبد الله دراز ١٩٧٠ م دار القلم ط ٢ ص ١٢٧
- (٣٦) المرجع السابق ص ١٥٠ ، ص ١٥١ ، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٥٠.
- (٣٧) نفس المرجع السابق ص ١٥٣ ، ١٥٤ (الدين - دراز)
- (٣٨) الدين - دراز ص ١٥٦ ، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٥٤
- (٣٩) الدين دراز ص ١٦٠ ، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٥٦
- (٤٠) الدين دراز ص ١٦٢ ، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٥٦
- (٤١) الدين - دراز ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٦٠ .
- (٤٢) الدين - دراز ص ١٦٨ ، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص ٦٠
- (٤٣) الدين - دراز ص ١٦٩ ، عقيدة النصارى/صلاح عبد العليم إبراهيم ص ٤٢.
- (٤٤) عقيدة النصارى - صلاح عبد العليم إبراهيم ص ٤٣ ، ٤٥ .
- (٤٥) قصة الفلسفة - ويل ديورانت مكتبة المعارف - بيروت ط ٥ - ١٩٨٥ ص ٢٩٥.
- (٤٦) العقد الاجتماعي - روسو - ترجمة عبد الكريم أحمد مراجعة توفيق اسكندر الناشر دار سعد مصر - سلسلة الألف كتاب العدد ٤١٩ بدون تاريخ ص ١١٧ ، ص ١٣٥ .
- (٤٧) الدين - دراز ص ٨١ ، ٨٢ .
- (٤٨) معجم لاروس ، نفس المرجع السابق ص ٥٥٩ .

- (٤٩) الدين - دراز ص ٨٣ .
- (٥٠) عقيدة النصارى في ضوء القرآن الكريم - د/ صلاح عبد العليم ابراهيم
ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .
- (٥١) نفس المرجع السابق ص ٥١ : ٥٣ .
- (٥٢) عقيدة النصارى - د/ صلاح عبد العليم ص ٥٦ .
- (٥٣) الدين - دراز ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، عقيدة النصارى في
ضوء القرآن الكريم - د/ صلاح من ص ١٠ : ص ٢٥ .

الفصل الثاني

الديانة المصرية

القديمة

النشأة والتطور

لم يفلح فلاسفة الدين فى تحديد علة ظهور الأديان بعامة ، ودين الفراعين بخاصة .

فذهب بعضهم إلى أن الخوف من المجهول ، ومحاولة تبرير الإنسان لما يدور من حوله من ظواهر طبيعية . كان وراء اختراعه فكرة الألوهية وانتحاله بعض الأساطير التى تبرز وجود عالم يجهله شاغل بالكائنات الروحية التى تتحكم فى الكون وتقدر له المقادير .

وسرعان ما ينصرف هذا الإنسان عما كان يعتقد فى صحته تبعاً لتطوره وارتقاء الثقافة التى يحياها ، الى أن يصل للطور العلمى الحضارى الذى يمكنه من الإجابة عن التساؤلات التى دفعه عجزه عن الإجابة عنها للخرافة والعرافة بدلاً من التأمل والتجريب (١).

ويرد فريق آخر من الباحثين ظهور الفكر العقدي المؤله إلى قوى عليا مجردة ، تقوم باصطفاء الأنبياء والرسل لحمل أخبارها ورسائلها للبشر . وذلك منذ وجود الإنسان على هذه الأرض وتتعاقب الرسائل تبعاً لطبيعة المجتمعات الموجه لها الخطاب من جهة ، ومدى استجابة المستقبل من الأقوام البشرية من جهة ثانية ، ورغبة القوى العليا فى نسخ وتعديل ما شرعته من شرائع على مر الأزمان من جهة ثالثة . وذلك عن طريق الوحي والإلهام .

ويبرر أنصار هذا الإتجاه ظهور الديانات الخرافية والأسطورية بضعف المصدر الإلهى لهاتيك الديانات ، واندثار جوهرها بفعل البشر أنفسهم الذين ألقوا التمرد على السنن والشرائع ، لإرضاء أهوائهم وإشباع غرائزهم . الأمر الذى يجعل أولئك الباحثين يقطعون بأن كل الديانات ترد الى مصدر إلهى واحد ، على تباينها واختلاف عقائدها . ويستندون فى ذلك على فكرة التوحيد الكامنة وراء فكرة الكثرة والتعدد السائدة فى ديانات ما قبل التاريخ * والملل السماوية المحرفة .

* أطلق المؤرخون هذا الاصطلاح على العصر السابق لظهور السجلات التاريخية المنظمة فى مصر. وتعد هذه الحقبة مجهولة الأحداث وتفتقر إلى الدقة فى التقسيم

وإذا ما تفحصنا الفكر الدينى عند القدماء المصريين فى ضوء هاتين الوجهتين السابقتين، سندرك صعوبة تفسيره وتبرير ظهوره وتحليل معتقداته. فعلى الرغم من سذاجة منابته وبساطة معتقداته فى طور النشأة، واستناده على الأساطير فى مراحل تقدمه شأن الأديان البدائية إلا أننا نجد المصريين أكثر تمسكاً به فى أوج حضارتهم العلمية الأمر الذى يسقط معه الافتراض الأول أى أن المعتقد المصرى كان وليد الجهل والخرافة (٢).

وعلى الرغم من كثرة آلهة المصريين ومعبوداتهم المتباينة ، فإنه يمكننا التعرف على فكرة التوحيد والألوهية المجردة الراسخة فى جوهر معتقداتهم .

وذلك مع التسليم بأن افتراض وجود كتاب مقدس للمصريين وظهور أنبياء مرشدين لهم سوف يظل افتراضاً لا يُقطع بصحته علمياً إلا إذا توفرت له الأسانيد التاريخية .

الأمر الذى لا يؤكد صحة وجهة النظر الثانية (٣). ومن الصعوبات التى تواجه المؤرخين :- غيبة الوثائق التى تحدد زمن ظهور الديانة المصرية ، والأطوار التى مرت بها على وجه الدقة والتحديد . الأمر الذى دفع بعضهم إلى التوحيد بين تاريخ مصر وأحقابها المختلفة ، وبين تاريخ ديانة الفراعنة . وحجتهم فى ذلك صعوبة فصل كل من المظاهر الحضارية للمصريين - على مر تاريخهم القديم - عن معتقداتهم الدينية (٤).

ويبدو ذلك فى كل ثوابت ثقافتهم المستمدة من فكرهم العقدي . فكان الأب عقب ميلاد طفله يطلق عليه اسماً مرتبطاً بإله ما إعتقاداً منه بأن الطفل عطية الآلهة إلى والديه . وأن اقتران اسم ولده باسم الإله حقيق بأن يجلب إليه البركة والحظ مثل آمون حوتب وإخناتون

-
وتخضع للروايات والتخمين والترجيح المستند على بعض الآثار والحفريات. وقد ظهرت السجلات التاريخية عقب ظهور الكتابة التى يؤرخ لها فى الأسرة الأولى (٣٢٠٠ - ٢٩٨٠ ق . م) . ومن أهم عصور فترة ما قبل التاريخ العصر الأبوليتى والعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث وعصر بداية استعمال المعادن والعصر الحجري القديم الأعلى والعصر المزيوليتى .

ذلك فضلاً عن الكتابة الهيروغليفية التى ترتبط رموزها وأشكالها بالفكر الدينى والأساطير المعبرة عنه ويبدو ذلك جلياً فى الأشكال التى تصور الكائنات الحية . وكذا أسماء الشهور والمواسم ومظاهر الطقس والفصول الأربعة والأعياد والحياة اليومية . ضف إلى ذلك أن تمسك المصريين بتراثهم الدينى عبر العصور وندرة الحركات الإلحادية حال بين المؤرخين وبين تحديد فترة ظهور المعتقدات وتطورها (٥) + (٨٨) .

وقد حاول المعنيون بدراسة علم المصريات استنباط الأطوار التاريخية التى مرت بها ديانة الفراعنة معتمدين فى ذلك على عدة علوم على رأسها علم الحفريات وعلم الأنثربولوجى ومقارنة الأديان . وما زالت نتائجهم قابلة للتبديل والتعديل تبعاً للاكتشافات الأثرية والبرديات الوثائقية .

وقد انتهت هذه الدراسات إلى اعتبار الفترة السابقة على ظهور الأسرات من التاريخ المصرى الطور الأول للديانة المصرية ووصفوه بالبدائية فى التصور ، والإضطراب فى نسخ الأساطير ، والسذاجة فى اعتناق المعتقدات . وقد عبرت عن ذلك النقوش التى وجدت على الأدوات الصوانية الخشنة التى عثر عليها على الهضبة الصحراوية على جانبى النيل والمتون المنقوشة على جدران هرم سقارة حيث حضارات ديرتاسا والبدارى ونقاده . فلم تكن العقائد السائدة آنذاك سوى نزعة روحية تؤمن بخلود الروح وعودتها وتعدد الآلهة تبعاً للمدن التى كانوا يعيشون فيها ، فكان بعضهم يعبد الحيوانات مثل الغزال والثور والكبش والصقر والكلب والعقرب والسمكة والدولفين وكانت تحمل رموزاً لهم فى الصيد وفى الحروب والأعياد (٦) .

وقد تطورت هذه العبادة تبعاً لتطور الثقافة السائدة . ومن ثم كان من العسير فى هذا الطور رسم صورة لديانة متسقة ومنطقية فى كل تفاصيلها أو صلاحيتها العامة للإقليم المصرى بأسره وذلك نظراً لأنها ليست من أصل واحد ولا ترد لعقلىة واحدة بل هى نتاج لعدد من التيارات اللاهوتية والسياسية المجهولة . ذلك فضلاً عن غيبة سلطة كهنوتية واحدة تقوم باختصار كل العقائد المحلية وتوحيدها فى إطار لاهوتى أو فكرى شامل يفرض على كل المصريين بمختلف

إنتماءاتهم الإقليمية أو الطبقية .

فعلى الرغم من سيادة بعض الأفكار العقديّة في مرحلة من المراحل بفعل القوى السياسية إلا أن الديانات المحلية ومعبوداتها لم تندثر في الأقاليم بل سارت جنباً إلى جنب مع دين الدولة الرسمي إذا جاز التعبير .

ويجمع العديد من الدارسين على أن هذا الطور من الديانة المصرية ومعبوداتها لم تكن إلا مظهراً منحطاً لديانة سامية أو رمزا مادياً لإله أسمى وصفاته المتجلية في الحيوانات والجمادات والبشر . ويبدو ذلك بوضوح في النقوش والرسومات التي جمعت بين أجساد الحيوانات ورؤوس البشر والعكس في صورها .

الأمر الذي يُنبئنا بوجود الإرهاصات الأولى لفكرتي التجلي ووحدّة الوجود عند قدماء المصريين .

وتفسر بعض الدراسات المعاصرة عبادة القدماء المصريين للحيوانات المختلفة بأنها وليدة اعتقاد التقمص . وخلصته أن الأرواح والأشباح تتقمص فترة من الزمن أجساد بعض الحيوانات تبعاً لطبيعتها الخيرة أو الشريرة وعبادة المصريين لها لم تكن سوى تعبيراً عن إمتنانها للسلوك الخير منها كالبقرة والثور والتيس والكبش ، وخوفها من البعض الآخر كالأفعى والتمساح والأسد وجاموس البحر (٧) .

ويفسرها بعض الدارسين بأنها كانت شعارات أو تمانم للمقاطعات في حقبة ما قبل التاريخ . وقد عبدها العوام بمرور الوقت مغالاة في إنتماءاتهم وولاءاتهم .

ولا تبدو مظاهر سذاجة الفكر العقدي عند المصريين في فكرة الألوهية فحسب . بل امتدت هذه النظرة إلى محاولة تفسيرهم للكون . فتصوروا السماء على أنها بقرة بطنها مزدانة بالنجوم ، أو امرأة منحنية الجسد نحو الأرض ، أو محيط مائي عظيم مرفوع بأربعة عمد من أركانها الأربعة . وتصوروا الأرض بأنها رجل منبسط على بطنه ينمو على ظهره النبات ويتحرك الحيوان ويعيش الإنسان من فوقه .

وتخيلوا أن النيل ممتد من السماء إلى الأرض مخترقاً في سيره عدة مغارات ومضايق ليمد النيل الأرضي بالمياه اللازمة لحياة المصريين (٨) .

ولعل ما يميز الديانة المصرية فى طورها البدائى عن غيرها من الديانات هو فكرة الواحديّة المباطنة لمظهر التعدد الواضحة فى تفسيرهم للوجود ونشأته المتمثلة فى إله الشمس الأول الذى خرج من بيضة أو زهرة كانت طافية على سطح الماء الأزلى وقد انبثقت عن هذا الإله كل الكائنات * .

أما عن القرابين فى هذا الطور فكان أقصاها دماء الأسرى أو التضحية بالولد أو الابن بغية إسترضاء الإله وكان أدناها اللبن والعسل ولحم الطيور والحيوانات غير المقدسة .

وكان للسحر مكاناً مرموقاً فى هذا الطور باعتباره لغة الكهنة التى يخاطبون بتعاويذها وطلاسمها الإله ليحاورهم ويفتيهم فى القضايا المطروحة وينبئهم بأحداث المستقبل . وهى أيضاً السبيل لاستدعاء الأشباح والأرواح الشريرة والخيرة من عوالمها بغية العون والمساعدة فى قضاء الأعمال (٩) .

أما عن مجامع الآلهة والنسيج الأسطوري فلا نكاد نجد له صور منظمة إلا فى أخريات هذا الطور حيث الإرهاصات الأولى للوحدة السياسية المتمثلة فى وحدة مقاطعة الغرب وعاصمتها " بحدت " بدمنهو مع مقاطعة الشرق وعاصمتها " بوصير " بسمنود اللتين كونتا مملكة الوجه البحرى وسادت فيها عبادة إلهة الرعب " نيت " وإله السماء القديم حورس .

وكذا ظهور مملكة أخرى فى الوجه القبلى عاصمتها "نقادة" بالقرب من الأقصر وكان معبودها إله الشر "ست" تلك المحاولات التى انتهت بوحدة المملكتين لأول مرة عقب هزيمة مملكة الجنوب واتخاذ عين شمس عاصمة للدولة الموحدة وأصبح قرص الشمس ذا الجناحين إشارة للمملكة المتحدة الجديدة وإلهها المعبود غير أن هذه الوحدة لم تدم طويلاً وسرعان ما دب فيها الضعف بفعل الأشمونيين الذين رفضوا عبادة الشمس (١٠) .

* تؤكد معظم الأساطير المصرية القديمة على فكرة المادة الأزلية التى تماثل الهبولى فى الفكر اليونانى وغالباً ما شبهتها بعض الأساطير بالماء ، وأحياناً تتمثل فى عناصر أربعة هى الأبدية والظلام والقوى والماء .

وقد ازدهر في هذه الحقبة فن كتابة الأساطير ولا سيما تلك المحاولات الأولى لجمع المعبودات المتعددة في نسيج واحد يرأسه "رع" إله الدولة الرسمي .

أما الطور الثاني فيعرفه المؤرخون بأنه طور الوحدة والائتلاف وتتمثل الوحدة في ذلك الانتصار الذي حققه الملك مينا أو عحا أو نعرمر على مملكة الشمال وانتهى بوحدة مصر السياسية نحو الألف الرابعة قبل الميلاد.

أما الائتلاف فيرد إلى النسيج الأسطوري الذي اجتهد في تهذيبه كهنة آلهة المقاطعات ليتوائم مع الآلهة المحلية من جهة، والآلهة الكبرى التي تسندها القوى السياسية من جهة ثانية ، وفكرة تأليه الحاكم (الفرعون) التي نبتت منذ بداية عصر الأسرات من جهة ثالثة (١١) . ومن أمثلة ذلك إستحالة بعض الآلهة المحلية إلى آلهة كبرى وتحديد وظيفة كل إله وصلة قرابته بالآلهة الأخرى . ومدى علاقته بالفرعون فظهرت سياقات أسطورية عدة توضح أنساب الآلهة أشهرها التاسوع والثالث والثمانى الذى انفرد به الأشمونيين فأصبح "خنسو" رب القمر الصغير ابناً للإلهة "موت" إلهة الأمومة وللإله "أمون" ملك الآلهة .

وكذا نحت أسماء للآلهة لتلائم الفكر الديني الجديد فـ (أتوم – رع) هو مزيج من الإله " أتوم " إله الكمال " ورع " إله الشمس الإله الخالق الذي أضحى على رأس تاسوع هليوبوليس . وتحديد وظائف الكهنة وطبيعة القرايين وأنواعها وقدرها ونصيب كل إله منها .

وكذا وضع القواعد الأساسية للطقوس والعبادات التى تؤدى للمعبود فى المواسم والأعياد .

وقد برع المصريون كذلك فى هذا الطور فى توظيف الأساطير لإرساء النظم والعادات والتقاليد فى الثقافة الفرعونية حيث القصص الخيالية التى تفسر نشأة الكون وصراع الأضداد لترسيخ القيم والمبادئ الإجتماعية والأخلاقية والسياسية وذلك فى صورة عراك وشجار بين الآلهة والجن والشياطين والبشر ينتهى بتحديد الثوابت

التي تتواءم مع الثقافة السائدة ولا يعرف على وجه الدقة زمن ظهور هذه الأساطير (١٢) .

وقد ازدهر في هذا الطور فن تشييد المعابد الكبرى للآلهة التي كانت زيارتها وخدمتها حكراً على الحاكم وكهنة المعبود دون العامة الذين كانوا لا يذهبون إليها إلا في الاحتفالات العامة والأعياد الرسمية وكانوا يكتفون في عبادتهم بالأناشيد الدينية والابتهالات التي تُمجّد الإله أثناء قضاء أعمالهم في الزراعة أو البناء . والتودد إلى الإله "بس" إله المرح والسُرور الذي يعد من أشهر الآلهة المنزلية والتبرك بالتمائم التي كانوا يرتدونها ضمن ملابسهم . ذلك فضلاً عن التماثيل الخشبية والدمى والتعاويذ السحرية التي ازدحمت بها بيوت العامة .

أما الخاصة وصفوة المثقفين فكانت صلواتهم تؤدي لذلك الإله المجرد الذي يجهلون هويته وطبيعته مع إيمانهم القوي بوجوده (١٣) . وقد نمت عقيدة عبادة الفرعون تبعاً للقوة السياسية التي تبوءها ملوك الأسر الأول وقد احتشدت الأساطير بطبيعة الحال لتأييد هذه المعتقدات تلك التي جعلت من الفرعون منذ الأسرة الرابعة سليل التاسوع الإلهي وابناً شرعياً "لرع" إله الشمس وأخاً وأباً وخالاً أو عما لباقي الآلهة .

وجعلت كذلك من وزير الفرعون نائباً عن الإله "تحت" رب فن الكتابة ورسول الآلهة ومن مساعديه نواباً عن الإلهة "سشات" سيدة دور الكتب ، والإلهة "ماعت" ربة الحقيقة .

ومن الأطباء أتباعاً للإلهة "سخمت" إلهة القوة الشافية الساحرة وكهنة للوزير المؤله أي "أم حتب" الذي صار بمقتضى ألوهيته ابناً للإلهة سخمت .

ولم تقف أساطير هذا الطور عند ربط طبقة الصفوة بالآلهة فحسب . بل اجتهدت في ربط العوام بمختلف حرفهم أيضاً بالآلهة المعبودة طمعاً في ضمان الاستقرار السياسي لمصر، وترسيخ العادات والتقاليد في الثقافة المصرية فجعلت الإله "بتاح" رب كل الصناعات والفنون أباً راعياً لكل الحرفيين (١٤) + (٨٩) .

وعلى الرغم من هذه المظاهر التي كادت أن ترفع المصريين بمختلف طبقاتهم إلى مصاف الآلهة، لم يخلو الفكر العقدي في هذا

الطور من الإيمان بوجود إله أسمى مجرد يعلو كل هذه الآلهة ترد إليه الأقدار ، وبمشيئته تحل البركة في الزرع والنجاح في الصيد والسعادة في الحياة ، وبعلمه يفرق الإنسان بين الطيب والخبيث . وهو ذلك الإله الخفى المتجلى فى صورة "رع" تارة ، أو الفرعون تارة ثانية ، أو "الكا" القوة الروحية التى تمنح الحياة للبشر تارة ثالثة .

أما عن المعبود السائد فى هذا الطور فكان "رع" الذى تربع على عرش مملكة الأسرة الأولى وقد ظهرت بجواره آلهة عدة تستمد نفوذها وقوتها وقداستها من اسمه الذى ارتبط بها. ومنها " منتورع " الذى عبد فى الدولة الحديثة كإله للحرب و" خنوم رع " خالق البشر و" آمون رع " ملك الآلهة وهو أحد آلهة الأشمونيين القديمة الثمانية . وقد حظي الأخير بمكانة رفيعة منذ الدولة الوسطى (٢١٣٤ - ١٧٧٨ ق . م) وقد استطاع كهنته عن طريق الأساطير التى نسجوها بإتقان إقناع العامة والخاصة بأن "أمون" و"رع" شخصية واحدة الأمر الذى كان وراء تربعه على عرش سائر الآلهة منذ مطلع الدولة الحديثة (١٥٧٠ - ١٠٨٠ ق . م) وشيدت له المعابد فى الكرنك والأقصر والدير البحري .

ولم يأفل نجمه أو يعكر صفو كهنته إلا حادثتين هما غزو الهكسوس لمصر عام ١٧٠٠ ق.م ، الذين أهملوا معابده واتخذوا من " الكا " و"وبعل" و"ست" معبودات لهم دونه .

ودعوة امنحوتب الرابع لعبادة آتون دون سائر الآلهة المصرية القديمة. فعلى الرغم من تسامح المصريين مع سائر المعبودات المحلية والأجنبية، إلا أن امنحوتب الرابع قد نحى منحاً متعصباً فى نشر ديانته الوحداية الجديدة منذ توليه حكم مصر حوالى عام ١٣٧٥ ق . م . ومن مظاهر ذلك فرضه عبادة آتون على أنحاء المملكة بعد أن أعطى له رمزا جديداً يعبر عن هيمنة ذلك الإله وسيطرته لا على مصر وحدها بل على الكون بأسره ، فقام ببناء ثلاث مدن لعبادته فى مصر والنوبة وسوريا، وإعلان عقيدة التوحيد، وتحريم كل الطقوس والقرايين التى كانت تؤدى لكهنة كل الآلهة القديمة بعامه وكهنة آمون

بخاصة ، ذلك فضلا عن إمعانه في محاربة ديانة آمون إذ اجتهد في محو اسم آمون من على جدران المعابد بعد تغييره لأسمه من (أمنحوتب إلى إخناتون) (١٥) .

وعلى الرغم من ذلك كله لم يستطع إخناتون القضاء على ديانة آمون التي أخلص لعبادتها العوام كل الإخلاص، انتصاراً منهم لمعتقداتهم التليدة التي راح كهنة آمون يحثونهم على التمسك بها وتحذيرهم من عاقبة الكفر بها. وسرعان ما كفر بآتون عقب وفاة إخناتون ولا سيما بعد ردة "توت عنخ آتون" الذي تولى حكم مصر من بعده وغير اسمه إلى "توت عنخ آمون" معلناً رده إلى عبادة آمون .

ثم الاضطهاد الذي تعرض له المؤمنون بآتون على يد الملك "حور محب"، الذي خلف توت عنخ آمون وقام بتدمير أسماء وصور إخناتون ومحوها تماماً من شتى أنحاء المملكة المصرية .

الأمر الذي أعاد لآمون وكهنته المكانة الرفيعة السابقة على هذين الحدثين ، ومكنهم من الهيمنة التامة على مقاليد الأمور السياسية والاجتماعية والدينية . ويبدو ذلك بوضوح في تلك الصفات والقدرات التي نسبها الكهنة " لآمون رع " بعد انتصاره على الهراطقة على حد وصفهم - لأتباع إخناتون - . إذ ذهبوا إلى أنه الإله الخالق القوي ، واهب الحياة لكل الموجودات التي تسبح بحمده ، ومانح القدرة لسائر الآلهة المعبودة التي تتضاعل أمام جلاله وبهائه وعظمته ، وهو القدرة الخفية المحاطة بالأسرار ، وهو الإله الأول الذي لم يسبقه للوجود شيء ، والمتجلي في صورة "رع" والمتجسد في صورة "بتاح" (١٦) + (٩٢) .

ويبدو تأثير كهنة آمون بخصومهم عبدة "آتون" واضحاً في صفة الأزلية والسرمدية والقوى المطلقة التي وسموا بها إلههم ، ذلك فضلاً عن صفتي التخفي والسرمدية اللتين وضعوهما لتوطيد مكانتهم وترسيخ سلطتهم في البلاد ، بوصفهم القادرين دون غيرهم على إجلاء الغامض من الأمور الإلهية ، وفهم أسرار عالمها .

وقد قوى نفوذ كهنة آمون في الفترة من حكم الملك "حور محب" حتى وصلت ذروتها في عهد الملك رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق . م) إذ اتسعت ممتلكات "آمون" التي كانوا يشرفون عليها لحد جعلها أشبه

بمملكة صغيرة داخل الدولة ، وأضحى لكبير كهنته من السلطان ما يدانى سلطة الفرعون ، وباتت وظيفتي مغنية آمون ومحظية آمون من الوظائف الرفيعة القدر التي لا يناط بها إلا بنات الأسرة الحاكمة أو بنات الكاهن الأكبر ، وأمسى السحر من الفنون المقدسة (١٧).

ونخلص من ذلك إلى أن ديانة آمون قد اعتلت عرش الفكر العقدي المصري في هذه الحقبة غير أن استبدادها وتعصبها كان أقل حدة وعنفاً من ديانة إخناتون . ويبدو تسامح كهنة آمون بارزاً في احترامهم للعجل أبيس (أوزير - أبيس - آتوم - حور) معبود منف القديم ، الذي ما برح العوام يقصدونه كإله قمرى جنازى بجانب الفرعون ابن الإله وآمون رع .

أما الطور الثالث والأخير فهو طور الضعف والذبول والاندثار ، وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأعراض المرض والشيخوخة التي دبت في أوصال الحضارة المصرية التي بدأت بانكسار الجيش المصري أمام غزاته من الفرس والإغريق بداية من ملوك الأسرة السابعة والعشرين (٥٢٥ - ٤٠٤ ق.م) ، ومروراً بفرض المسيحية ديناً على المصريين في عصر التعصب المسيحي وانتهاءً بالفتح الإسلامي (١٨). وسنوجز فيما يلي أهم الأسباب التي أدت إلى القضاء على الديانة المصرية القديمة .

* اعتناق المصريين لبعض الآلهة الأجنبية الوافدة من النوبة وليبيا وسوريا وفلسطين ، وكذا هجرة العديد من قبائل الأمصار المفتوحة إلى مصر ، وإقامتها العديد من التماثيل والمعابد لآلهتها المحلية ، ونسخ العديد من الأساطير التي تربط بين فرعون المصريين الحاكم وبين آلهتهم . وكذا ميل بعض فراعنة مصر إلى تقديس بعض الآلهة السورية وأقرب الأمثلة على ذلك الإلهة " عنات " ربة القوة والحرب عند الآسيويين التي صورتها الأساطير بأنها ابنة الإله "رع " وزوجة الإله " ست " تلك التي عظمها الملك رمسيس الثاني وأطلق اسمها على ابنته المفضلة وأقوى أفراسه .

* ضعف نفوذ الآلهة المصرية خارج مصر بسبب تسامح المصريين دينياً مع الأمم المغلوبة والممالك المفتوحة لتخليها عن سياسة التعصب الملى.

* تأليه الإغريق لبعض الملوك الغزاة وعلى رأسهم الإسكندر الأكبر الذى غزا مصر عام ٣٣٢ ق.م، وقام بزيارة معبد آمون فى سيوة فى نفس العام باعتباره الكاهن الأعظم وابن الإله ، الأمر الذى أدى إلى تقهقر الآلهة المصرية إلى المرتبة الثانية فى سلم المعبودات، فى حين تبوأَت الآلهة المحلية للملوك الغزاة موضع الصدارة واعتلت قمة سلم الآلهة .

* غيبة السلطة الكهنوتية وذلك بانشغال الكهنة بأمور السياسة منذ عصر البطالمة ، وانقسامهم إلى شيع وفرق تبعاً لمصالحهم الشخصية، وإهمالهم خدمة المعابد وانصرافهم عن النصيح والإرشاد ولا سيما بعد تعيين البطالمة كهنة من المقدونيين والإغريق لعبادة الإسكندر وخلفائه (١٩).

ضف إلى ذلك حالة الضنك التى أمست عليها كل المعابد المصرية وذلك تبعاً لندرة القرابين والهبات وكف الكهنة المصريين عن جباية الضرائب، ونهب الغزاة خزائن هذه المعابد . ولا سيما فى العصر الرومانى عقب هزيمة الكهنة أمام أفنديوس كاسيوس حاكم ولاية سوريا عام ١٧٥م، الذى قضى عليه ثورة الكهنة المصريين التى كان يقودها الكاهن المصرى أسيدوروس عام ١٧٢م المعروفة بحرب الرعاة .

* انتشار المعابد الإغريقية لآلهة اليونان ومعابد لـ "ياهو" إله اليهود وأخرى للنار المقدسة الفارسية، وانتحال الأساطير التى تربط بين المعبودات الوافدة والآلهة المصرية الأصلية، الأمر الذى شوه الفكر العقدي المصرى .

* انتحال المسيحيين معظم المعتقدات الأخلاقية المصرية وجل الطقوس الشعائرية وتزييف الفكر العقدي المصرى ووسمه بالقبطي * ومن أمثلة ذلك صورة العذراء مريم التى تحتضن

* ترد لفظة قبطي وأقباط إلى الأصل اليوناني Aiguptiakos وكانت تعنى المصريين، أما اللغة القبطية فهي التطور الأخير للغة المصرية القديمة وقد سادت فى القرنين الثالث والرابع الميلادى وأصبحت لغة الفكر والدين مع الأمر الذى مكنها من القضاء على الأدب الوثني القديم، وقد ترجم الإنجيل إليها وكتب على أوراق البردي فى هذه

وليدها فهي منتحلة من صورة الإلهة " إيزيس " مع ابنها "حورس"، وكذا صورة القديس جرجس وهو يقتل التنين برمحه ، التي تشبه صورة الإله " حورس " وهو يقتل عدوه الإله الشرير " ست " في هيئة التمساح ، وانتحال عيد مولد الإله " رع " الموافق يوم ٢٥ ديسمبر ليكون يوم مولد المسيح واحتفالات أعياد الكريسماس . والتشابه الواضح بين اسم العيد الشمسي عند المصريين "مسورع" وبين اسم "يسوع" ، وكذا تأثر الأنجيل بالفكر المصري ويرجع ذلك إلى أن أقدم نسخة للعهد الجديد وجدت في مصر مخطوطة على أوراق البردي وهي الآن محفوظة في مانشستر بإنجلترا ، الأمر الذي أدى إلى سيادة الصورة المصرية للديانة المسيحية على دونها من الصور الوثنية التليدة ولا سيما منذ القرن الثالث الميلادي وانتهاء عصر الاضطهاد المسيحي وبداية عصر التعصب الذي شن فيه المسيحيون حرباً شعواء في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية على دونهم من أصحاب الديانات حتى عهد الإمبراطور تيودوسيوس (٣٣٩ - ٣٩٥ م) الذي جعل المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية وحرم العقائد الوثنية برمتها ، الأمر الذي حصر الديانة المصرية في جزيرة فيلة حيث معبد إيزيس الذي التف حوله نفر قليل من المصريين يقدمون لها القرابين سرا وذلك نحو عام ٤٥٢م . وفي القرن السادس الميلادي أغلق هذا المعبد وأسر كهنته وأودعوا في السجن بأمر الإمبراطور جوستنيان (٢٠) + (٩٢) .

* إقبال المصريين على الدخول في الإسلام وعزوفهم طوعية عن عبادة آلهتهم التليدة التي كانوا يعبدونها سرا في منازلهم ويحملون

الحقبة الأمر الذي يفسر انتحال المسيحيون بعض الأناشيد والطقوس والمعتقدات المصرية القديمة خلال هذه الفترة بدءاً من التعميد، وإنهاءً بالصلوات الجماعية التي تؤدي حتى الآن بهذه اللغة. ويعتبر بعض الباحثين اللغة القبطية إحدى لهجات اللغة المصرية القديمة في طور ضعفها وأقولها وهي تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما : لهجات مصر العليا ولهجات مصر السفلى وينبثق عن هذين القسمين العديد من اللكنات المحلية. أما عن كتابتها فكانت تكتب في بداية الأمر بحروف ديموطيقية ثم استحالَت إلى حروف يونانية وقد أضيف عليها العديد من الكلمات والتعبيرات الإغريقية. وقد أخذت اللغة العربية تتأهض اللغة القبطية .

صورها تماث تحت ملابسهم منذ أن فرضت المسيحية عليهم كدين رسمي ويرجع ذلك القبول إلى توافق الديانتين المصرية والإسلام في عديد من العقائد وإن اختلفت في تفسيرها منها :- أحادية الإله ويبدو ذلك بوضوح في أناشيد الصلاة - التي سوف نقف عليها بشيء من التفصيل في الصفحات التالية - حيث آيات التنزيه والتعظيم والإجلال للإله واهب النعم ومُنزل النقم ، وكذا الإيمان بالبعث والثواب والعقاب والآخرة .

وعلى الرغم من التسليم بأقول نجم الديانة الشمسية المصرية ودرجها ضمن الديانات التاريخية العتيقة إلا أننا لا يمكننا القطع باندثار كل معتقداتها بل يمكننا أن نتبين أثرها في معتقدات وطقوس الديانات السماوية الثلاث (اليهودية - المسيحية - الإسلام) ولا سيما في أداء الشعائر والأعياد والاحتفالات لهاتيك الديانات (٢١) . وسوف نجتهد في توضيح ذلك في الفصول التالية .

* * *

الألوهية والكتب المقدسة

لم يفلح المؤرخون المعنيون بدراسة الديانة المصرية بخاصة ولا المهتمون بمقارنة الأديان بعامة في تفسير طبيعة العلاقة بين فكرتي الوحدة والكثرة الكامنة في عقيدة المصريين في أحقابها المختلفة ويعلل بعضهم هذا الإخفاق بغيبية الوثائق التي تكشف عن نشأة هذه الديانة ومراحل تطورها في الأزمان السحيقة .

ويرجع فريق آخر هذا العجز لطبيعة الديانة ذاتها حيث وعائها الأسطوري الذي يجمع بين الفكرتين في نسيج يصعب فيه التمييز بين السابق واللاحق وعلى الرغم من ذلك نجد من يفصل في هذه القضية ويقطع بصحة رأيه مستندا على النصوص الدينية (أسفار التوراة - إصحاحات الأنجيل - آيات القرآن) ويُجزم بأن أصل عقيدة الألوهية

عند المصريين هي التوحيد ولا تعدو الكثرة فيها إلا مظهراً من مظاهر فسادها أو إحدى سمات تحريفها بفعل الكهنة ورجالات السياسة (٢٢) .
بينما ينزع فريق آخر إلى العكس من ذلك مؤكداً مع أوجست كونت أن مظهر الوحدة في كل الديانات البدائية لا يعدو أن يكون إحدى أطوار نضوجها في حين أن الكثرة والتعدد تعد بمثابة الأرض الخصبة التي نبتت فيها ويرتكنون في ذلك على التشابه الكبير بين الآلهة المصرية والهندوسية واليونانية ومبينين أن خاصية التعدد في الديانات القديمة تعبر عن الواقع الانثربولوجي والاجتماعي والسياسي للثقافات التي ظهرت فيها حيث البيئة القبلية والجماعات المتفرقة التي لم تعرف النظام والائتلاف إلا في عصور تحضرها .

وعلى ذلك فليس أمامنا إلا أن نحتكم إلى النصوص المصرية المقدسة القليلة التي أوردها المؤرخون في كتاباتهم المتأخرة متخذين من التحليل تارة ، والمقارنة تارة أخرى . منهجاً لتوضيح الفكرة وإجلاء غوامضها وذلك كله في ضوء الدراسات * المنصبة على شرح الجانب العقدي من الحضارة المصرية التي توضح صفات الآلهة وخصائصها وعلة عبادتها وزمن ظهورها والأطوار التي طرأت عليها والعلاقة التي تربط بينها وبين العالم الأرضي وما فيه من موجودات والعالم السماوي الشاغل بالكائنات الروحية والآلهة (٢٣) .

الكثرة والتجسيد في المعبودات المصرية

تؤكد بعض الدراسات أن تعدد أشكال الآلهة المصرية ولا سيما تلك التي تجمع بين أشكال الحيوان والبشر - مثل إلهة الحب حتحور التي كان يبرز من رأسها أذنًا بقرة وكان مركز عبادتها في أطفح

* تعد كتابات دي روجيه وبروجش وبيرييه وماسبيرو من أوائل الدراسات الحديثة للفكر العقدي المصري ويرد أقدمها إلى أخريات القرن التاسع عشر نحو عام ١٨٧٩م وهي لا تخلو من التعارض والتضارب حيال فكرة الألوهية عند المصريين إذ ذهب بيرييه إلى أن المصريين موحدون وأن إلههم مجرد ومنزه عن التشبيه . بينما أكد ماسبيرو أن المصريين شأن غيرهم من الوثنيين وأن معبوداتهم مادية مرتبطة بثقافتهم العملية وحياتهم اليومية .

(بلدة على الشاطئ الشرقي للنيل واسمها الحالي تبخ) - يرجع ذلك إلى سببين :- أولهما الطبيعة القبلية للمجتمع المصري في مرحلة ما قبل التاريخ حيث القرى المتناثرة والمقاطعات التي تفتقر إلى وحدة سياسية تجمعها. الأمر الذي كان وراء اتخاذ كل منها معبوداً يعبر عنها ويكون شعاراً لها في الوقت نفسه يميزها عن غيرها .

وثانيهما البيئة الجغرافية التي لعبت دوراً كبيراً ولا سيما في المقاطعات التي اتخذت بعض الحيوانات كالشعبان والصقر والكبش والتميس والقرد والكلب والقطعة والضفدعة والعجل والتمساح معبوداً لها تبعاً للتفاعل الإنساني الذي يحدث بينهم وبين عناصر البيئة التي يعيش فيها . قبولاً ونفوراً ، تقديساً واحتقاراً .

بينما يذهب رأى آخر إلى أن علة تجسيد المعبودات المصرية في حقبة ما قبل التاريخ يرجع إلى طبيعة الفكر المصري ولغته التي كان يعبر عنها .

فلم يكن في مقدور العقلية المصرية في الأحقاب الغابرة التعبير عن المجردات إلا عن طريق التشبيه والتجسيم . وعلى ذلك فالمصريون لم يعبدوا هذه المجسّدات (البقرة والنيل والحنطة) في ذاتها بل للقيم الروحية الكامنة وراءها . ويدللون على ذلك بالأطوار التي مرت بها اللغة المصرية ومحاولتها في الألف الثانية قبل الميلاد صياغة أسماء مجردة وذلك بكتابة لفظ " شئ " قبل الأسماء والصفات المحسوسة لتمييزها عن غيرها من الأسماء المجردة . فعندما كانوا يريدون أن يصفوا آمون بالقوة يصورونه على شكل أسد ذو نظرة متوحشة وثور في حالة انتصاب وتمساح يسرق ويذهب بما يقتنصه (٢٤) .

وقريب من هذا الرأي ترد بعض الدراسات علة تقديس المصريين لبعض الحيوانات والنباتات والعناصر الكونية في مرحلة ما قبل التاريخ والطور البدائي من ديانتها إلى ثلاثة أسباب هي :- إما للصفات السامية والقيم الروحية الكامنة فيها ، أو للخوف منها وعجزهم عن السيطرة عليها والتحكم فيها أو باعتبارها رمزا لإله أسمى أبي إلا أن يتجلى في هذه المخلوقات رغبة منه في الاحتفاظ بحقيقة ماهيته وجوهر طبيعته الذي لا تقوى الحواس والعقول على إدراكه .

وعلى ذلك فلم يكن المصريون وثنيون أو ماديون في عبادتهم بل

كانوا مستغرقين فى الرمزية فى إدراكهم لصفات المعبود ذلك فضلا عن وعيهم التام بحقيقة تلك المعبودات المحسوسة التى لا تعدو أن تكون مخلوقات ضئيلة وعاجزة أمام قدرة وقوة الإله الأسمى . أما عبادة الملوك فإنهم يردونها إلى الكهنة والأعياب الساسة .
ويبدو ذلك بوضوح فى بيت الحياة * الذى يعد بمثابة المدرسة الكهنوتية المفسرة للعقيدة والشارحة لها تبعا لإحاطتها بأصول كل المعبودات (٢٥) .

وينزع بعضهم إلى أن مظاهر التجسيد المتمثلة فى عبادة الأصنام والحيوانات ترجع إلى تأثر المصريين ببعض الديانات الآسيوية المجاورة وأن زيوعها يرجع إلى الكهنة الذين وجدوا فى تقديس العوام لها سبيلا لابتزازهم والسيطرة عليهم وتسييسهم وانتحلوا من أجل ذلك الأساطير والخرافات .

ويرفض بعضهم هذا الرأى بحجة أن كل أسماء الآلهة المعبودة ترد إلى جذور لغوية مصرية تميزها عن تلك الآلهة الآسيوية التى قدسها المصريون فى فترات لاحقة على تأسيس الديانة .
ومنهم من يذهب إلى أبعد من ذلك فيؤكد أن آلهة العرب الآسيوية وآلهة الإغريق الأسطورية ترد إلى أصول مصرية وليس العكس (٢٦) .
وسوف نتناول فى السطور التالية أهم أشكال هذه المعبودات من حيث أصولها ووظائفها وصفاتها وأثرها فى السياق العام للديانة المصرية :-

* هي مؤسسة لاهوتية عريقة فى القدم وهى المصدر المعرفى الأوحد لطبيعة الآلهة المعبودة وهى المنوطة بإجراء الحوار بين البشر والآلهة . وقد أكد المؤرخون وجودها فى الطور البدائى للديانة المصرية مع جهلهم بزمن تأسيسها وطبيعة الأفراد الذين كانوا يعملون بها ولم تظهر هذه المؤسسة كسلطة كهنوتية ذات أثر فى الفكر اللاهوتى المصرى إلا فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد ويرد إليها جل الأساطير التى تروى حول الآلهة وأنسابها وصلتها ببعضها من جهة وبالفرعون من جهة أخرى وفى العصور المتأخرة كان كل معبد فى مصر يملك بيت الحياة الخاص به والمتصل ببيت حياة معبد العاصمة أو المعابد الكبرى والمعابد المجاورة أو تلك التى كانت ترتبط به بروابط متصلة وذلك لتوحيد الطقوس وقدر القرابين وأنواعها وتحديد عدد الصلوات ومراسيمها وزمن الأعياد ذلك فضلا عن تحديد الطرز المعمارية للمعابد وإرشاد الفنانين للمواد التى يجب استخدامها فى صناعة التماثيل المختلفة للمعبودات وكذا نسخ النصوص المقدسة وتأهيل الكهنة ومساعدتهم للعمل فى المعابد .

أشهر الحيوانات والنباتات والجمادات المقدسة

اللبؤة ويطلق عليها " ماتيت " فى الإقليم الثانى عشر من مصر العليا ويطلق عليها " محيت " فى الولاية الثامنة وهى أيضاً " باخت " فى الإقليم الثامن وكانت تصور على هيئة امرأة برأس لبؤة يعلوه قرص الشمس .
التمساح كان يطلق عليه "سبك" وحرفه اليونانيون إلى "سوخوس" وعُبد على هيئة رجل برأس تمساح .

الحمار وهو الرمز الحيوانى للمعبود ست الشرير وقد صور على هيئة إنسان برأس حيوان غريب يشبه رأس الكلب بأذن مفلطحة قائمة وذيل مستقيم ممتد إلى أعلى وهو من أقدم آلهة مصر وعضو التاسوع المقدس .
الكلب أطلق عليه "أنوبيس" صورته المصريون على هيئة كلب راکض على قاعدة تمثل واجهة مقبرة أو إنسان برأس كلب ويعد حامياً وحارساً للجبانة وأخذ كذلك صفة المحنط لأنه قام بتحنيط الإله أوزوريس حاكم عالم الموتى وتبعاً لإحدى الأساطير فإن أبوه هو أوزوريس وأمه هى نفثيس ربة المنزل التى اشتركت مع إيزيس فى جمع أشلاء أوزوريس . وقد تطور هذا المعبود فى الديانة المصرية فأصبح فى نهاية الدولة القديمة " خنتى أمنتىو " المقدم على الغربيين أو إمام الموتى أو رب جبانة أبيدوس القديم ثم أدمج مع أوزوريس ثم أصبح بعد ذلك وبواوت أى فاتح الطريق ويصور على هيئة ذئب واقف على أقدامه وقد عبد فى أسيوط .

القطّة أطلق عليها " باستت " عرفت فى الأسرة الأولى بالإلهة الحامية من لدغات الثعابين وقد اندمجت مع الإلهة " سخمت " إلهة القوة والحرب وقد تطورت عبادتها وأصبحت " مافدت " أى سيدة قلعة الحياة وصورت على هيئة فهد يحمى الملك .

أنثى النسر أطلق عليها نخبت وقد صورت على شكل أنثى النسر تحمل فوق رأسها التاج الأبيض وكان محل عبادتها فى مصر العليا وفى عصر ما قبل الأسرات الإلهة الرئيسية للصعيد وهى رمز أيضاً للإلهة " موت " زوجة الإله " آمون " وأم الإله " خنسو " رب القمر وصورت على هيئة امرأة برأس أنثى النسر وعلى رأسها التاج المزدوج (٢٧)+(٨٨) .

الصفير وأطلق عليه " حرو " أى الساحق ويرمز للإله " حورس " وقد اختلف على مكان نشأته وسادت عبادته فى بدايات العصور التاريخية ، وصور فى قارب يعبر الأفق لذا اعتبروه من الآلهة السماوية . وعبد هذا الساحق بعد ذلك فى مدينة إدفو تحت اسم " خنت ختاي " وتعددت بعد ذلك أسماؤه تبعاً لمكان عبادته .

الكوبرا أطلق عليها " وادجت " ويعنى الخضار وكان مركز عبادتها فى مدينة بوتو بمصر السفلى ثم أضحت رمزاً مزدوجاً مع الإلهة نخبت لوحدة القطرين الموحدين .

العجل أطلق عليه " أبيس " وهو رب خصوبة الأرض وصور واضعاً قرص الشمس بين قرنيه وأحياناً يصور بجسم إنسان ورأس عجل . ويرمز الى القوة الجسدية والتفوق فى النسل وعُبد فى منف منذ عصر الأسرات المبكر ثم اندمج مع الإله " بتاح " رب كل الصناعات والفنون ودمجته بعض الأساطير مع الإله " حابى " إله النيل .

البقرة وهى الرمز المقدس للإلهة " حتحور " ويعنى " منزل حورس " وقد صورت على رأس إنسان وأذنى وقرنى بقرة وعُبدت فى دندرة .

الكبش يمثل عدة صور للآلهة منها "خنوم " وقد لقب بـ "خالق البشر" و " أبو الآلهة منذ البداية " وكون مع زوجته " سانت " (سيدة مصر والمسئولة عن المياه الباردة لمصادر الفيضان) و"عنقت" (إحدى إلهات منطقة الشلال) ثالثاً لمنطقة جزيرة الفنتين فى مصر العليا . ومن صورهِ أيضاً كبش " عنبت " وكبش مدينة منديس وقد امتزجا ورمزا إلى كبش آخر هو " حارشاف " ويعنى حارس البحيرة وصور جالساً فيما عدا الكبش " خرتى " الذى صور محنطاً راقداً وقد رمز إلى الإله آمون منذ الدولة الوسطى وما بعدها (٢٨).

شجرة الجميز تمثل مقبرة لإلهة طيبة تنفع الناس ببركتها وتوجد على مقربة من مدينة منف وقد وحدت مع الإلهة " حتحور " التى أطلق عليها " سيدة الجميز " وذلك منذ الدولة القديمة وتعد غذاء لأرواح الموتى المجسدة فى صورة طيور .

عمود يون والذى اشتق منه الاسم المصرى إيونو والذى عرف باسم " أون " فى التوراة .

عمود جد عبارة عن عمود حجرى على هيئة حزمة مضمومة

من سيقان نبات غير معروف وكان مرتبط على نحو ما بالإله أوزوريس وكان له كهنة وتقدم له القرابين .

* عمود خشبي له تاج على شكل زهرة البردى تعلوه ريشتان وهو الرمز المادي المقدس للمعبود " أوخ " إله مدينة القوصية في المقاطعة الرابعة عشرة بالصعيد وكان مرتبطاً بالإلهة حتحور .

* عمود على قمته نجم وهو رمز للإلهة سشات ربة الكتابة .

الحجر بنين وهو على شكل مسلة وقُدس باعتباره رمزا ومستقرا للشمس .

الصولجان والعصى وكان الصولجان يطلق عليه " سخم " ويعنى القوة وهو يرمز للملك الذى يستمد سلطته من الآلهة وقد ارتبط بعبادة أوزوريس وصور فى المعابد على شكل غطاء ذهبى برأس بشرى تعلوه ريشتان .

اللحية وكانت ترمز إلى قوة مقدسة غامضة تسمى " دواور " وتعنى المنتمى العظيم للفجر .

الدرع والسهم وهو الرمز المادي المقدس للإلهة " نيت " ذات الطبيعة الحربية وصور على شكل درع يحمل سهمين متقاطعين .

ويبدو من ذلك العرض أن هذه المعبودات كانت ثانوية ومحدودة الأثر والقدرة . ذلك فضلا عن تغير صفاتها ، وصورها تبعاً للنسيج الأسطوري الذى تبدو فيه . ويلاحظ كذلك ارتباطها بآلهة أخرى (تحل فيها أو تتبثق عنها) الأمر الذى يؤكد صحة الرأي الذى نظر إلى هذه المعبودات باعتبارها رموزاً وتجسيدات لصفات مجردة لآلهة أسمى منها (٢٩).

المعبودات الطبيعية

السماء تمثلها الإلهة " نوت " وتصور على هيئة امرأة منحنية على زوجها وشقيقها إله الأرض " جب " وهى أم " لأوزوريس وإيزيس وست ونفتيس " وكانت تصور داخل التوابيت لتحمل المتوفى بجناحيها . بينما " حورس " اعتبرته العديد من الآلهة ملك السماء وصورته على هيئة صقر أو إنسان برأس صقر .

الأرض يمثلها الإله جب وهو إله ذكر (وقد خالف المصريون فى ذلك سائر الديانات التاريخية) كان مثالا للقضاء وأبو الآلهة وزوج الإلهة نوت أما الإله " أقر " فهو تجسيد للعالم السفلى الكامن تحت

الأرض أو العالم الآخر وقد صور على شكل أسدين متدابرين بينهما قرص الشمس يقومان بحراسة مدخل ومخرج الآخرة (٣٠).
النيل يمثل الإله حابى أو جعبى وترد إليه علة الفيضان وري الأرض وقد صور على هيئة بشرية تجمع بين جسم الأنثى والذكر ذو ثدي وبطن مترهل .

القمر يمثل الإله " تحوت " وهو " رسول الآلهة " ورب فن الكتابة ووسيط فى الصراع بين " حورس وست " وصور على هيئة الطائر " أبيس " وأحياناً بالقرود وكان مركز عبادته مدينة الأشمونين .
وقد عبد القمر أيضاً باسم " خنسو " أى الهائم على وجهه وعبد فى طيبة باعتباره ابناً " لآمون وموت " وصور على هيئة آدمية بعلامة القمر فوق رأسه .

الهواء يمثل الإله " شو " وهو أيضاً إله الحياة والنور وهو يملأ الفراغ بين السماء والأرض وصور على هيئة آدمية أو على هيئة أسد .
ويلاحظ على هذه الآلهة أنها لا تختلف عن سابقتها من حيث وظيفتها المحدودة وتطورها تبعاً للسياق الأسطوري الذى ترد فيه وهى لا تختلف فى ذلك عن آلهة الهندوس والإغريق (٣١).

تأليه البشر

لقد أفرط المصريون فى تعظيم وتقديس ملوكهم وأبطالهم . وقد غالوا فى ذلك حتى وضعوهم فى مصاف الآلهة .
وهم فى ذلك لا يختلفون عن الإغريق والكونفوشيين .
بيد أن المؤرخين يؤكدون أن هذه النحلة لم تظهر فى الأطوار البدائية للديانة المصرية ، الأمر الذى يؤكد انتحال المصريين لها .
فيرى البعض أنها من اختلاق الحكام أنفسهم ، رغبة منهم فى تقوية سلطانهم وتوطيد أركان عروشهم .

ويرجعها البعض الآخر للكهنة الذين نسبوا الأساطير التى تبرر تأليه الملوك والأبطال ، وتؤكد نسبهم للإله " رع " وأشهرها تلك التى تروى أن الإنسان خرج من عيني رع ، وله طبيعة نصف إلهية . ولا تكتمل ألوهيته إلا بقيامه بجلال الأعمال البطولية ، التى تمكنه من العودة إلى " رع " ثانية فيصبح معبوداً كاملاً وسط الآلهة (٣٢) + (٨٨).

ويرد بعض المؤرخين ظهور عبادة الفرعون إلى بعض ملوك الأسرة الرابعة (٦٢٨٠ - ٢٦٥٠ ق.م) وعلى رأسهم "جدف رع" و"خفرع" و " يا أف رع " و " منكاورع " وغيرهم من الذين نسبوا أنفسهم للإله طلباً للرفعة والنبل والنسب الرفيع عوضاً عن النسب الأرضي المتنازع عليه من قبل البيت الفرعوني الحاكم آنذاك . ويؤكد أصحاب هذا الرأي أن لقب كنية ابن الإله لم يصبح نحلة متوارثة إلا في الأسرة الخامسة بداية من الملك " كاكاي " الذي غير اسمه إلى " نفراركارع " ويرجعون الأساطير التي بررت عبادة الفرعون إلى هذه الحقبة .

وكان يلاحظ على المصريين أن تأليههم لملوكهم في بداية الأمر كان في اعتبار الحاكم الكاهن الأعظم أو خليفة الله الذي اصطفاه في حكم الأرض ومن ثم كان الملك هو المَنوط الأَوحَد بالحديث مع الآلهة وبناء معابدها الكبرى . ثم فوض هذه المهمة للكهنة ولا سيما بعد تطور الدولة وانشغاله بأمور الحكم والسياسة والحرب (٣٣).

وقد نسجت منذ الدولة الحديثة العديد من الأساطير التي صورت الفرعون على أنه صورة حية للإله تعيش فوق الأرض وأن له سيطرة على الظواهر الطبيعية . وقد اكتسب لقب فير - وبير - أي الفرعون ، دلالة لاهوتية وتعنى العالم أو الكون الحاوي لكل البشر وقد اجتهدت الأساطير في تفسير ثنائية الناسوت واللاهوت التي يتكون منها الفرعون .

فذهب بعضها إلى أن الإله رع قد اصطفى إحدى زوجات كهنته وجامعها مجامعة الأزواج فحملت منه وأنجبت ثلاثة ملوك - من الأسرة الخامسة - لهم طبيعة مزدوجة هي ناسوتية الجسد ولاهوتية الإرادة والقوة والروح وذلك بعد قيام خنوم صانع البشر بمنحهم أعضاء قوية واختيار إيزيس ربة السحر والملك أسماء لهم وتأكد مسشنت ربة الولادة من نقاء دمائهم الفرعوني .

وتروى أسطورة أخرى أن الإله آمون أرسل إله القمر ليبحث له عن أجمل النساء فأخبره أنها زوج الملك تحوتمس فتقمص آمون صورة الزوج وتسلل إلى مخدعها فاستيقظت فتوجه إليها آمون وأفصح لها عن نيته وأظهر جمالها الإلهي ففرحت عندما رأت جمالها هذا وامتلأ جسمها بحبها له وغمر عبير الإله جو القصر وكان عطره

الذكي من بلاد البخور وأتم معها كل ما أراد وأخبرها أنها حملت منه بأبنة له اسمها خنمت آمون حتشبسوت سوف تخلفه فى حكم البلاد وأنه سوف يمدّها من قوّته وقدرته ما يمكنها من ذلك ثم تركها وعاد بعد أن وضعت إبنتها فأخذها بين ذراعيه معلناً أبوته لها بقوله " هذه هى إبنتي الحبيبة التى بها سررت * " ثم أسند أمر رضاعتها للبقرة السماوية (٣٤) .

وقد نجح الكهنة فى إقناع العوام بصحة هذه الخرافات الأمر الذى أتاح لهم بناء المعابد المختلفة لعبادة الفرعون وتقديم القرابين له وقد قام الملك أمنحوتب الثالث ببناء المعابد لعبادته وشهد مراسيم تقديم القرابين له كاله . والجدير بالذكر أن صفة الربوبية التى وهبت للفرعون لم يكن فى مقدوره توريثها لأبنائه إلا بموجب أمر إلهى يفصح عنه كهنة بيت الحياة .

ولم تكن عبادة البشر فى الفكر العقدى المصرى قاصرة على الملوك فقط بل كان للأبطال والحكماء نصيب منها فنجد الكهنة يتعاطفون مع الرأى العام وينعمون بالنسب الإلهى على "كامجنى" وزير الدولة فى عهد الملك "تيتى"، "وإمنحوتب" الوزير المعمارى فى عهد الملك زوسر وكان الأبطال يعبدون باعتبارهم أنصاف آلهة (٣٥) .

الآلهة الشعبية

كان للمصريين آلهة منزلية تُعبد فى المنازل وأخرى تقام لها معابد صغيرة فى القرى والمقاطعات وكانت تتميز بصغر حجمها وكثرة الأساطير التى ينسجها العوام حولها ذلك فضلاً عن أسمائها التى كانت تحمل مكان عبادتها من أشهرها :- الإلهة " تويريس " مشتقة من الكلمة المصرية " تاورت " بمعنى العظيمة وكانت تمثل على صورة فرسة بحر حامل تقف على قدميها الخلفيتين وتسند عادة على العلامة الهيروغليفية بمعنى الحماية وهى الإلهة التى تضمن الحماية للأمهات أثناء الولادة وكذلك للمواليد وقد بنى لها معبد فى الكرنك .

* نلاحظ وجود أوجه عديدة من الشبه بين هذه الواقعة وبين مثيلاتها فى قصة ميلاد بوذا وقصة ميلاد السيد المسيح التى أوردها إنجيل متى فى الإصحاحين الأول والثالث .

الإله " بس " وهو إله منزلى وكان يصور على شكل قزم مقوس الساقين بوجه عريض وفم متسع ولسان بارز ولحية تشبه لبدة الأسد وأذنين وذيل حيوانى وقد كان يرقص ويلعب على الناي لجلبت السعادة والسرور للإله وكانت تتخذ من صوره معاويذ وطلاسم للرقى .
الإلهة " مرسجر " أى المحبة للسكون وهى إحدى الآلهة الحافظة من الثعابين وترسم على هيئة كوبرا أو امرأة ذات رأس بشرى أو رأس ثعبان وكانت تدعى سيدة الغرب أو سيدة الجبابة واعتبرت إحدى تجليات الإلهة حتحور (٣٦).

وتخلص من ذلك الى أن سمة الكثرة والتجسيد التى بدت بوضوح على هذه الطائفة من المعبودات لا يمكننا اعتبارها جوهرًا للديانة المصرية وذلك لهشاشة وضعف السياق الأسطورى الذى يفسر وجود هذه المعبودات ويبرر تقديسها ذلك فضلاً عن غيبة الصلة المباشرة بينها وبين وجود الإنسان والعالم من جهة ، والقوة المهيمنة عليها التى تضمن تعايشها فى العالمين الأرضى والروحى من جهة أخرى .
الأمر الذى عالجته فكرة التوحيد والتجريد التى صورتها معظم الأساطير المصرية . وعلى ذلك فإن الكثرة والتجسيد فى الديانة المصرية لا يمكننا اعتباره إلا مظهراً لفكرة جوهرية سابقة عليه تحمل بين طياتها الأسس العقدية والمبادئ الأساسية لهذه الديانة من جهة وتقوم بربط هذه الشذرات الأسطورية المبعثرة فى ملحمة واحدة من جهة أخرى (٣٧) .

وسوف نحاول إثبات ذلك فى السطور التالية .

الوحدة والتجريد

ينظر بعض علماء الأنثروبولوجيا إلى فكرة الكثرة والتجسيد على أنها مظهر من مظاهر الديانات البدائية بعامة وإحدى أطوار السذاجة والانحطاط للديانة المصرية بخاصة ويعدونها كذلك دليلاً على قصور العقلية المصرية عن صياغة ملحمة أسطورية تجمع شتات آلهتهم على غرار الإلياذة والأوديسة .

بينما يعد بعض فلاسفة الدين فكرة التوحيد والتجريد إحدى سمات نضج الفكر الأسطورى لدى الشعوب وأحد أطوار الرقى للفكر اللاهوتى .

وإذا سلمنا بصحة هاتين النظريتين فسوف يقودنا البحث إلى أن نسلم بأن طور الكثرة والتجسيد فى الديانة المصرية كان سابقاً على طور التوحيد والتجريد غير أن هذه النتيجة تفتقر إلى الأدلة التاريخية وتتناقض تماماً مع كل القصص الأسطورية المدونة على جدران المعابد، وكذا مضمون الأناشيد المنقوشة التى حفظها المصريون على أوراق البردي، تلك التى تقوم بتفسير وتبرير فكرة الكثرة والتجسيد فى الديانة المصرية .

وتؤكد أنها تُرد إلى فكرة جوهرية واحدة تجمع الشذرات الأسطورية المتباينة عن الآلهة المصرية ، وتكشف عن ملحمة مصرية رائعة قام بوضعها حكماء مصر منذ أقدم العصور . وقد قام الكهنة بتزييفها وتحريفها تبعاً لأهوائهم وأغراضهم والثقافة السائدة والسلطة الحاكمة (٣٨) + (٩٢) .

وإذا ما حاولنا تفسير علة ازدواج فكرتى الكثرة والتجسيد والوحدة والتجريد فى الديانة المصرية فإننا سوف نجد أنها ترجع إلى سببين رئيسيين: أولهما وجود التصورات الفردية لفكرة الإله الواحد فى القرى والمقاطعات فى مرحلة ما قبل التاريخ .

وثانيهما يرجع إلى تعلق المصريين بأصولهم التليدة وأفكارهم العقدية الموروثة . الأمر الذى حال بين توحيد هذه الرؤى والتصورات المتباينة فى صورة إله واحد ، رغم الوحدة السياسية التى جمعت الأقاليم المصرية فى دولة واحدة وتحت إمرة حاكم واحد .

فلم يكن فى مقدور الكهنة ولا الفرعون قهر المصريين أو إرغامهم على ترك معبوداتهم القديمة . بل احتالوا على ذلك شيئاً فشيئاً بفكرة أنساب الآلهة ، وظهرت فكرة الثامون والتاسوع والثالوث . محاولين بذلك وضع أنساب للآلهة تؤكد فكرة الوحدة الكامنة وراء الكثرة الظاهرة .

الأمر الذى راق للعامة الذين يقدسون الماضى ، وطاب للكهنة بطبيعة الحال الذين نعموا بجمع المزيد من النذور والقرابين . أما الحكماء فكانوا يؤمنون مع فكرة الوحدة بعقيدة التنزيه والتجريد ، التى تنظر إلى كل مظاهر الكثرة باعتبارها إنحرافاً عن الحقيقة أو تزييفاً لها .

ولعل هذا المنحى يفسر لنا عزوف العوام وكراهية الكهنة للديانة الآتونية، ويبرر تقديس الأناشيد والأدعية المفعمة بأسمى آيات التجريد

والتنزيه والسمو من قبل العامة والخاصة على حد سواء (٣٩).
وسوف نحاول في السطور التالية إبراز أبعاد فكرة التوحيد
الجوهرية، التي نسجت بمقتضاها معظم أساطير الديانة المصرية .

الوحدة علة الكثرة

لقد دعت الوحدة السياسية للإمبراطورية المصرية إلى ظهور فكر
عقدي جديد . يدعم هذه الوحدة ، ويبرر تعايش آلهة المقاطعات
المختلفة معاً ، فى تآلف ووثام . فظهرت فكرة الثامون والتاسوع
والثالث كإرهاصات ملحمية للصورة الأسطورية الكلية التي جمعت
شآت كل الآلهة المصرية - كما أسلفنا - .

وقد اختلف المؤرخون حول أسبقية هذه الصيغ، وقد راق لبعضهم
حل هذه القضية باللجوء إلى ما نطلق عليه (بالجغرافيا العقدية) .
فذهب إلى اعتبار ثامون الأشمونيين أسبق من تاسوع هليوبولس
وثالث طيبة ومنف .

أما البعض الآخر فأكد أن صيغة الثالث أقدم هذه الصيغ على
الإطلاق باعتبارها أصل التاسوع والثامون من جهة ، وأكثر الصيغ
انتشاراً فى المقاطعات منذ عصر ما قبل التاريخ من جهة أخرى (٤٠) .
وسوف نحاول فى السطور التالية عرض أهم هذه الأشكال دون
التقيد بأى من هذين الرأيين .

الثامون المقدس

وقد دعت إليه ضرورة سياسية فى المقام الأول - كما ذكرنا - ألا
وهى وحدة هليوبولس ومنف والمصالحة بين كهنة الإله " أتوم " و
كهنة الإله " بتاح " وقد حدث ذلك فيما بين عصرى الأسرتين الثالثة
والخامسة وقد صورت الأساطير هذا الثمانى على النحو التالى :-
يعلو الثامون الإله " نون " وهو الخضم الأزلى الذى انبثق منه كل
شئ ومن ثم فهو أبو الآلهة فمنه تخرج الشمس يومياً ومن شقه
الأنثوى " نونيت " يكونان زوجاً من أربعة أزواج لثامون الأشمونيين
هى (حوح وحوحت) ويمثلان صفة اللانهاية و (كوك وكاوكت)
ويمثلان الظلام و (آمون وأمونت) ويمثلان اللارؤية (٤١).

الثالوث المقدس

لقد كانت السياسة أيضاً وراء تحديد رأس الثالوث فالمقاطع القوية هي التي ترفع معبودها للقمة وتجعل ما دونه من المعبودات منبثقة عنه ويعد الثالوث أكثر وأبسط صيغ التوحيد الأسطورية ذيوياً وهو يجمع بين إله رئيسياً وإلهين محليين أقل شأنًا وأثراً منه فيما يسمى بالعائلة الإلهية أو ثالوث الآلهة ومن أشهر الأمثلة على ذلك :-
ثالوث منف ويتكون من الإله " بتاح " رب كل الصناعات والفنون وزوجته الربة " سخمت " إلهة القوة والسحر والحرب وابنهما " نفرتم " إله زهرة اللوتس الأزلية .

ثالوث طيبة ويتكون من الإله " آمون " ملك الآلهة وزوجته الربة " موت " الإلهة الأم وابنهما الإله " خنسو " رب القمر .
ثالوث فيلة ويتكون من الإله " خنوم " خالق البشر وزوجته " عنقت " ربة الشلال وزوجته الثانية " ساتت " سيدة النوبة .
ذلك بالإضافة إلى العشرات من الأساطير التي نسجت على نحو ثلاثي حول شخصية أوزيريس .

فمنها من صورته نائباً عن رع وخصماً لست ومنها من صورته ابناً لإله الأرض جب وأخاً لست ، ومنها من صورته أخاً لإيزيس ونفثيس .
وتجمع معظم الدراسات على أن كل أشكال التثليث من انتحال مجمع الكهنة أو بيت الحياة الأمر الذي يؤكد غيبة العنصر الغيبي في عقيدة التثليث عند المصريين (٤٢) .

التاسوع المقدس

إذا كان الثامون والثالوث قد انتحلها الكهنة تلبية لحاجة السياسة فإنهم اخترعوا التاسوع للرد على الأسئلة التي طالما وجهها الخاصة قبل العامة إليهم عن الكون ونشأته ، والعناية الإلهية ، ودور الآلهة في صنع القدر فصاغوا التاسوع على هذا النحو :- عندما تكون إله الشمس " أتوم " في المياه الأزلية * " نون " قبل أن تتكون السماء

* لاحظ أوجه التشابه بين " نون " المياه الأزلية وبين المياه الأزلية عند طاليس أول فلاسفة اليونان وبين الآيات التي ذكر فيها الماء في القرآن الكريم .

والأرض وقبل أن تخلق الدودة أو العلقة ، فلم يجد مكاناً يقف فيه .
ثم وقف فوق تل فشعر بالوحدة فخلق من نفسه رفقاء ليؤنسوا وحدته
فتفل بسر كلمتى " إيشش " و " تف " الإله " شو " إله الهواء والإلهة "
تفونت " ليرمزان معاً للشمس والقمر ويكونان بمثابة عيني حورس ثم
انجب " شو " و " تفونت " الإلهين " جب " إله الأرض و " نوت " إلهة
السماء وأنجب الأخيران أوزوريس وست وإيزيس ونفتيس .
وقد حكم هؤلاء العالم في أول الأمر قبل أن تتجمع السلطة في يد
حورس بوصفهم الآلهة العظام وقد أطلق عليهم تاسوع هليوبولس (٤٣).

التجريد الكامن وراء فكرة التوحيد والتشبيه

استناداً على الرأي القائل بأن وراء آلهة المصريين المحسوسة
وحدة منزهة التي تبناها بعض المعينين بدراسة الفكر الديني المصري
نسوق بعض من هذه الآلهة التي أضفت عليها الأساطير المصرية
صفات ومعاني ترفعها إلى درجة السمو والتنزيه .
وقد اختلف المؤرخون أيضاً حول ظهور تلك الكتابات التي تصف
المعبود المصري بالوحدانية والتنزيه رغم تصويره وتجسيده ونحت
التمائيل له في معابدهم (٤٤)+(٩٥) .
فذهب بعضهم إلى أن هذه الصفات ترد إلى عصر ما قبل التاريخ
حيث الآلهة الشعبية والطور البدائي للديانة المصرية .
بينما يرى البعض الآخر بأن هذه الفكرة منتحلة ولم ترد إلا في
فترة متأخرة سابقة على الغزو اليوناني .
ويرى فريق ثالث أن صفة التوحيد والتفرد كانت تطلقها كل
جماعة أو طائفة على معبودها للإعلاء من شأنه وبالتالي لا يقصد بها
جمع المعبودات المتعددة في صورة إله واحد .
في حين ينأى فريق رابع عن قضية تحديد ظهور فكرة التوحيد
وحجته في ذلك أن النصوص المختلفة ككتاب الموتى وتعاليم أنى
وتعاليم بتاح حتب التي ذكر فيها صفات الإله الواحد قد أجرى عليها
تعديلات في حقب زمنية عديدة الأمر الذي يصعب معه التسليم
بأصالة هذه الفكرة مع وجود النصوص التي تؤكد الكثرة (٤٥) .

ويرد أنصار هذا الاتجاه فكرة التوحيد لطائفة الحكماء المصريين

وينسبون التحريف والتعديل الذى أجرى على النصوص إلى بعض الكهنة الذين أرادوا التملق لحاكم بعينه أو محاباة إله ما . ومازالت هذه القضية مطروحة على مائدة البحث العلمي أما بعض النصوص الدينية السماوية فقد أكدت وجود فكرة التوحيد راسخة فى الديانة المصرية منذ الأزل وذلك بفعل الأنبياء الذين نزحوا إلى مصر مثل إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام غير أن الوثائق التاريخية لم تحدد فترة وجود هؤلاء الأنبياء في مصر وإن اعترفت بوجود معابد للعبرانيين وأتباعهم (٤٦) .

وها هي أهم المعبودات المصرية التي تمثل هذه الفكرة .

صفات الإله أتوم

فاسم أتوم يعنى التام أو الكامل ولم تبرر وجوده الأساطير بعله خارجه عن ذاته بل أكدت أنه معلول لذاته وعلة كل الموجودات ومن ثم فهو خالق العالم وقد اندمج بعد ذلك مع رع وعرف باسم أتوم رع .

صفات الإله رع

هو أشهر الآلهة على الإطلاق ويعنى قرص الشمس الكامل وقد نسبوا إليه صفة الأزلية والخلق والأب السرمدي لكل الموجودات الأمر الذى يفسر انتساب أسماء الفراعنة له منذ الأسرة الرابعة - كما ذكرنا - وقد صورته أساطير الكهنة بصورة آدمية فى المعابد التى شيدت له فى " أون " " وهليوبولس " وعين شمس وهو يسافر فى مركبه الإلهى عبر السماء بالنهار وفى العالم الآخر فى الليل . وقد اندمج مع أتوم وأمون فى فترات سيادتهما على المعبودات المصرية .

صفات الإله أمون

وهو من أهم وأعرق وأشهر آلهة مصر القديمة وأعظمها شأنًا وأقواها سلطة وذلك بفضل كهنته الذين رفعوه على دونه من سائر المعبودات المصرية - كما بينا سلفاً - وقد وصفته الأساطير بأنه الإله الخفى ولقب بملك الآلهة وقد اندمج مع "رع" إله الشمس و"مين" إله الحصاد وخنوم خالق البشر . الأمر الذى أكسبه صفات هذه الآلهة من قدرة مطلقة وخيرية وخلود . وصُور على هيئة رجل يلبس تاج تعلوه ريشتان ورُمز له بالكبش أو الأوزة (٤٧) .

صفات الإله حو

وهو من أكثر آلهة مصر غموضاً وتجريداً وذلك لأنه يمثل فعل كن وسر الكلمة الأزلية التى تتشكل بمقتضاها الموجودات وهو يمثل مع " حكا " رمز السحر و" سيا " رمز المعرفة والذكاء والقوى الخالقة التى تصحب مركب إله الشمس أثناء رحلتها .

صفات الإلهين رنوت وشاى

ويمثلان قوة القدر والمصير وقد ذاعت عبادتهما فى الدولة الحديثة وصورت الأساطير الإله شاى على شكل آدمى ثم اتخذ شكل ثعبان .

صفات الإلهة ماعت

وهى ابنة الإله آمون وترمز إلى الحق والعدالة والصدق والنظام وهى الأساس الذى خلق عليه العالم .

صفات الإلهة إيزيس

أم الإله حورس وأخت وزوجة الإله أوزوريس وقد وسمت بالغموض باعتبارها ربة قوى السحر والمعجزات والتخفى والنقص وتمثلها الأساطير بامرأة تحمل علامة العرش فوق رأسها وأحيانا تلبس تاج عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس وأخذت أشكال ومظاهر آلهة مختلفة .

صفات الإله آتون

ويعد بلا منازع ذروة فكرة الألوهية المجردة عند المصريين ويبدو ذلك فى صفاته التى تجعل منه إله أحد أزلى ليس له شريك ولا نسب، قادر قدرة مطلقة خالق كل شئ ترجع له كل الأقدار ومصائر الموجودات بوصفة العلة الفعالة والغائبة لها وهو الحى الذى لا يخبو ولا يموت وقد صورته النقوش فى أول الأمر برأس صقر ثم بقرص شمس بأشعة تنتهى بيد آدمية تمسك غالبا علامة الحياة (٤٨) .
وإذا ما تأملنا تلك الصور المتناقضة فى الظاهر التى تصف آتون

فسوف ندرك الحقيقة التي ما برحنا الإلحاح عليها وتأكيدها منذ بداية هذه الدراسة ألا وهي أن تجسيد الإله عند المصريين لا يعدو أن يكون رمزاً أو تشبيهاً أو إن شئت فناً محسوساً يعبر عن قيم مجردة وغاية أسمى . فها هو آتون الواحد المتفرد في كل صفاته تُنقش صورته على هيئة محسوسة لا تتناسب مع صفاته المطلقة إلا على سبيل الرمز فالصقر كما كانت تصوره الأساطير المصرية هو ملك السماء البصير والخبير بما يحدث على الأرض وكأن الفنان المصري وجد في هذه الخصال ما يتناسب مع صفات الإله فرمز بها له .

وما يصدق على آتون يصدق على سائر الآلهة الأخرى فيبدو من عرضنا السابق لجلها أنها تعبر عن المثل العليا والقيم المجردة وقد أكدت ذلك الدراسات المعاصرة التي بينت أن كل إله يقترن بقرنين هما البا والكا .

فتعد الأولى أي البا المظهر الخارجي الذي تصوره الأساطير وتعبّر عنه النقوش وهو بطبيعة الحال من ابتكار الكهنة أو التصور الساذج للمعاني المجردة للإله وتبدو نشأته في تصوير الروح عند مفارقتها البدن كالطائر الصغير الذي ينطلق من عشه أو زهرة اللوتس التي تتفتح أكامها فوق سطح الماء أثناء الليل وصورها البعض على أنها ذلك الثعبان الذي يندفع من جحره في غموض باعتباره ابن الأرض .

أما الكا فهي القوى الروحية الغامضة التي تمثل الحياة وهي بطبيعة الحال من الأسرار التي لا يستطيع العقل البشري إدراكها والوقوف على حقيقتها .

أما مظهر التعدد فهو مجازي أيضاً لتلك الصفات المتعددة الكامنة في جوهر الإله (٤٩)+(٩٦) .

وسوف نتبين حقيقة ذلك من صفات الإله التي جاءت في النصوص المقدسة التي كان يتلوها المصريون في صلواتهم لسائر معبوداتهم الأمر الذي يجعل من التعدد مظهراً أو صفاتاً لإله واحد .

* * *

الكتب المقدسة

لا نجد من بين الدراسات المعاصرة للنصوص المقدسة المصرية القديمة ما تحدد مصدراً لهاتيك النصوص أو تفسر وجودها وسط ملحمة الآلهة التي تجمع بين الكثرة والتجسيد والوحدة والتجريد في نسيج أسطوري واحد - كما بينا - .

بيد أن هناك بعض الأبحاث المرتاب في مصدرها ترد أصولها إلى مصدر إلهي هبط متتابعاً بوحي على أنبيائه الذين سكنوا مصر أو هاجروا إليها ومنهم هرميس * المصري الذي ورد في التوراة باسم "خنوخ" ، وذكر في القرآن باسم إدريس . وإبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام غير أن هذه الكتابات لم تشر بالتحديد إلى العصر الذي ظهر فيه أولئك الأنبياء في مصر ، وإن كانت هناك بعض الإشارات إلى أن إدريس قد ظهر في فترة ما قبل التاريخ . بينما إبراهيم ويوسف وموسى قد ظهوروا جميعاً في عصر الهكسوس أي من ١٦٧٥ ق.م إلى

* شخصية غامضة ومحيرة في تاريخ الفكر الإنساني فنجد من بين الدراسات من تجعله شخصية أسطورية ليس لها وجوداً تاريخياً وترتبط بينه وبين الإله تحوت رسول الآلهة ورب فن الكتابة وإله القمر وحامل عصا النوم ودليل الأرواح إلى عالم الموتى عند الأشمونين برباط يجعل منه أحد تجسّداتها . ويروق لدراسات أخرى رده للفن الملحمي الإغريقي باعتباره إله التجارة وابن زفس ومايا . وقيل أنه كاهن مصري كان يتلقى الخبر من السماء ، وأن تعاليمه هي المصدر الأول لكل الديانات وأعتبرت الشذرات التي نسبت له كتاباً مقدساً أصدق في قصصه من التوراة وأعمق في فلسفته من فكر أفلاطون الذي انتحل بعضها . وهو في نظر المسيحيين الأوائل أحد القديسين ، وتعدّه بعض الكتابات الإسلامية إدريساً عليه السلام . وقد اختلفت الدراسات حول مولده ونشأته فذكر بعضها أنه مصري ، وذكر البعض الآخر أنه بابلي هاجر إلى مصر بعد البعثة هرباً من أهل عشيرته الذين جحدوه وراح يهدي في مصر إلى عبادة الواحد الأحد ، وتتلّمذ عليه الكثيرون في علم الفلك والحكمة وفن الكتابة ، وأمن به نفر قليل في البقاع التي كان يحل فيها . الأمر الذي مكنه من تخطيط المدن وتقسيم الأمصار وبناء المعابد وتقديم القرابين والأضحيات من خمر ولحم وبخور للإله الواحد الذي بشر به وتنصيب الملوك وأضحت تعاليمه بمثابة الدستور الذي لا يقوي على مخالفته أحد .

١٥٦٧ ق.م أو فى الدولة الحديثة أى من ١٣٠٤ ق.م ١٠٨٠ ق.م .
وعلى الرغم من تأكيد بعض الدراسات العلمية على وجود
الكنعانيين والعبرانيين بمصر فى أحقاب تاريخية مختلفة ، ووجود نبى
الله موسى فى عهد رمسيس الثانى إلا أنها لا تخبرنا بتاريخ ظهور
الهرامسة . الأمر الذى جعل الفصل فى قضية رد النصوص المقدسة
المصرية إلى مصدر إلهى من عدمه معلقاً حتى تتوفر الأسانيد
التاريخية - التى تكشف عن علة ذلك التطابق بين نصائح الحكيم
المصرى " أمنموبى بن كانخت " وبين ما ورد من تعاليم فى سفر
الأمثال . وتشابه بعض الأحداث التى مر بها الحكيم والطبيب
والمهندس المصرى إمنحوتب (٢٨٧٠ - ٢٦٨٠ ق.م) وكبير كهنة
الإله آمون ووزير الملك زوسر . وبين ما روته الكتب المقدسة عن
أخبار نبى الله يوسف فكلاهما كان يفسر الأحلام، ويدعو لعبادة الواحد
الأحد ، وصرح بأن مصدر علومه يتلقاها من السماء (٥٠) .
وسوف نعرض فى عجالة أهم النصوص المقدسة عند المصريين
ولا سيما تلك التى تتحدث عن طبيعة الإله وصفاته .

١- نصائح الكهنة والمصلحين والحكماء

وتتسم هذه النخبة من النصوص بالطابع الأخلاقى الذى يجعل من
الألوهية الوازع الأول للسلوك القويم والمصدر الأوحد لكل الفضائل
وقد أجمع كتابها على مختلف عصورهم على أنهم أسدوا هذه النصائح
إنطلاقاً من إيمانهم بالإله الواحد .

أ- نصائح كاجمنى ٢٦٣٥ - ٢٥٦١ ق.م

وهو حكيم ومعلم شغل كرسى الوزارة فى الأسرة الثالثة وقد قدست
أقواله وكتاباتة بعد وفاته وراح الكهنة يتلونها فى المعابد ومنها :-
- اسلك طريق الاستقامة لئلا ينزل عليك غضب الإله .
- احذر أن تكون عنيداً فى الخصام فتستوجب عقاب الإله .
- أن الإله هو الواحد والحقيقة المطلقة واهب الحياة والنعم وهو الذى
لا يحب الفاسدين والمارقين والمحب للطائعين الأبرار وهو الحكيم
الذى دبر العالم (٥١) .

ب - مواعظ بتاح حوتب ٢٤٨٠ - ٢٤٢٠ ق.م

وهو أبرز حكماء الأسرة الخامسة وقد اعتلى كرسي وزارة الملك "إسيس" الذي أطلق على عصره عصر التقوى والرفاهية وقد حفظ العامة والخاصة نصائحه التي كتبها لولده وراحوا يرددونها باعتبارها الحكمة المثلى في التربية والتدين ومن أقواله :-

- لا يُسمع صرير قلمك إلا بالحق ولا يخط إلا الصدق الذي يفيد الناس ويرضى الإله لأن العلم ونعمة الكتابة هبتان من الإله فلا ينبغي عليك جحودهما .

- أن طاعة الوالدين وإقامة العدل والتواضع والصدق في القول والتسامح من الفضائل التي أمر بها الإله . وحب الزوجة والكرم والقناعة .

ج - نصائح الحكيم آنى ٢٢٨٠ - ٢٢٤٢ ق.م

وهو آخر حكماء الأسرة السادسة ومن أقواله :-

- اعلم أن الإله واحد ولا تسأل عن صورته لأنك لن تدركه ببصرك ولا تبحث أسرار ملكوت ربك لأن عقلك لن يحصيها .

- طع ربك ولا تعصيه أبداً لأنه شديد العقاب ورؤوف بالمؤمنين .

- صل من قلبك ليقبل الرب دعاءك ويبارك قربانك (٥٢) .

٢ - أناشيد الشمس

وهي مجموعة من النصوص نقش معظمها على قبور الكهنة وأكثرها مجهول النسب وأقلها منسوب إلى صاحب المقبرة التي كتبت على جدرانها .

أ - أنشودة " آى "

وهي منسوبة إلى "خبر خبرو رع" الذي حكم مصر في الفترة من (١٣٤٤ - ١٣٤٢ ق.م) وهو أحد الكهان الذين صاحبوا إخناتون وخدموا في قصره وبلغ رتبة قائد الفرسان وبلغ العرش بعد وفاة توت عنخ آمون وجاء في أنشودته :-

إن ظهورك جميل في أفق السماء أيتها الشمس أولى الأحياء .

إن أشعك تحيط البلاد بقدر ما خلقت منها .

أنت بعيد ولكن شعاعك على الأرض نراك ورغم ذلك لا نعرف مسراك.
أنت التي تجعل أحشاء المرأة تثمر وتضع النطفة في الرجل أنت التي
تطعم الابن في بطن أمه وتهدهه حتى لا يبكي كمرضع في بطن الأم.
أنت التي تعطى الروح لمن تخلقه حتى تحييه عندما يخرج من بطن أمه
في يوم ولادته تفتح فمه للكلام وتقوم بما يلزمه.

كم عديدة هي أعمالك أيها الإله الوحيد الذي لا يوجد آخر الى جواره.
لقد خلقت الأرض حسب رغبتك أنت فقط برجالها وقطعانها وجميع
حيواناتها.

أنت وحيد أنت تشرق في هيئة الشمس الحية عندما تظهر وتتألق تبتعد ثم تعود.
أنت تخلق ملايين الكائنات منك وحدك.
أنت في قلبي ولا يعرفك أحد إلا ابنك الملك أنت تفهمه بطبيعتك وقوتك
وكل ما يحدث للعالم فهو بإرشادك لأنك أنت خالقه (٥٣).

ب - أنشودة " سوتى " و " حور "

وهي منسوبة إلى اثنين من رجال العمارة الذين كانا يعملان في
بلاط الملك امنحتب الثالث (١٣٩٨ - ١٣٦١ ق.م) وجاء فيها :-
إنك صانع مصور لأعضائك بنفسك .

ومصور دون أن تصور .

منقطع القرين في صفاته مخترق الأبدية .

مرشد الملايين إلى السبل .

كل الناس تنظر بواسطتك .

أنت خالق الكل ومانحهم قوتهم .

وأنت أم نافعة للآلهة والبشر .

وأنت صانع مجرب .

وراع شجاع يسوق ماشيته .

وأنت ملجؤها ومانحها قوتها .

وأنت الذى ترى مخلوقاتك .

والسيد الأحد الذى يأخذ جميع من فى الأراضى أسرى كل يوم بصفته

واحداً يشاهد من يمشون فيها .

ومضيء فى السماء كائن كالشمس .

وأنت خالق تخلق الفصول والشهور والحرارة عندما تريد .

ويمكننا أن نلاحظ فى النصوص السابقة مدى وعى طبقة الخاصة

المتمثلة في الكهنة والمصلحين المصريين بطبيعة الإله وكذا مدى إيمان العامة بصفات الإله المنزه عن أى تجسيد ، أو تشبيه . وتيقنهم من أن ما يقدم له القرايين ما هو إلا رمزاً كهنوتياً لذلك الإله المجرد . والجدير بالذكر أن معظم هذه النصوص قد كتبت في أحقاب متقاربة وهي الفترة الممتدة من (٢٧٨٠ ق.م إلى ١٣٠٤ ق.م) وهي عين الفترة التي تم فيها الاتصال المباشر بالكنعانيين وديانتهم والأنبياء والعبرانيين (٥٤)+(٩٩).

وما زال هناك عشرات النصوص مجهولة الهوية والتاريخ وجلها تؤكد عقيدة التوحيد . ويبقى السؤال مطروحاً :-
هل عقيدة التوحيد في مصر التي تخللت كل أحقابها التاريخية ترد إلى مصدر إلهي أم إلى أريحية وحكمة المصريين المتدينين بفطرتهم ؟

* * *

أهم المعتقدات والطقوس

ترتبط العقائد والطقوس المصرية ارتباطاً وثيقاً بفكرة الألوهية بما فيها من ازدواجية بين الكثرة والتجسيد ، والوحدة والتجريد . الأمر الذي يكشف عن اتساق أفكارها ووحدة وأصالة مصدرها ، ويبرر سر خلودها عبر العصور ورسوخها في الثقافة المصرية رغم تحولها عن المظهر الخارجي للديانة المصرية (٥٥) + (١٠١) .
وسوف نعرض في السطور التالية لأهم هذه المعتقدات .

عقيدة خلود الروح

تعد عقيدة خلود الروح والبعث من أقدم العقائد المصرية وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعقيدة التقمص وعقيدة البعث . إذ كان المصري القديم يعتقد بأن الروح تختلف عن البدن في أصلها وصورتها ، فهي لا تمرض ولا تبلى ولا تفنى . بل هي خالدة أبد الدهر تبعاً لطبيعتها الأثرية . وما الموت إلا رحلة يجب على الروح المضى فيها

بمفردها لتظهر من الآثام التى إرتكبتها برفقة البدن فى حياتها الأرضية ثم تعود ثانية لتبعث الجسد الذى كانت فيه ليصطحبها فى دورة حياتية جديدة وإذا وجدته معطوباً أو فانياً تضطر إلى تلبس جسد أحد الأجنة فى الأرحام (٥٦).

ويكشف ذلك المعتقد عن سر احتفاظ المصريين بأجساد العظماء منهم بالتحنيط . أما العوام فكانوا يدفنون فى الرمال الجافة التى كانت تحفظ الجسد من التلف إلى مدة طويلة، وكان المصريون يضعون ملابس وحلى وأطعمة مع موتاهم بقبورهم إنتظاراً للحظة عودة الروح للبدن، فيبعث الجسد فيجد ما يقات به ويلبسه ويعينه على إستئناف حياته، وكانت هذه الأشياء تُحرس وتجدد بمعرفة ذويهم وقد استبدلت هذه الأطعمة بقائمة مكتوبة لهذه العطايا .

وقد صورت الأساطير عملية خروج الروح من البدن بصورة عديدة منها صعود الروح إلى السماء بسلم علوى عظيم الارتفاع ، أو تعليقها بذيل البقرة السماوية ، أو محلقة كطائر ، أو محمولة فى وعاء من الدخان أو الأثير ، أو فى عاصفة رملية . حتى تبلغ السماء فتبدأ رحلتها من الشرق موطن ظهور " رع " إلى الغرب حيث الإلهة " إمنت " ربة الغرب وحامية عالم الموتى (٥٧).

وكان المصريون يعتقدون بأن أرواح الأبطال والملوك والكهنة هى التى تُبعث فقط وذلك حتى عصر الأسرة السادسة فبعد هذا التاريخ أصبحت عقيدة البعث تسرى على كل البشر .

وقد تضاربت تفسيرات المؤرخين لاعتقادات المصريين حول الحياة الأخروية وذلك تبعاً للنقوش المتباينة التى تعبر عن هذا المعتقد فبعضها يصور الإنسان يمارس حياته الطبيعية فى عالم الأرواح كما كان يمارسها فى العالم الأرضى . وبعضها تصوره على أنه اتصل بأوزوريس لمشاركته فى حكم العالم الأرضى . ومنها من يصوره مصطحباً الإله " رع " إله الشمس فى رحلته عبر الآفاق خلال النهار، وفى العالم السفلى خلال الليل (٥٨) .

وغاية الخلود عند المصريين هو الاتحاد بأوزوريس .

وكان يعتقد المصريون كذلك بأن أرواح الموتى تحوم فوق مقابرها حيث يرقد الجسد وذلك لمراقبة القائمين على حراستها فتبشر

المخلصين منهم بنعيم الجنة . أما اللصوص أو المهملين في عملهم فتتوعدهم بالعذاب وبانتهاك أعراضهم، وضياع أموالهم ، وفساد عيالهم . الأمر الذي يفسر حرص المصريين على زيارة المقابر وحمل الطعام والشراب ووضع فوق مائدة القرايين بجوار اللوحة التذكارية ، التي يدون عليها اسم صاحب القبر . أملاً منهم في استرضاء أرواح الأجداد ، واثقاء مكائد الأشرار منهم الذين يهددون أمن الأحياء ويقتحمون عليهم منازلهم ليلاً . وكان كهنة المعابد يقومون بدور الوساطة والمصالحة بين الأرواح الشريرة ، وبين من غضبت عليهم من البشر . وذلك بإجراء إتصالاً روحياً بينهم عن طريق بعض التمانم والتعاويز المكتوبة على ورق البردي أو الكتان أو على سطوح الأواني التي تقدم فيها العطايا للميت التي تمكنهم من محادثتهم ومصالحتهم أي أن الكهنة كانوا على دراية بما نطلق عليه علم تحضير الأرواح (٥٦).

وعلى الرغم من تقديس المصري لأرواح الأسلاف إلا أننا لا نجد ما يؤكد أنهم كانوا يعبدون هذه الأرواح باعتبارها أرباب لهم إلا في نطاق ضيق ومحدود للغاية تمثله بعض القرى في الدولة الحديثة حيث كان العوام يصنعون تماثيل نصفية لذوى القرابة الحميمة من أسلافهم ويضعونها في حنايا حوائط منازلهم .

وقد حاول الكهنة وضع تصور لماهية الروح فذهبوا إلى أنها تتكون من عنصرى " الكا " و " البا " شأنها في ذلك شأن أرواح الآلهة وأن " الكا " هي إحدى عطايا الإله " رع " التي تفلها مع أول مخلوقاته ، وهى لا تفارق البدن إلا عند الموت. غير أنها تظل تتردد عليه من حين لآخر - كما ذكرنا - لتطمئن على سلامته . ويفسر ذلك اعتبار المصريين القبور داراً لأرواح الموتى . بيد أن عنصر " الكا " ظل مجهولاً وسراً غامضاً لا يعرف عنه شيئاً . فتارة ينظر إليه على أنه ملاك ، أو قوى سحرية ، أو كائن إلهي .

أما عنصر " البا " فهو الذى تتجسد فيه أشكال بعض الطيور ، أو زهرة اللوتس ، أو بعض الحيات - كما ذكرنا - .

وهناك برديات أخرى تقوم بتحديد الصلة بين روح الإنسان وجسده وهى تتصور أن الإنسان يشتمل على ثلاثة قوى هى " أب "

وتعنى الضمير وموطن الحدى القلى والمعرفة الإشرافىة . و " حاتى " وهو القلب المادى الذى يقوم بتغذية البدن . وأخيراً " ران " وهو الاسم الشخصى للإنسان وله وجهان أولهما معلن ، والثانى سرى . يكتب فى قبره لتتعرف الروح علىه عند عودتها إليه . ويفرق هذا التصور بين " الكا " و " الآخ " فيعتبر الأولى سر حياة البدن والقوة التى تحوم حوله بعد الموت . أما " الآخ " فهى الروح المطلقة التى سرعان ما تعود بعد الوفاة لتتحد ثانية مع الإله أوزوريس (٦٠) + (٩٨) .

عالم الأرواح والعالم الآخر

لا نكاد نلمح فى العقائد المصرية فرقا جوهريا بين عالم الأرواح وبين العالم الآخرى وعالم الآلهة وذلك لأن هذه العوالم تدور حول فكرة مركزية ألا وهى عالم الخلود اللامرنى حيث النعيم والجحيم الأبدى . وتصوره الأساطير على أنه ينقسم إلى قسمين العالم السماوى والعالم السفلى :- تسكن الأول الأرواح الطاهرة التى تعيش بالقرب من أرواح الآلهة انتظاراً للعود الأبدى أى الاتحاد ثانية برع الإله المطلق ومن اليسير على سكان هذا العالم التجول فى الآفاق أو الهبوط إلى العالم الأرضى وتفقد (٦١) .

وتكشف لنا نصوص الأهرام عن تصور المصريين لحياة الأرواح النبيلة والخيرة وتحدثنا عن تحول أرواح الفراعين والأبطال والقديسين من الكهنة إلى نجوم ساطعة وطيور رائعة يمكن للخبير أن يتعرف على أصحابها بالنظر إليها وهى تظل فى سعادة وفرح انتظاراً للنعيم الأبدى . فى صحبة الإله " تحوت " الذى يحملها فى مركبة فى نزهة سماوية . أو تأنس بخدمة الإله رع أبى الأرواح السماوية . وذلك بعد تطهرها بالماء بمساعدة الآلهة التى تشرف على منابع النيل . والإله " رع " باصطفاء إحداها لينصبها منصب ملك السماء ويمنحها لقب ابن الإله .

وتغالى بعض الأساطير الشعبية فى قدر هذا الابن المصطفى فتجعل منه إلهاً عظيماً يتغذى على الأرواح السماوية فيفطر بكبارها ، ويتغذى بأواسطها ، ويتعشى بصغارها .

أما الشيوخ والعجائز فيجعلهم لوقود قدوره التي يطهى فيها طعامه (٦٢).
وتحدثنا بعض البرديات عن ألوان النعيم ، التي يحظى بها سكان
العالم السماوي حيث أطيب الأطعمة والمشروبات وأفخم الثياب .
وقد تطورت هذه الأساطير لتحمل بين ثنائياها أرواح العامة الذين
صبروا على المكروه ، وظلوا مؤمنين بالآلهة وملتزمين بمكارم
الأخلاق فجعلتهم جميعاً يتحدثون بأوزوريس وذلك بعد احتفاء " رع "
بوفادتهم إلى عالم السماء وإذلال أعدائهم الذين سكنوا العالم السفلى ثم
بعثهم ثانية إلى الحياة فى صور أبنائهم وأحفادهم شأن أوزيريس الذى
بعث ثانية وأصبح إلهاً خالداً ، وشأن حورس ابنه الذى قهر أعدائه
ولا يعرف على وجه الدقة متى ظهرت هذه الأساطير التى جعلت من
أوزيريس أباً لكل الأبرار والأتقياء .

أما العالم السفلى فقد اختلفت حول تصويره الأساطير فوصفته
بعضها بأنه عالم الموتى أو عالم الغرب الذى لا تجوبه الشمس إلا
ليلاً . ووصفته بعض الأساطير الأخرى بأنه مستقر الأرواح ، التى
اقتربت الذنوب والآثام فى حياتها تلك التى تنتظر الفصل فى قضايها
المعروضة على المحكمة الأخروية .

ويفسر هذا الاعتقاد ما جاء فى كتاب الموتى من تعاويذ سحرية
وأقوال تتلى أثناء تجهيز الميت للدفن . وكذا فى الطقوس الجنائزية
ظناً من أصحابها بأنها تحول بين الميت وبين لدغ ثعابين القبر ،
وتعين فاهه على التحدث عند سؤاله ، وتحافظ على قلبه من العطب ،
أو من الوحوش الضارية وتحمى جسده من التلف والتحلل ، وتهدى
أعينه إلى موضع مذبح الإله حتى لا يقع فيه فيدفعه جوعه وظمأه إلى
التغذى على برازه وبوله . فهناك أساطير شعبية تصور حياة سكان
هذا العالم على أنها هرج ومرج تنقمص فيها الأرواح ما يتناسب مع
غرائزها من أجساد حيات أو الصقور أو زهرة اللوتس أو التماسيح
أو الإله بتاح أو أشباح وأطياف تجوب الأرض فى النهار وتعود إلى
عالم الموتى المظلم فى الليل (٦٣).

وتقدم المعتقدات المصرية إجابة عن السؤال المطروح :- من
الذى يحدد مصير هذه الأرواح ؟ وذلك بحديثها عن المحكمة
الأخروية تلك التى شغلت قدراً كبيراً من الأساطير الخاصة بالموت

والبعث والعالم الآخر .

فتصف لنا المحكمة التى يتم فيها محاسبة الميت ببهو كبير منقوش على سقفه لهب النيران وعلامات الحق ، ويجلس أوزيريس ويعاونه اثنان وأربعون قاضياً بالإضافة إلى أنوبيس حارس الجبانات ، وأبناء حورس ، وأكل الموتى الذى يجمع فى صورته بين فم التمساح وبطن الأسد ومؤخرة فرس النهر . وفى مقدمة البهو يوضع ميزان عظيم توزن عليه أفعال الميت . ويقوم حورس بنزع قلب الميت ووضعه فى إحدى كفتى ميزان الصدق ، الذى يوجد على كفته الثانية ريشة نعام ، أو تمثال جالس لإلهة الصدق " ماعت " وعلى رأسها ريشة نعام . ويقف الإله أنوبيس لمراقبة كفتى الميزان ويقوم الإله تحوت بتسجيل نتائج وزن قلب الميت فى مقابل الصدق وكلما كان القلب ثقيلاً كان يعنى ذلك كثرة ذنوبه وفى حالة تساوى الكفتين فى الوزن يبرأ الميت ويصبح صادق الصوت مثل أوزيريس ويستحق السعادة الأبدية ، وفى حالة كذبه يقوم الوحش بالتهامه * . ولم تحدد الأساطير الفترة الزمنية التى تقام فيها هذه المحكمة هل عقب الوفاة مباشرة أم قبيل البعث (٦٤) ؟

التقمص

لا يمكننا اعتبار فكرة التقمص المصرية البذور الأولى لفكرة التناسخ الهندوسية التى تعتقد تجسد روح الميت فى أبدان حيوانات أو حشرات أو جمادات فى دورات حيوانية يفرضها عليها قانون الكارما - الذى سوف نتحدث عنه بشئ من التفصيل فى الفصول التالية - .

وقد تناول المصريون موضوع مصير الروح بعد الموت وأكدوا خلود الروح وعودتها إلى البدن ثانية لتحيا حياة جديدة بعد فترة من الزمن قدرت بثلاثة آلاف عام تقريباً أثناء هذه الفترة تظل الروح سائحة طلباً للعلم بين العوالم المختلفة (عالم الحيوان والملائكة والجن

* قارن بين ما جاء فى الأساطير المصرية حول العالم الأخرى والبعث والحساب وبين ما جاءت به الأديان السماوية حول هذه الأمور . ولاحظ اختلاف فكرة المصريين عن الخلود والحساب والعدالة الإلهية وبين فكرة الكارما الهندية .

والعفاريت) متقمصة أشكال عدة دون أن تنقص أى جزء من خصائصها كروح إنسانية وتظل على هذه الحالة حتى يحين موعد التقائها بجسدها السابق لتبدأ معه دورة حياة جديدة (٦٥) + (١٠٥) .

السحر والتنبؤ والعرافة

لقد تبوأَت التعاويذ السحرية مكانة رفيعة فى المعتقدات المصرية وذلك لارتباطها الوثيق بكل أروقة الديانة المصرية ابتداء من الميلاد وحتى الوفاة ومروراً بالزرع والبيع وشتى أمور الحياة فنجد على سبيل المثال إرتباطها بعقيدة الخلود ويتمثل ذلك فى تلك التعاويذ المكتوبة التى تتلى فى الاحتفالات الجنائزية وتستهدف المحافظة على وجود ورفاهية الميت بالقوى السحرية لها وتوضع فى تناول جثمان الميت ليسهل عليه تناولها عند الحاجة إليها . وكتب بعضها على جدران التوابيت ومنذ الدولة الحديثة أصبحت تكتب على أوراق البردى وتودع مع جسد الميت ومن شذراتها تكون كتاب الموتى وكان الهدف من ذلك حماية المتوفى من الجوع والعطش فى العالم الآخر ، والقدرة على التقمص فى مختلف الأشكال الحيوانية ، وتمكينه من الخروج إلى الضوء فى ظلمة المقبرة ، وكذا جلب السعادة فى العالم الآخر . وكانت فى بداية الأمر حكراً على الملوك وأضحت بعد ذلك مشاعاً للجميع . وللتعاويذ فضل فى التخفيف عن الميت فى المحكمة الأخروية ، وتعمل كذلك على إعفائه من الأعمال اليدوية الشاقة التى يقوم بها فى العالم الآخر (٦٦)+(١٠١).

وقد ظهر السحر فى سذاجته الأولى مستتبهاً من بعض الأدعية المفترضة قبول الإله لها فأصبحت مع الوقت الكلمات التى تسير الأقدار وتمنع حدوث المكاره . وقد طور الكهنة هذا الاعتقاد ولا سيما بعد إقناعهم للعامة بوجود لغة خاصة وكلمات محببة لدى كل إله على حدى . ويربط بعض المؤرخين بين تعدد المعبودات المصرية وتنوعها ، وبين أشكال الرقى والتعاويذ . إذ كان الكاهن يخترع بعض الشخصيات المقدسة فى حكاياته باعتبارها القوة التى تشفى أو تجلب الخير أو تحمى من الأشباح وأطلق عليها أسماء مختلفة وصفات متباينة حتى أضحت معبودات بمرور الزمن (٦٧) .

وقد لحق بمعتقد السحر العديد من الطقوس لأدائها منها التطهر بماء النيل وغسل الفم بالنطرون والتطيب بنوعين معينين من الزيوت العطرة والتبخر ولبس نعلين من الجلد الأبيض ورسم علامة الحق بمداد أخضر على اللسان والجلوس وسط دائرة مرسومة عليها امرأة وصورة إحدى الآلهة وثعبان منتصب على ذيله ، وغير ذلك من الأمور السرية ثم يقوم الكاهن بتلاوة بعض الأدعية والأناشيد .

أما عن التنبؤ والعرافة فلا يُعرف على وجه الدقة متى ظهرت هذه العقيدة في الديانة المصرية غير أن المؤرخون يؤكدون أنها قد ازدهرت في الدولة الحديثة حيث التقرب إلى تماثيل الآلهة للتعبد والتحنث حتى تجيب السائل عن سؤاله أو تلبي له مطلبه أو تلهمه السبيل إلى بغيته . وسؤال الآلهة كان مكفولا لجميع المصريين في الأعياد والاحتفالات العامة . أما الملك وبعض الكهنة فيمكنهم الدخول على تمثال الإله في قدس الأقداس والتحاور معه كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

وكان المصريون يستفتون تمثال الإله في قضاياهم الشخصية والعامة ، وكان الحاكم يستفتيه في أمور الحرب وتعيين حكام الأقاليم والموظفين . وكانت تؤخذ الفتوى شفاهة أو مكتوبة :- ففي الحالة الأولى يقوم الكاهن الأكبر بالحديث بلسان الإله أما في الحالة الثانية فتبدو في ميل تمثال الإله الذي يحمله الكاهن ناحية كلمة نعم أو لا المكتوبة على ورقة الفتوى (٦٨).

القدر

يرد القدر الإنسانى في العقيدة المصرية القديمة إلى القوى الإلهية وقد صورته بعض الأساطير المتأخرة في صورة الإله " شاي " إله المصير والآلهة " إرنوتت " إلهة الحظ وذلك منذ الدولة الحديثة أما المشيئة الإلهية فكانت ترتبط دوماً بأقوى المعبودات في الأحقاب التاريخية المختلفة فقد وسم كل من " آمون " و " بتاح " و " خنوم " بأنهم آلهة القدر .

وقد اعتقد المصريون بأن الإنسان يشارك في صنع قدره ، وأنه ليس مجبراً إلى حد سلب إرادته ، وتقيد قدرته في الاختيار بين الأفعال وذلك لأن الحرية عندهم هي التي تجعل للحياة قيمة ، وتفسر وجود الدين باعتباره المرشد والمعين لصحة الاختيار ، والمبرر

الأوحد للمحكمة الأخروية التى تقضى بالثواب والعقاب تبعاً لميزان الأعمال . ورغم ذلك فكان المصريون مؤمنين باللفط الإلهى . أى تدخل الإله برحمته فى تغيير حظ الإنسان الذى كتبته عليه الأقدار وذلك بموجب أفعاله الخيرة واجتنابه الآثام ودعاء والديه (٦٩) . ومن ثم يمارس الإنسان أفعاله من خلال رضا الآلهة وموافقتها >> فالبشر يقترحون الأفعال أما الإله فيرفضها << >> الإنسان ينطق بالكلمة أما الأمر فللرب << .

الخلق وأصل العالم

لقد قدم الفكر الدينى المصرى ثلاث نظريات فى خلق العالم هى نظرية الأشمونيين وهليوبوليس ومنف . فتد الأولى أصل العالم إلى قوة الإله " نون " وقد اختلف المفسرون حول تحديد ماهيتها فهى المياه الأزلية أو القوة المطلقة للإله الكامنة فى مرحلة اللاوجود وكانت تتسم هذه القوى بأربع صفات هى العمق المطلق ، واللانهاية ، والظلمة الحالكة ، وعدم الوعى . أما كهنة هليوبوليس فردوا نشأة الكون وعلة الخلق إلى الإله "أتوم" الذى أوجد ذاته من ذاته ثم تقل من كل أشكال المخلوقات زوجين ثم تناسلت هذه الأزواج فظهر البشر والحيوانات والنباتات أما كهنة منف فقد ذهبوا إلى أن الآلهة والبشر قد خلقوا بإرادة الإله " بتاح " وبموجب أمر منه خلق تاسوع الآلهة والأرواح الفعالة ، ومن كلمته خلق الإنسان وسائر المخلوقات . والجدير بالذكر أن معظم الأساطير المصرية ترد أصل الإنسان إلى الطين أو الصلصال - ويبدو ذلك جلياً فى تلك الأساطير التى تتحدث عن الإله " خنوم " الذى خلق الآلهة والبشر والمخلوقات على عجلته الفخارية من طين * .

* لاحظ أوجه الشبه بين تصور الأشمونيين لأصل العالم والهيولى عند أرسطو . وقارن بين تصور كهنة هليوبوليس لانبثاق الكائنات عن الإله وبين نظرية الفيض عند أفلوطين . ووازن بين تفسير كهنة منف للخلق وعلة وجود العالم وبين ما أورده الكتب السماوية فى هذه القضية . وكذا بين أحاديث الأساطير عن أصل الإنسان وبين ما جاء فى القرآن الكريم فى هذا الشأن .

الطهارة

يعتقد المصريون أن غسل الأيدي بالماء كل صباح وقبل الإقبال على الطعام سنة إلهية مستمدة من العديد من الأساطير فالإله " رع " يشرق كل صباح بعد اغتساله في حقول الحياة بيدي إلهة الماء البارد " كيحووت " وأن الإله أوزيريس بعث بعد تعميده من قبل ابنه " حورس " والإله " تحوت " وأن مياه النيل تتدفق من فوق مقبرة أوزيريس .

وترتبط عقيدة التطهر بعقيدة الخدمة اليومية التي تبدأ باغتسال الكاهن ثم إشعاله البخور وذلك قبل الركوع أمام تمثال الإله في قدس الأقداس . وتقديم القرابين له (غسل وبخور) ، وإنشاد الأناشيد ، ثم يدور من حوله أربع مرات ، ويقدم له تمثالا صغيرا لإلهة الصدق "ماعت" ، وأخيرا يقوم بمسحه بالزيت المقدس ويغسله بالماء من أربعة أواني ، ويظهر فمه بثلاثة أنواع مختلفة من ملح النترون ، ثم يقوم بتلوين رموشه ، وإلباسه الملابس المرصعة بالجواهر والحلى ويضع على رأسه غطاء الرأس وتقليده الرموز الملكية ، ثم يقدم له الطعام وهو ثور وغزالان وأوزة نيلية وذلك بوضعهم في المحرقة المقدسة التي تحيل لحومها وعظامها إلى أبخرة ودخان تتغذى عليها أرواح الآلهة * .

وكان الملك يقوم بهذه الأعمال باعتباره الكاهن الأعظم الساهر على خدمة الإله . وذلك بعد اغتساله بالماء بأيدي كاهنين يتقمصان شخصيتي "حورت" و"تحوت" أو "حورس" و"ست" ، وتبخيره وتطهير فمه بملح النترون . وهذا التطهير يجري أيضا على المتوفى خلال عملية التحنيط (٧١) + (١٠٤) .

الإيمان

لقد ارتبط مفهوم التقوى والإيمان في الديانة المصرية بطاعة الكهنة وأداء الطقوس وتقديم القرابين المختلفة لصور المعبودات المتباعدة في المواسم والأعياد . وبجانب هذا المفهوم كان هناك مفهوم آخر أكثر عمقا ونقاء من سابقه ألا وهو الإيمان الفردي أو ما يمكننا

* لاحظ عنصر النار في تقديم القرابين فهو يتشابه إلى حد كبير مع الطقوس الهندوسية والزرادشتية والكونفوشية .

أن نطلق عليه مناجاة الإله أو التحنُّث .
ويبدو ذلك فى بعض البرديات التى تحتوى على العديد من
الأدعية والابتهالات . التى كان يرتلها بعض الورعيين من العوام
والخواص . وكانت تتاجى هذه النصوص الإله باعتباره الأب،
والراعى، والهادي، والرازق، وحامى الضعفاء، والمنقذ من الظلم،
ومغنى الفقراء، وغافر الذنوب، وشافي المرضى، والحبیب الذى يلبى
دعوة من يناديه (٧٢).

وهذه نماذج توضح طبيعة هذه الابتهالات :- >> إني أحبك يا
إلهي وحبك راسخ فى قلبي وكلماتك تبهجني وتشعرنى بالسعادة ، أنت
مخلصي ومنقذي يوم الحساب << >> يا إلهي أشكو إليك حالي
وأرفع إليك مظلمتي فأنت ناصر الضعفاء ومغنى الفقراء << >> جاء
السرور إلى بابي منذ أن تجاوزته الإله افرحوا يا أهل ناحيتي بقدومه
فها هو سيدي الحبيب الذي خلقني والذي يشاق إليه قلبي ليمنحني من
عطفه وقوته وقدرته ما أفقر إليه * <<.

الأعياد

ترتبط الأعياد الدينية عند المصريين بالقصص الأسطوري الذى
خطه كهنة العالمين الأرضي السماوي الحافلين بأرواح الآلهة والنجوم
والأقمار ومراكب الشمس وغير ذلك من الكائنات الروحية السابحة
فى السماء من الشرق إلى الغرب وكان لهذه الأعياد مواقيت ثابتة
فمنها الموسمي والشهري والسنوي والمرتبط بحياة الملوك وأعياد
ميلاد الآلهة (٧٣). وأشهر هذه الأعياد :-

- عيد " آخت " وهو عيد فصل الفيضان الذى يبدأ من ١٩ يوليو
وينتهي فى ١٥ نوفمبر وهو ما يقابل فصل الخريف تقريباً .
- عيد " أيام النسيء الخمسة " وهو الاحتفال بالأيام الخمسة الزائدة
عن شهور السنة (٣٠ × ١٢) **

* لاحظ أوجه الشبه بين هذه الإبهالات وأدعية الرهبان والزهاد فى الديانات
السماوية .

** ما زال الصابئة المندائيون يحتفلون بهذا العيد فى العراق .

- أما أعياد الملوك فكانت ثلاثة أعياد يوم ميلاده ، ويوم تتويجه ، ويوم مرور ثلاثين عاماً على تتويجه .
وبعد الأخير من الاحتفالات البدائية المرتبطة بالقصاص الخرافية (٧٤).
ومن أطرف الأعياد المصرية أعياد الآلهة المحلية والرسمية فكانت أشبه بالمهرجانات والموالد فى أيامنا هذه وكان بعضها يستمر قرابة الشهر . إذ كان يُحمل الإله على أكتاف وأعناق الكهنة ويطوفون به طرقات المدينة ويستقبله الملك ومن خلفه حاشيته ثم رعيته مصطفىين ومرتدين أزهى الثياب وتقوم المغنيات والعازفات والراقصات بأداء الطقوس الخاصة لهذا الحفل .
والجدير بالذكر أن معظم أعياد المصريين كانت مرتبطة بمأكولات وملابس خاصة (٧٥) .

التنبؤ والتطير

كان المصري القديم مولع باستشراف الغيب ومن مظاهر ذلك حرصه على تفسير الأحلام ووضع قائمة للأشياء والحيوانات المجلبة للحظ ، والحافضة من الحسد وأخرى جالبة للنحس وتحديد الأيام الميمونة والتعسة ويعنى ذلك أنهم كانوا يتشائمون ويتفائلون تبعاً لهذه التكهّنات .
وقد وضع الكهنة مؤلفات فى تفسير الأحلام وما زال بعضها موجوداً ويلقى رواجاً واستحساناً لا فى مصر وحدها بل وفى أوروبا وأمريكا أيضاً .

وقد ازدهرت هذه المؤلفات فى العهد اليونانى فجاء فيها :-
فمن يرى نفسه ميتاً يكون طويل العمر ، ومن تسقط أسنانه يموت أحد أقاربه ، ومن يرى نفسه فى المرأة يتزوج زوجة ثانية ، وأكل الخيار يعنى الشجار ، وأكل التين والعنب يعنى المرض
أما عن أيام النحس والحظ فقد أعد لها المصريون قوائماً فعلى سبيل المثال :-اليوم الثانى عشر من أول شهور الشتاء من أيام النحس التى يجب على الإنسان ألا يرى فاراً فيها . أما اليوم الأول من الشهر الرابع للشتاء فهو يوم طيب وتتحقق فيه الآمال والغايات (٧٦) + (١٠٤) .

الأنبياء والكهنة والوحي

لقد وحدث الديانة المصرية بين مفهومي النبي والكاهن باعتبار أن كليهما المنوط بمخاطبة الإله والمصطفى من قبله لتبليغ أوامره ورغباته لعباده وهو دون غيره الذى يستطيع التماهى معه واستفتائه فى بعض الأمور .

وقد حظى الكهنة بمكانة رفيعة بين المصريين ويبدو ذلك فى الألقاب التى كانت تطلق عليهم (صاحب البصيرة ، المشرف الأعظم ، خادم الإله ، المتطهر) .

وكان الفرعون فى بداية الأمر يقوم بتعيينهم باعتباره الكاهن الأعظم وابن الإله ثم أصبحت وظيفة الكاهن إرثاً يتوارثه أبناء وأحفاد الكهنة وكان عملهم فى بداية الأمر قاصراً على حمل تماثيل الآلهة فى الأعياد والاحتفالات الرسمية ، ثم تقديم القرابين لتماثيل الآلهة حيث مقامهم فى قدس الأقداس والمعابد الكبرى ، والإشراف على أداء الطقوس العقدية المختلفة ، ثم تطورت مهامهم إلى التماهى مع الإله واستفتائه وسؤاله البركة والعفو والنصر ، وعمل التمام والتعاويد السحرية وجمع الهبات للإنفاق منها على المعابد . حتى أضحي لهم ثقل سياسى يهدد الفرعون نفسه (٧٧) .

ومن سمات الكهنة التى تميزه عن غيرهم خلق الرأس تماماً والذى يعد أحد مظاهر التطهر منذ الدولة الحديثة فصاعداً ، وارتداء ملابس تغطى معظم أجزاء الجسد ، والامتناع عن تناول بعض الأطعمة ومنها السمك .

أما الكاهنات فكن يقمن بأعمال الرقص والغناء وعزف الموسيقى فى المعبد ، وفى الاحتفالات الدينية . وكان ينظر إلى الكاهنة الكبرى باعتبارها زوجة الإله وكانت تتقمص الإلهة " حتحور " .

وكانت هناك طبقة ثالثة تدعى المطهرين نسبة إلى تطهرهم بالماء الذى كان يصب عليهم قبيل القيام بعملهم فى المعبد وتنقسم هذه الفرقة إلى أربع شعب تسهر على خدمة الإله بالتناوب طيلة العام . وكان الفرعون يقوم بتعيينهم فى أغلب الأحيان (٧٨)+(١٠١) .

ولا يعرف للكهنة نظام يحدد درجاتهم وطبقاتهم إلا فى الدولة الحديثة حيث الإرهاصات الأولى للمؤسسة الكهنوتية التى قسمت الكهنة

إلى سبع طبقات ينقسم كل منها إلى أربع درجات تبعا لطبيعة الخدمة التي يقوم بها الكائن للإله من جهة ومدى علمه بأسرار الآلهة وأصولها والقصص التي نسجت من حولها من جهة أخرى . وعلى رأسهم الكاهن الأكبر ثم يليه كهنة القرايين والمطهرون والمرتلون والراقصون ثم القراء والكتاب ثم الأحرار ومفسرو الأحلام ثم الإداريون . ولم يكن للرهبان المصريين معابداً تعزلهم عن المجتمع بل كانوا يمارسون الكهانة كوظيفة داخل المعابد وفي بيت الحياة حيث الكتابات المقدسة والعلوم السرية التي تمكنهم من رعاية حقول العلم الإلهي المقدس . وقد نيط بالكهنة الكتاب والقراء مهمة تدوين أهم الأحداث التاريخية والاكتشافات العلمية في سجلات وحفظها في مكتبات المعابد (٧٩).

* * *

المجترون والملحدون

لقد حال تدين المصريين وإيمانهم الراسخ بالآلوهية بينهم وبين ظهور حركات إلحادية بمعنى إنكار الربوبية وجحود القيم الدينية وعلى ذلك ينبغي علينا أن ننظر إلى كل الحركات الإلحادية التي ظهرت في الديانة المصرية على أنها حركات إصلاحية ضد الفكر الديني السائد . وسوف نستعرض في عجالة أهم هذه الحركات :-

المرتابون

يبدو أن حركة الارتياب كانت متفشية في طبقة المثقفين وذلك واضح في كتابات الحكماء من أمثال بتاح حوتب الذي كان ينظر إلى أساطير الكهنة على أنها مجرد حكايات لتسلية العوام وتقريب صورة الإله وصفاته لأذهانهم . ذلك فضلاً عن أناشيد الشمس التي عرضنا جانباً منها في الصفحات السالفة التي تعبر عن عزوف أصحابها عن كل صيغ التجسيد والتعدد (٨٠).

بيد أن المثير للدهشة وجود سمات الارتياب والتشكك بين العوام ولاسيما بين أولئك الفقراء الذين لا هم لهم إلا العمل والكد من أجل

إسعاد ذوى السلطان نظير لقيمات معدودة لتلبية صرخات البطون الجائعة فما هو أحدهم يتساعل متهمًا >> أين البعث المنتظر فما تزال أجسامنا تذهب وأخرى تشغل أمكنتها ، منذ عهد الأجداد الأولين، ومازال الملوك راقدين فى أهرامهم لم يصعدوا للسماء فلم يتحولوا إلى آلهة لم يعد أحد من الذين ذهبوا إلى العالم الآخر لينبئنا عما يجرى هناك ويخبرنا عن حاجة سكان هذا العالم ومصير القرايين التى ندفعها إليهم حتى تطمئن قلوبنا إلى اللحظة التى سنذهب فيها إلى حيث ذهبوا وما دمنا نجهل كل شئ فعلينا أن نسير وفقاً لرغباتنا التى نعرفها فهى وحدها التى تبعث فىنا السرور << ويتساعل من جديد >> هل أوزيريس يسمع الؤلولة ، نحيب النساء وتضرعات أهل الميت للآله كى يرحمه ، وهل تستجيب لها محكمة القبر * كلا فلا أحد يستمتع بثروته بعد فناءه، ولا أحد يخرج من تحت الثرى <<

ومن المتشككين ذلك الحكيم الذى لقب نفسه بكاره البشر الذى ينسج قصص أسطوري يتهم فيه على المعتقدات والشعائر والطقوس الجنائزية وينقض فكرة محكمة القبر ومصير الروح بعد الموت وذلك رداً على تلك الأساطير التى تفنن الكهنة فى اختلاقها فتخيل هذا المتشكك أنه مات ولم يجد من يقيم له الشعائر الجنائزية ويوصله للقبر. فراح يتحاور مع روحه التى انفصلت عنه بهذا الشأن واقترح عليها أن يحرق بدنه بدلاً من دفنه غير أنه تذكر أن مثل ذلك الصنيع سوف يحرمه من المثل أمام محكمة القبر . ثم اقترح عليها أن تحمله وتدفنه بأى مقبرة من مقابر العظماء لينعم بالموائد المبسوطة أمام جثة صاحبها أو يأخذ من قربان ذلك العظيم ليطعم الفقراء الجياع من الأحياء فذكرته بوجود روح صاحب المقبرة المتقمصة بجسد الثعبان الذى يقوم بحراسة متاع الميت وعدته وعتاده فاقترح عليها يائساً أن يبعث فى الحياة ثانية ليشقى من جديد ما دام الطريق لعالم الموتى أكثر شقاءً (٨١)+(١٠٣).

ويغلب على هذا الاتجاه الإرتيابى الشكل اللاأدرى للإلحاد ويقرب كذلك من الشكل الربوبى الذى يؤمن بوجود إله مع الكفر بالعقائد

* قارن بين محكمة القبر عند المصريين وبين ما كتبت عن عذاب القبر فى الفكر الإسلامى .

والشرائع والمعارف الغيبية .

هرطقة إخناتون

من الخطأ الاعتقاد بأن غضبة الكهنة على إخناتون ووسمه إياه بالمهرطق ، ومجرم آخت آتون (قرص الشمس) إلى دعوته للتوحيد وعبادة الإله المجرد وذلك لأن هذه الدعوة طالما أكد عليها الحكماء وبعض رجالات الحكم بل وبعض رجال من الكهنة أنفسهم - كما بينا سلفاً - وذلك منذ عهد أمنوفيس الثالث (١٤١١ - ١٣٧٥ ق.م) حيث ظهور جماعات ترغب عن عبادة صور الإله المجسدة في التماثيل والصور والنقوش ، ونزعت إلى عبادة صورة رع المجردة (ضوء الشمس) دون أى إضافات (٨٢) .

بل إن العلة الحقيقية لتأمر الكهنة على إخناتون ترجع إلى اضطهاده لديانة آمون ، التى يمثلها الكهنة . ولا يعنى ذلك سوى ضياع هيبتهم وسلب أموالهم ، وزوال سلطانهم . فلم تكن القضية إذن عبادة " آمون " أو " رع " أو " آتون " فكلها مسميات لحقيقة واحدة ، طالما أكدت عليها الأساطير ، وصورة إله واحد متعدد الأسماء والصفات (٨٣) .

فقد نادى إخناتون بعبادة إله واحد مجرد منزّه عن التجسيد والتشبيه ، متعال عن دونه من سائر الموجودات ، كامل جميل قديم ليس له مثل أو شريك . وقد صورته باعتباره جوهرًا سماويًا فى شكل قرص الشمس ، تخرج منه الأشعة منتهية بأيدى بشرية ، تحمل كل يد منها العلامة الهيروغليفية الدالة على الحياة وهى تكاد تلامس أنف الملك أو أعضاء عائلته مكونة من زوجته الملكة نفرтитى وبناته الأميرات (٨٤) .

ومن أشهر صفاته التى نعت به (الإله الطيب الذى يحب الحق سيد السماء والأرض آتون الكبير الحى الذى ينير القطرين) (الحى رع حور أختى رب الأفقين الذى يبتهج الأفق باسمه شو الذى هو آتون) . وقد شيد لعبادة هذا الإله مدينة تقع بين مدينتى طيبة ومنف ، وهى تل العمارنة وأطلق عليها إخناتون أى (أفق آتون) وقام بمحو اسم آمون من على المعابد والآثار وأطلق على نفسه لقب إخناتون (أى المفيد أو المرضى لآتون) بدلا من إمحوتب الذى كان يعنى آمون راضى ، وأقام الهياكل المختلفة لمعبوده الجديد ، وأزال صيغة الجمع لكلمة إله من النقوش التى نحتت على المعابد ، وبذل اسم زوجته من

نفرتيتى إلى " نفر نفرو آتون " (أى جميل هو بهاء آتون) ، وأنكر رحلة الشمس من الشرق إلى الغرب ولم يتحدث عن مستقرها ليلاً وتجاهل المراسم الجنائزية ومحكمة الموت والأساطير التى تصور العالم السفلى ومملكة أوزيريس وفى العام العاشر من حكمه أسقط اسم حورس من اسم الإله الجديد وأصبح (رع الحى حاكم الأفقين متهللاً فى الأفق فى اسمه رع الأب الذى تجلى مرة أخرى كآتون) وبذلك اختفت الرابطة الأخيرة التى كانت تصل الديانة الجديدة مع الديانة القديمة كما أفصح بأن كل التعاليم التى يأتى بها ما هى إلا إلهامات ووحى يأتية من أبيه آتون (٨٥) .

وقد اختلف المؤرخون حول تقييم دعوة إخناتون فاتهمها البعض بأن إخناتون لم يستطع تخليصها من المسحة الوثنية أو شكل الثالوث الإلهي المتمثل فى " آتون المجرد " و " آتون المعبود " الذى لقب (بآتون الحى فى بيت آتون فى تل العمارنة) وأخيراً ابن آتون الذى يمثله إخناتون نفسه بوصفه الابن الأبدي للشمس (٨٦).

وإذا ما نظرنا إلى هذه الأقانيم الثلاث فسوف نجد أنها متناقضة مع صلب عقيدة التوحيد التى دعى إليها إخناتون الأمر الذى يدفعنا إلى رفض هذا التفسير فلو كان إخناتون قد نصب نفسه إله وجعل لمدينته إلهاً محلياً على غرار آلهة المدن السابقة عليه ما تعرض لاضطهاد الكهنة وغضبة العوام فكان من اليسير عليه الاعتراف بإلهه المحلى وتقديم القرابين له بجانب الآلهة المعبودة وعبادته هو أيضاً باعتباره الفرعون الملك شأن أسلافه . الأمر الذى يهدم دعوته من أساسها والأصوب عندنا هو تأويل صفة ابن آتون على أنها (ذلك الذى يحى من الحق وذلك الذى يعرف اسم آتون) وهى إحدى الصفات التى وصف بها إخناتون نفسه . أما إطلاق اسم آتون على مدينة تل العمارنة فالقصد منها أن تكون رمزاً للمملكة ذلك الإله المطلق الذى لا يحد ملكه حدود على الأرض .

وتصبح بذلك حركة إخناتون حركة إصلاحية لا نصيب للإلحاد فيها إلا ضد الفكر الديني السائد (٨٧) *

*قارن بين الأقانيم الثلاثة لآتون وبين أقانيم الثالوث المقدس فى المسيحية .

تعقيب

إن اعتقاد بعض المؤرخين بوجود رسل للقوي العليا يبلغون أخبارها للبشر اعتقاد فاسد وذلك لأن الله وحده هو المتفرد في اصطفاء الرسل وتكليفهم بإبلاغ أوامره ونواهيه للبشر . ولا اعتداد بما قاله البعض بأن ثمة رسل وأنبياء لغير الله من الشياطين والقوي الغيبية الأخرى لأن الله قد عصم رسله من هذه القوي الأخرى . قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء الآية ٢٥) .

إذا كان العلم لا يقطع بوجود أنبياء ورسالات لقدماء المصريين من عدمه ، فإن القرآن لا ينفي بل يؤكد وجود أنبياء ومرسلين لسائر الأمم الغابرة علي وجه العموم قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر الآية ٢٤) .

فأسلوب الحصر في الآية يفيد قطعاً بوجود أنبياء ومرسلين لدي كافة الأمم حتى لا يبقى للناس علي الله حجة بعد الرسل.

وأضف إلي ذلك أن الله أوجب علينا الإيمان بكل رسله دون حصر أو تحديد إلا ما ورد ذكرهم في القرآن . وقد قرر علماء العقيدة أن الإيمان بالأنبياء والمرسلين يأتي علي وجه التفصيل فيما ورد ذكرهم ويأتي علي وجه الإجمال فيما لم يرد فيهم نص مفصل .

قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْنَاهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (النساء الآية ١٦٤) .

وعلي الرغم من إيمان المصريين بفكرة الوجدانية واتخاذهم من التجسيد والتعدد مظهراً لعبادة إله واحد لا يمكننا القطع بسلامة معتقدتهم واتفاقه مع روح الإسلام بخاصة ن والديانات السماوية بعمامة . وذلك لأن التجسيد والتعدد يعد مظهراً من مظاهر الشرك وإن كمن وراءه مبدأ الإله الواحد المجرد .

هذا المظهر الذي جاء كل الرسل من اجل نفيه وإبطاله قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف الآية ٥٩) .

بيد أن أمانة البحث قد دفعتنا إلى ذكر آراء الباحثين كما هي حيال هذه القضية دون تدخل منا . ونريد من ذلك إثبات أن فكرة التوحيد كانت موجودة جنباً إلى جنب مع فكرة التجسيد والتعدد التي تعد في رأينا مجرد انحرافاً عن عقيدة صحيحة سابقة .
وهذا يتفق مع ما قررناه سلفاً من جواز وجود أنبياء ورسُل في الأمم الغابرة .

مراجع الفصل الثاني

مرتبة حسب ترتيب الورود

- (١) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، محمد أنور شكري ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٤ ، ٥ .
- (٢) محمد أبو زهرة : مقارنات الأديان ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٦ .
- (٣) يارو سلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ترجمة أحمد قدرى ، مراجعة محمود ماهر طه دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٦٩ ، ٧٤ .
- (٤) بيبير مونتيه : الحياة اليومية فى مصر ، ترجمة عزيز مرقس منصور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٤١ ، ٦٠ .
- (٥) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص ١ : ١١ .
- (٦) نفس المرجع ، ص ٤٥ : ٤٧ .
- (٧) سليم حسن : مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، الجزء الأول ، ص ٢١٧ .
- (٨) محمد أبو زهرة : مقارنات الأديان ، ص ١٤ .
- (٩) جيمس هنرى برستد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسي ، ترجمة حسن كمال ، مراجعة محمد حسنين العمراوى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة : ١٩٩٩ ، ص ٦٨ .
- (١٠) سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء الأول ، ص ٢٣٨ : ٢٤٠ .
- (١١) نفس المرجع ، ص ١٤٦ : ١٥٠ .
- (١٢) نفس المرجع ، ص ٢٣١ : ٢٣٦ .
- (١٣) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص ٥٦ : ٥٨ .
- (١٤) ت . ج . هـ جيمز : كنوز الفراعنة ، ترجمة أحمد زهير أمين ، مراجعة محمود ماهر طاهر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ١٩٠ : ١٩٢ .
- (١٥) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ٦٦ : ٧٠ .
- (١٦) نفس المرجع ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .
- (١٧) سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٤ ، ص ٦٥ : ٦٧ .
- (١٨) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ : ٣٢٢ .
- (١٩) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص ٨٥ : ٨٧ .
- (٢٠) أدولف إرمان ، ديانة مصر القديمة ، ص ١٤٩ : ١٥٣ .

- (٢١) سليم حسن: مصر القديمة، ج٦، ص٥٠٣، ٤٧٦، ٤٧٥: ٥٠٦.
- (٢٢) نفس المرجع، ج٧، ص٦١٩: ٦٢٥.
- (٢٣) أمين الخولى ومحمد مصطفى زيادة، وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية: مكتبة مصر، القاهرة، ج٢، ص٢٩، ٣٠، ١٨٦.
- (٢٤) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص١٧٦: ٢٠٩.
- (٢٥) أمين الخولى، محمد مصطفى زيادة، تاريخ الحضارة المصرية، ج٢، ص٥٣٧.
- (٢٦) فرانسوا دوماس: آلهة مصر، ترجمة زكر سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٣.
- (٢٧) نفس المرجع، ص١٧: ٢٢.
- (٢٨) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ص٢٨.
- (٢٩) جيمس هنرى برستيد: تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسي، ص٦٧.
- (٣٠) جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الفتاح مكاوي، سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ١٧٣، مايو ١٩٩٣، ص٥١.
- (٣١) نفس المرجع، ص٥١.
- (٣٢) فرانسوا دوماس: آلهة مصر، ص١٣: ١٦.
- (٣٣) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ص١٤: ٢٦.
- (٣٤) نفس المرجع، ص٢٢٩، ٢٣٧.
- (٣٥) نفس المرجع، ص٢٢٤، ٢٢٧.
- (٣٦) نفس المرجع، ص٢٢٨.
- (٣٧) نفس المرجع، ص٢٢٧، ٢٣٠.
- (٣٨) نفس المرجع، ص٢٣٤.
- (٣٩) نفس المرجع، ص٦١.
- (٤٠) سليم حسن: موسوعة مصر القديمة، ج١، ص٢٥٩، ٢٥٥.
- (٤١) خزعل الماجدى: الدين المصري، سلسلة التراث الروحي للإنسان، دار الشروق، عمان، ١٩٩٩، ص١٣٩.
- (٤٢) أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة، ص٦٣: ٦٥.
- (٤٣) خزعل الماجدى، الدين المصري، ص١٣٩، ١٤٢.
- (٤٤) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ص٦١.
- (٤٥) نفس المرجع، ص٩٣: ٩٨.
- (٤٦) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ص٤٩.

- (٤٧) ت . هـ . ج جيمز ، كنوز الفراعنة ، ص ١٨٨ .
- (٤٨) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ١٠٧ .
- (٤٩) نفس المرجع ، ص ١٠٤ .
- (٥٠) فرانسوا دوماس : آلهة مصر ، ص ١١٨ ، ١١٩ .
- (٥١) نفس المرجع ، ص ١١٨ ، ١٢٠ .
- (٥٢) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص ٢٢٣ .
- (٥٣) نفس المرجع ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .
- (٥٤) نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .
- (٥٥) نفس المرجع ، ص ٢٢٩ .
- (٥٦) نفس المرجع ، ص ٢٣١ ، ٢٣٣ .
- (٥٧) نفس المرجع ، ص ٢٣٥ .
- (٥٨) نفس المرجع ، ص ٢٥٥ .
- (٥٩) نفس المرجع ، ص ٢٢٣ .
- (٦٠) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٧ .
- (٦١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٤٠ .
- (٦٢) نفس المرجع ، ص ١٠٨ ، ١٥٧ .
- (٦٣) ابن كثير : قصص الأنبياء ، دار نهر النيل ، الغربية ، ١٩٨١ ، ص ٢٩٦ : ٣٤٨ .
- (٦٤) سليم حسن ، موسوعة مصر القديمة ، ح ٩ ، ص ٤٩٢ .
- (٦٥) نفس المرجع ، ح ٩ ، ص ٤٩٢ : ٥٠٠ .
- (٦٦) ت . ح . هـ جيمز : كنوز الفراعنة ، ص ١٢٩ .
- (٦٧) عبد الحميد درويش : الفلسفة في مصر القديمة من امحوتى إلى أخناتون ، تصدير عاطف العراقى مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ١٢ : ١٤ .
- (٦٨) نفس المرجع ، ص ١٦ ، ١٧ .
- (٦٩) نفس المرجع ، ص ٢١ : ٦٤ .
- (٧٠) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .
- (٧١) عبد الحميد درويش : الفلسفة في مصر القديمة ، ص ٧٥ .
- (٧٢) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ١٨٢ .
- (٧٣) نفس المرجع ، ص ١٢٧ : ١٢٩ .
- (٧٤) سليم حسن : موسوعة مصر القديمة ، ح ٥ ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
- (٧٥) مصطفى الكيك : تناسخ الأرواح ، منشأة المعارف الإسكندرية ، ١٩٧٠ ، ص ١٤ .

- (٧٦) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة ص ١٠٧ : ١٢٩ .
- (٧٧) جعفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٥٩ .
- (٧٨) بيبير مونتيه : الحياة اليومية فى مصر ، ص ٤٤٣ : ٤٤٥ .
- (٧٩) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ص ١٣١، ١٣٠ .
- (٨٠) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٨ .
- (٨١) خزعل الماجدى : الدين المصرى ، ص ١٨٢ ، ١٨٦ .
- (٨٢) نفس المرجع ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .
- (٨٣) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ٢٣٨ ، ٢٥٢ .
- (٨٤) نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٦ .
- (٨٥) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص ١٢١ .
- (٨٦) مصطفى الكيك : تناسخ الأرواح ، ص ١٤ ، ١٥ .
- (٨٧) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ص ١١٩ : ١٢٧ .
- (٨٨) أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ٣٢٩ : ٣٣٩ .
- (٨٩) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ١٠٠ ، ١٠١ .
- (٩٠) نفس المرجع ، ص ٦٦ : ٦٨ .
- (٩١) نفس المرجع ، ص ٤٩ : ٥٤ .
- (٩٢) خزعل الماجدى ، الدين المصرى ، ص ٤٧ .
- (٩٣) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص ١٣٥ : ١٤٠ .
- (٩٤) أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ١٥٨ : ١٦٠ .
- (٩٥) خزعل الماجدى : الدين المصرى ، ص ٢٤٤ : ٢٥٥ .
- (٩٦) سليم حسن : موسوعة مصر القديمة ، ح ١ ، ص ٢٢٣ ، ٢٤٤ .
- (٩٧) أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ٣٤٨ : ٣٥٠ .
- (٩٨) ياروسلاف تشرنى ، الديانة المصرية القديمة ، ص ١٦٠ ، ١٦٤ ، ٢٣٧ .
- (٩٩) خزعل الماجدى : الدين المصرى ، ص ١٤٢ : ١٤٦ .
- (١٠٠) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، ص ٧٩ ، ٨٠ .
- (١٠١) جيمس هنرى برستيه : تطور الفقر والدين فى مصر القديمة ، ص ٢٦٧ : ٢٨١ .
- (١٠٢) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ١٢٥ ، ١٤٨ .
- (١٠٣) ياروسلاف تشرنى ، الديانة المصرية القديمة ، ص ٨٢ ، ٨٣ .
- (١٠٤) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ١٤٠ ، ١٤٣ .
- (١٠٥) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة ، ص ٨٣ ، ٨٤ .
- (١٠٦) سليم حسن ، موسوعة مصر القديمة ، ج ٩ ، ص ٤٤٠ .

الفصل الثالث

الديانة الهندوسية

النشأة والتطور

من العسير رد أصول الديانات الهندية إلى مصدر واحد أو إلى ثقافة بعينها . ويصعب كذلك تحديد الفترة الزمنية التي نشأت فيها هذه الديانات . غير أن الأبحاث الشرقية المعاصرة تؤكد وجود مؤثرات فارسية وسومرية في العقيدة الفيدية ، التي تعد الأصل العام لكل الديانات الهندية . وقد استشهد أصحابها بمواطن الشبه بين الديانات الثلاث : (الفارسية ، السومرية ، الهندية) وكذا صفات الإله وطبيعته ، وبعض طقوس وطبيعة القرابين . ولعل ما يميز الديانات الهندية عن شقيقتيها الفارسية والسومرية هو الاعتقاد بالدورات اللانهائية لحياة الأرواح ، ذلك الذي تميزت به هذه الديانات ، وهو يعد إضافة على كتاب الهندوس المقدس (الفيدا) (١) .

بينما يرد بعض الباحثين نشأة الديانة الهندوسية إلى عنصرين أساسيين . أولهما : المعتقدات والتقاليد للدرافيديين أولئك الزوج الذين سكنوا الهند قبل ٥٠٠٠ عام ق . م .

أما العنصر الثاني : فهو ثقافة الآريين * التي جمعت بين العادات والتقاليد الأوروبية والآسيوية وذلك منذ ألفين سنة قبل الميلاد . ويرد فريق ثالث الأصول العقيدة الهندوسية ولا سيما المعتقدات الخاصة

* الآرية مشتقة من لفظ آري وهو لفظ سنسكريتي ويعنى النبيل . استخدمه الهندوس لتمييز أنفسهم وغيرهم من الشعوب التي تتكلم اللغات الهندية الإيرانية ، ثم أطلق على اللغات الهندية الأوروبية الأخرى . وشاع استخدامه في الكتابات غير العلمية عن الأجناس البشرية . وقد اختلف الباحثون على موطن الآريين ونشأتهم فيردها البعض إلى منطقة إريانا فايجو بفارس المتاخمة لبحر قزوين التي ذكرت في كتب زرادشت وأنهم دخلوا الهند عام ١٥٠٠ ق . م وقد حرم الآريون الغزاة الاختلاط بالدرافيديين في بداية الأمر ليحافظوا على نقاء سلالتهم غير أن ذلك لم يدم طويلا فسرعان ما تتاسلوا وتبادلوا معارفهم وعلومهم . بينما ينزع ماسون أورسيل مدير مدرسة الدراسات العليا في باريس إلى أن الآريين كانوا يعيشون في وادي الدانوب بوسط وجنوب شرقي أوروبا وأنهم قد عبروا مضيق البوسفور بسبب قحط أصاب أراضيهم حتى وصلوا بلاد فارس واستوطنوها فترة وانطلقوا منها لغزو البنجاب بشمال غرب الهند . أما الآريون الذين أثروا البقاء في الدانوب قد انتشروا في أوروبا ومنهم السيلت والجرمان والسلاف واللاتين والهيلين .

بعالم الأرواح ووحدة الوجود الى حضارة وادي السند التي ظهرت نحو عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وذلك بمؤثرات مصرية وسومرية . ويستندون في ذلك على تشابه آثار الهندوس من أواني وأسلحة ومجوهرات وأثاثات وأختام منقوشة ودمى وبعض الأناشيد التي كانت تتلى في الطقوس الدينية ، ذلك فضلا عن التشابه الواضح بين نظرية خلود الروح عند المصريين وبينها عند الهندوس .

وتتفق معظم الدراسات على أن كتاب الفيدا لم يكتبه شخص بعينه وأنه ليس كتاب سماوياً . وترده إلى الآداب الشعبية الهندية وشعراء وحكماء الهندوس الذين ما برحوا يضيفون عليه من أشعارهم ومأثوراتهم تبعاً للثقافة التي كانوا يعيشونها في الأحقاب التاريخية المختلفة . الأمر الذي ساهم في تطور تلك الديانة وحافظ على بقائها رغم تأثرها بالثقافات التي تعاقبت عليها .

ويبدو أن تعاليم الفيدا الساذجة لم تدم طويلاً فسرعان ما أدرك ذووها أن تعاليمها في حاجة لأثواب أسطورية لتحفظها من جهة ، وتيسر تعاليمها من جهة أخرى . فظهرت العديد من الأساطير التي تصور حياة الآلهة ونشأة الكون ومصير الأرواح وقصة النار المقدسة . وفي القرن الثامن قبل الميلاد أدرك بعض الحكماء أن ديانة الفيدا في حاجة لنظام كهنوتي لتنظيم طقوسها وسن شعائرها وإقامة معابدها فظهرت طبقة البراهمة * (٢) .

وقد حاول حكماء الهندوس صون دياناتهم من العطب والبوار عقب ظهور الحركات الإلحادية المتمثلة في الديانة الجينية والبوذية - التي سوف نتناولهما بشيء من التفصيل فيما بعد - وذلك بقوانين " المانوشا سترا " في القرن الثالث قبل الميلاد وهي عبارة عن شرح للفيديات ، وتبين معالم الهندوسية ومبادئها وأسسها وتنسب إلى " مانو " المشرع ذو الشهرة الأسطورية .

وإذا ما تتبعنا تطور المعتقدات الهندوسية لا نكاد نلمح أثراً للديانتين اليهودية والمسيحية عليها . في حين يؤكد جفرى بارندر أن

* البراهمة اسم يطلق على مجموعة من الحكماء وزعموا أنهم خلقوا من فم الإله براهما ومنهم المعلم والكاهن والقاضي ، وهم ملجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم .

الديانة الهندوسية فى العصر الوسيط كادت أن تزول بفعل تعاليم الإسلام الذى اعتنقه خمس سكان شبه القارة الهندية . ويرى أن آراء صوفية الفرس ولا سيما نظرية العشق الإلهي ووحدة الوجود كانت وراء إقبال الهندوس على الإسلام . وذلك لتشابه هذه الآراء بأصول الأساطير الفيدية حول نشأة الكون ووجود الموجودات . وتعد حركة " بختى " فى مذهب الفشنية خير شاهد على تأثر الهندوس بصوفية الإسلام ، إذ نهجوا نهجهم فى تلاوة الأوراد، وإقامة الخلوات ، وتنصيب المعلم أو الشيخ أو القطب (٣).

ذلك فضلاً عن ظهور الديانة السيخية فى القرن الخامس عشر الميلادى على يد ناناك وهى تعد من الحركات الهندوسية التى حاولت الجمع فى تعاليمها بين الأصول الهندوسية والمعتقدات الإسلامية بعد أن زعم مؤسسها أنه رأى الرب وبشره بنسخ هاتين الديانتين فى دين السيخ الجديد وقد ساهمت الفلسفات الهندوسية الحديثة فى تقويم بعض المعتقدات الفيدية من جهة ، وإرساء دعائم ديانة هندوسية جديدة تجمع بين أصالة تعاليم الفيدا وبعض طقوس البراهمة وجانب كبير من المعتقدات الإسلامية من جهة أخرى .

ويبدو ذلك بوضوح فى جمعية " أريا سماج " التى أسسها " دينندا سارسفتى " عام ١٨٧٥ . وفى تعاليم " كيشاب شادراسن " الذى كان يعتبر اعتناق المسيحية أو الإسلام خيانة للقومية الهندوسية وزعم عام ١٨٧٩ أنه تلقى وحياً من السماء أنبأه فيه الإله بنسخ جميع المعتقدات والديانات السابقة فى ملة البراهما الحديثة . وظهرت عقب ذلك العديد من الجمعيات المعاصرة التى تؤمن برب السموات وعزفت عن عبادة الأوثان والأيقونات منها جمعية " راما كرشنا " التى مازالت تبشر بالهندوسية ، وتصلح من معابدها وطقوسها ومعتقداتها محاولة التوفيق بينها وبين ثقافة العصر .

وفى أخريات القرن التاسع عشر إنتشرت ديانة الثيوصوفية فى الهند وكانت ترمى الى الدفاع عن المعتقدات الروحية ضد هجمات الفلسفات المادية الإلحادية وجمعت فى تعاليمها بين عقيدة تناسخ الأرواح والنظريات العلمية الحديثة التى أثبتت وجود عوالم غير منظورة فى الكون (عالم الجن والملائكة) وقد ازدهرت هذه النحلة

على يد " أنى بزنت " رئيسة المؤتمر الوطنى الهندى عام ١٩١٧ خلفا
لمؤسسة جمعية النيوصوفية الأمريكية مدام بلافتسكى .
وعلى الرغم من هذا التطور الذى طرأ على الديانة الهندوسية ،
مابرح الهندوس يرددون أشعار الفيدا ويعلمون أبنائهم طقوس
البراهمة ويروون لهم جوانب غير قليلة من أساطيرهم العريقة (٤) .

* * *

مفهوم الألوهية

لقد جمع الهندوس فى فكرتهم عن الإله بين العديد من الصور
والصيغ التى عُرِفَتْ فى الثقافات الغابرة . ويبدو ذلك بوضوح فى
أساطيرها التى جمعت بين فكرة الوحدة والكثرة والتجريد والتجسيد،
وخلطت بين اللاهوت والناسوت الأمر الذى جعل من هذه الديانة
مزيجاً ثرياً من الخيال المفعم بالقصص الأسطورى والنسق الفلسفى .
وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم على مصدر فكرة التآليه
الهندوسية . فذهب البعض الى أنها من نتاج شعراء وحكماء الهند
القدامى، أولئك الذين قاموا بكتابة الفيدا فى أحقاب متعاقبة على مر
ثلاثة آلاف عام .

ويرى البعض الآخر أن معظم أفكار الهندوس عن الآلهة وحياتهم
وقصصهم قد إستمدوها من الثقافات الآرية كنار الفرس وآلهة
الأوليمب عند اليونان .

ويعد نفر من الباحثين فكرة الألوهية عند الهندوس مجرد انحرافاً،
أو إلحاداً عن ديانة سماوية قديمة قد وصلت إليهم عن طريق الشعوب
المجاورة من السومريين والبابليين أو الفرس (٥) .

ولا يمكننا القطع بصحة أحد هذه الآراء ، ولا تتبع حركة تطور
فكرة الألوهية وتعيين أطوار انتقالها من الوحدة إلى الكثرة أو العكس .
وذلك لغلبة الوثائق التاريخية ، وكثرة الأقلام التى دونت الفيدا ،

وتجاهلها البعد التاريخي في التدوين . واتساع مفهوم الإله وتعدد صفاته وكثرة تحولاته في الأساطير الهندوسية .

ذلك على الرغم من تأكيد الدراسات المعاصرة على أن الفيدا وما يحويه من أشعار وقصص وأساطير عن عالم الآلهة من نتاج الدرافيديين أي الهندوس الأوائل ، وكلها تؤكد فكرة محورية واحدة ألا وهي وحدة الوجود وانتبأق الموجودات عن عالم الروح .

ويبقى سؤال لم تستطع كل الأبحاث المعنية بدراسة الفكر الهندوسي الإجابة عنه ألا وهو : من هو الإله وما هي طبيعته وصفاته ومن أين وجد ؟

ويبدو أن فكرة الإله المجرد لم تكن واضحة في الفكر الهندوسي في بداية الأمر . وتشهد بذلك عبادة أرواح الأسلاف وعبادة الشجر والأصنام والأجسام والأبقار والأفاعى بجانب آلهة السماء . وأغلب الظن أنها من الأفكار الوافدة أو المولدة من إحتكاك القبائل الهندية بالثقافات التي تفاعلت معها .

لذا سوف نحاول في السطور التالية عرض عالم الآلهة الهندوسية في صورة تتواءم مع الفكرة الرئيسية لهذا العالم في معتقداتهم بغض النظر عن البعد التاريخي الذي نجهله .

صورة الإله الواحد أو رئيس الآلهة مبدع الكون :

تعددت الأساطير الهندوسية عن عالم الروح وما يدور فيه من أحداث، وسكانه من الأرواح البشرية وأرواح الجن والعفاريت وأرواح الآلهة ومراتبها . ولعل أشهر هذه الحكايات هي تلك التي تتحدث عن ذلك الإله المجرد الروح الخالصة السرمدية ، التي تشكلت ذات يوم على صورة الإنسان ، الذي نزل من عليائه إلى الوجود الذي كان يتصوره قبل خلقه إياه فضجر بوحشة الوحدة ، فأوجد قرين له يشبهه في الصورة ويختلف عنه كل الاختلاف في الطبيعة ثم قام بشطر هذا القرين إلى قسمين ، وجعلهما ذكر وأنثى . وتسلسلت على هذا النحو البشرية (٦) .

وهناك قصة أخرى تروى أن الله المجرد . أدرك أن العالم لم يتحقق وجوده الكامل بعد فأخرجه من الظلمة إلى النور فجعله مرئياً

وعناصره الخمسة . ثم أراد عمران هذا الكون فأخذ قبساً من مادته "طبيعته الإلهية" فأوجد الماء ووضع فيه جرثومة فصارت الجرثومة بيضة لامعة لمعان الذهب ، وعاشت داخلها الذات الصلبة على صورة . براهما .

وهو جد جميع الكائنات وبعد عام روحي (وهو يعادل ملايين السنين الأرضية) قام الإله المجرد بشطر البيضة إلى شطرين فصارت عالمين هما عالم السماء وعالم الأرض ، وعمرهما بالموجودات المختلفة من آلهة وجن وكواكب وأنهار وبحار وجبال وحيوانات ونباتات ثم زمان يسبحون فيه وقام أخيراً بتحديد أسماء لهذه الكائنات .

وهناك حكاية ثالثة ترويها الأساطير الهندية وهي أن الإله المجرد قد تشكل في صورة مادية . وأطلق على ذاته "براجاباتي" فاشتأقت طبيعته الجديدة إلى التكثر فأجابه عالم الآلهة وحققوا له مطلبه فقاموا بتقطيعه إرباً ، ونثروا أجزأه في جميع البقاع فتكونت منها جميع الموجودات . غير أن "براجاباتي" سرعان ما أفاق من سكرته وأراد العودة إلى وحدته وهذا هو سر التجاذب الخفي الموجود في جميع عناصر الكون وعلة شوق الكائنات إلى الاتحاد مرة ثانية بأصولها الروحية (٧) .

وقد أدرك الإنسان هذه الحقيقة بوصفه أحد هذه الأجزاء . فراح يقدم القرابين من لحم وخمر ولبن وأرز وخبز وأعشاب عطرة للنار المقدسة لتوصلها لعالم الآلهة مستجدياً إياها أن تجمع شتاته وتعيده لعالم الخلود .

آلهة السماء من التجريد إلى التجسيد ومن الوحدة إلى الكثرة :

اختلفت الدراسات حول طبيعة الكثرة والتجسيد في الفكر الإلهي الهندوسي . فترى بعض الأبحاث أن تعدد الآلهة الهندية لا يعدو أن يكون تعدد صور نموذج واحد ، وهو " براهمان " الذي اتفقت جل الأساطير الهندية على أنه الإله المجرد ، الذي لا يمكن تصوّره أو وصفه بصفات محسوسة .

فهو الذي يتجلى في صورة " فشنو " الإله الحافظ ، وفي صورة الإله " شيفا " الإله المهلك . وتصبح بذلك الصور الثلاثة براهمان الموجد وفشنو وشيفا صفات لإله واحد .

وعلى النقيض من ذلك تؤكد بحوث أخرى على أن كثرة الآلهة الموجودة فى الأساطير الهندية كثرة حقيقية ترجع الى سببين رئيسيين :-
أولهما : تصور عالم الآلهة الذى تمثله أرواح الأسلاف والأجداد فى أساطير الهندوس الأول .

وثانيهما : يرتبط بطبيعة الثقافة الهندوسية التى نزعت إلى التعدد ، ولاسيما فى الأحقاب التاريخية التى ساد فيها النظام القبلى ، وغابت فيها الوحدة السياسية والسلطة الكهنوتية . الأمر الذى ساعد على ظهور عشرات الآلهة المعبودة تبعا لتصور هذه القبائل . وترد فكرة الإله الواحد المجرد إلى تصورات الفلاسفة .

ويفسر فريق ثالث من الدارسين كثرة الآلهة بأنها مجرد إنحراف عن فكرة الواحدية الأولى ، ساقهم إليها عاملان :-

الأول : ضعف الديانة الأصلية بتأثير من الثقافة الآرية وأساطيرها ، التى تبرر فكرة الثنائية تارة ، والكثرة تارة أخرى .

الثانى : ساسة الكهنة الذين قاموا بانتحال الأساطير التى تبرر أفعالهم وتعمل على تحقيق أغراضهم (٨) .

وسوف نحاول فى السطور التالية عرض أهم أسماء آلهة السماء ، ووظائفها وجانب من الأساطير التى نسجت حول وجودها وعلاقتها بالكون .

* **براهمان** : هو أقدم الآلهة التى ذكرت فى الفيدا ومعناه كلمة الكينونة وهو المطلق غير المشخص .

* **شيفا** : إله الصفح والمبشر بالخير وهو من آلهة الفيدا أيضا . له

عدة صور ووظائف وتجسّدات فتارة يبدو فى صورة اللنجا "

الحجر القضيب " ، وتارة يتجسد فى صورة الكاهن لاكولا - وهو

مؤسس أقدم الفرق لعبادته وهى فرقة باشوباتا - ، وتارة ثالثة

يصبح الإله "رودرا" إله العواصف والشفاء والمرضى ، وتارة

رابعة يصبح الإله "شامبهو" إله الرأفة والرحمة ، وتارة خامسة

يصبح الإله "شانكارا" إله الإحسان أو المحسن .

* **فشنو** : الإله المحسن على الدوام وهو الإله الراكض فى الماء

الذى تلتف حوله أفعى متعددة الرؤوس وتخرج من سرته زهرة

اللوتس وله عدة تجسّدات هى السمكة التى أنقذت " مانو " (أو

الإنسان الأول) والحكماء والفيدا من الطوفان العظيم . والسلحفاة

التي ركب الآلهة فوق ظهرها واستولوا على قمة جبل مندارا ومن هناك مخضوا محيط اللبن كيما يستردوا طعام الآلهة الذي فقدوه في الطوفان . والخنزير البري الذي قتل "هيراينكاشا " وأنقذ الأرض من المحيط الكوني الذي ألقاها فيه الشيطان . والإنسان الأسد الذي قتل الشيطان "هيراينكاشايبو" . والقزم واسع الخطوات الذي يخطو الأرض والهواء والسماء في خطوتين أما الثالثة فتركها للشيطان " بالي " وهي إلى عالم الموتى . وراما صاحب الفأس الذي دافع عن البراهمة ضد النهب الملكي . وراما ملك أيوديا بطل الرمايانا الذي قتل الشيطان "رافانا " الذي يقطن سرى لانكا وظهرت عبادته في عصر الفتوحات الإسلامية . وربما أضيف "بوذا" الى هذه التجسّدات لكي يجذب العناصر المارقة الى المذهب الفشنوى . وكالكين وهو المخلص المنتظر الذي سوف يحكم العالم بالعدل بعد تطهيره من الشرور ويقتل الشيطان بسيفه الملهب (٩) .

* شاندريكا : ربة الخصب ولها في الأساطير عدة صور وصفات فهي " بارفتي " سيدة الجبال وعروس شيفا الجميلة ، وهي " كالي " القبيحة المتعطشة للدماء التي تطلب ضحية من الحيوان قرباناً وفي بعض الأحيان تطلب قرباناً بشرياً ، وبوصفها ساكنة جبال فيندياس فإنها تتربص بالمسافرين كما هي راعية اللصوص وقطاع الطرق ، وهي " دورجا " التي ذبحت الشيطان .

* براجاباتي : الإله الخالق وهو الكل وهو الذي كان وهو الذي سيكون ، وكان له ألف رأس وألف عين وألف رجل وإليه ترد كل القرابين والموسيقى والأغاني والتعاويذ السحرية . وقد مزقته الآلهة تلبية لرغبته فخرج القمر من نفسه ، والشمس من عينه ، وأنندرا إله الرعد والحرب وأجنى إله النار من فمه ، والريح من أنفه ، والسماء الوسطى من سرته ، والسماء العليا من رأسه ، والأرض من قدميه وهكذا خلق العالم . وهو الأب الذي أفتتن بجمال ابنته " أوشاس " إلهة الفجر الجميلة فراح يتعقبها ليطأها فهربت منه في بداية الأمر . ثم حاصرها فنال منها ما أراد فحملت وأنجب منها أول أفراد الجنس البشري .

* آنندرا : إله الحرب وملك آلهة السماء الذي خلف "هوديوس بيتر" إله

السماء الأول . وهو ابن إلهة الأرض الأم وإله السماء الأب وقد تقوى بشراب السوما المسكر وتسليح بالصواعق التى أعدها له الإله تفشترى الصانع البارع لكى يواجه "قرتيرا" قائد فرقة الدفافوس فذبحه وتدفق من بطنه الممزقة سبعة جداول حبلى بجنين الشمس . وهكذا خرجت العناصر التى تدعم الحياة وهى الرطوبة والحرارة والنور . ثم قام بفصل السماء عن الأرض . ثم قسم العالم الأرضى الذى كان على شكل كرة الى قسمين :-

عالم سفلى تسكنه الشياطين ، وعالم علوى يسكنه البشر ، تسقط عليه أشعة الشمس وتمده السماء بمطارها . أما عالم السماء فظل مهيمناً على الأرض (١٠) .

* كالى : وهى ربة الموت والدمار ومن أسمائها دورجا وشاكتى وماتا ولاكشمى وهى إينة إله الغضب وزوجة الإله شيفا ومن تجلياتها الأم التى تقدم لأبنائها العزاء والأمن ، وهى ربة الخوف والرعب الكامنين فى الوجود ، وهى أيضا التى تساعد أبنائها على فهم عناصر العنف والمعاناة ، وهى القوة المنشطة لطاقة الوعى والحديث ، وهى القوة المدمرة للمردة لإنقاذ الأرباب والحفاظ على العالم وقد صورت فى معابدها على هيئة امرأة لها بشرة خشنة وعيون غائرة حمراء وفم كبير يبرز منه لسان دموى يحيطه أنياب مدببة وأزرع قوية تحمل فى إحداها عصا تعلوها جمجمة وفى الثانية مشنقة الموت والثالثة سيفاً ومقص والرابعة وعاء رمزاً للتغذية وزهرة اللوتس مرتدية جلد نمر ضارب للسواد وقلادة من الجماجم تهتز على وقع رقصاتها فوق جثة زوجها شيفا وهى من الأرباب الثنائية التى تمنح القوة والسعادة لعبادها وتجنى رؤوس أعدائها بسيفها الطويل .

تلك كانت أهم آلهة الهندوس الكبرى التى نسجت حولها الأساطير وعمد كتاب الفيدا إلى تطويرها منذ نشأتها الساذجة إلى أيامنا هذه .

ويجدر بنا أن نشير إلى وجود عشرات من الآلهة الصغرى التى ذكرتها أساطير الفيدا أيضا بوصفها آلهة صغرى أو محدودة الأثر من أمثال :-

* الإله أجنى : إله النار وهو الذى يربط عالم الناس وعالم الآلهة لأنه هو الذى يحمل القرايين المحترقة إلى الآلهة .

- * إله السوما : الذى اتحد بإله القمر وأصبح إلهها يشرف على نمو المحاصيل وصحة الأجنة .
- * الإله مترا : إله القسم والاتفاقات .
- * الإله فارونا : حامى الأخلاق وخبير بأفعال البشر السري منها والمعلن ونواياهم المضمرة .
- * الإله جانشا : إله العقبات .
- * الإله ياما : وهو حارس عالم أرواح الأجداد بكلابه السوداء الداكنة .
- * الإله هانومان : الإله القرد مساعد راما .
- * الإله رودرا : إله الشفاء والمرض وإله العواصف .
- * الإله جاما : إله الموت .
- * الإله يارجاتيا : إله المطر والمياه والأنهار .
- * الإلهة سربيا : إلهة الشمس .
- * الإلهة سيتا : إلهة العفة والوفاء .

وتشير بعض الدراسات أن عدد الآلهة المعبودة فى الهند قد تجاوز الثلاثين إلهًا .

ويمكننا أن نلاحظ من العرض السابق لفكرة الألوهية عند الهندوس ، الجمع بين التجريد والتجسيد فى مفهوم الإله مع ازدحام الأساطير بالآلهة المجسدة ذات الوظائف المتعددة . الأمر الذى كان وراء عناية البراهمة ومن ورائهم الفلاسفة بتهذيب هذه الأفكار ، وإعادة صياغتها فى سياق معقول . ويبدو بوضوح فى تعاليم البراهمة الذين أكدوا على وجود براهمان باعتباره إلهًا متعالياً يوحى إليهم بتعاليمه الناسخة للمعتقدات السابقة عليهم وكذا كتابات الفلاسفة التى حاولت درأ التعارض بين فكرة التجريد العقلية والتجسيد الحسية الأسطورية للإله وذلك بجعلها براهمان هو الإله الذى لا يمكن تصوّره إلا بالعقل ومن ثم كانت تجلياته فى الأساطير من سبيل الرمز والتبسيط . كما أكدت أن براهمان هو فشنو وشيفا وكالى أى هو إله الحب وعلّة وجود الحياة والضامن لاستمرار وجودها ، وهو أيضا نهر الحب والعلم والحكمة المتدفق .

الذى يقوم بإزالة القديم ليفسح الطريق أمام المياه الجديدة التى تخصب الأرض بعلومها ومعارفها ، وهو أيضا إلهة القوة والموت

والعدل والسلام (١١) .

ومن ثم فالأرباب المتعددة عندهم ما هي إلا رمز لوجود وواقع
أسمى لإله مجرد وأن تجليات هذا الإله وحلوله في بعض الصور ليس
في الحقيقة أكثر من تواضع منه ليتواصل مع سائر الموجودات المعلولة
له لعله الوجود ، والمنبثقة منه مع الاحتفاظ بوجود المستقل عنها .

أما العوام فمزالوا يحتفظون بالأيقونات المقدسة ، ويصلون
لصور الآلهة وتمثيلها في منازلهم ومعابدهم ، ويقدمون لها القرابين
ويمسحونها بالطيب ، ويلبسونها أغلى الثياب ويحلونها بأنفس الجواهر
ويقيمون من أجلها كل الشعائر الطقسية طامعين في استرضائها .

وعلى الرغم من كثرة معبودات الهندوس وتباينها لا نجد شقاً أو
نزاعاً بين طوائف العباد . وذلك يرجع الى الاعتقاد في أن كل
الصور المعبودة من أبقار وإناس وجمادات ما هي إلا أجزاء أو
صوراً للإله الكامن في الوجود بكل ما فيه .

وأن رياضة اليوجا هي المرحلة النهائية لكل الديانات لأنها تسعى
الى العود الأبدي أي الإتحاد بالإله مرة ثانية . ومن ثم فالفكر العقدي
عندهم مجرد مراحل يقطعها العقل البشري من الفلسفة الى الدين ومن
الدين الى الفلسفة . فلسفات تخلق أديان وأديان تخلق فلسفات وكله على
صواب عندهم لأن جميعهم يعبد الإله في صورته المتباينة (١٢) .

الكتب المقدسة والنبوة والوحي :

لا نجد من بين الكتاب في فلسفة الدين أو المعنيين بمبحث مقارنة
الأديان من يُورد سبباً مباشراً لتقدّيس الهندوس لكتابهم الفيدا
فتشير بعض الدراسات إلى أن صفة القداسة التي وسم بها هذا
الكتاب وملحقاته ترجع إلى عبادة أرواح الأسلاف التي كانت تقدس
الأجداد وتراثهم . فأشعار الفيدا وأساطيره ما هي إلا الحكمة التي
خلفها الأجداد لأبنائهم ، ومن ثم يجب تقدّيسها والحفاظ عليها . وهناك
دراسات أخرى ترى أن صفة القداسة لم تلحق بشذرات الفيدا إلا عقب
ظهور فرقة البراهمة ، الذين زعموا كما ذكرنا بأنهم أسباط الآلهة

العظام وأنهم يتلقون الوحي من براهما الإله الخالق وزوجته " سارسفاتي " ربة الموسيقى والكلام .

بينما يرى البعض أن الفيدا كتاب سماوى تنزل على حكماء الهندوس فى الماضى السحيق وهو قديم بقدم من أرسله .

وعلى ذلك فهو وحى وحكمة أزلية هبطت على الشعراء الهندوس وحكمائهم ومازالوا يتلقونه حتى الآن . الأمر الذى يبرر عملية الحذف والإضافة التى يقوم بها الفقهاء والفلاسفة الهندوس منذ كتابة الفيدا وحتى الآن (١٣) .

وينقسم الفيدا الى أربعة أقسام رئيسية كتبت تباعاً :-

* **القسم الأول :** الريج فيدا (أى المعرفة الملكية) ويرد تاريخ كتابته إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد . ويعده بعض المؤرخين من أقدم النصوص المقدسة المكتوبة عند الشعوب ، ويقع فى عشرة أجزاء ويحتوى على ١٠٢٨ ترنيمة شعرية فى مديح الآلهة . وقد تناقلتها الأجيال الهندوسية شفاهة جيلاً بعد جيل إلى أن دونت فى القرن الثامن قبل الميلاد . ومازال الهندوس يرددونها ويتغنون بها فى صلواتهم وأداء طقوسهم الدينية .

* **القسم الثانى :** ياجورا فيدا (أى المعرفة الهوائية) وتضم مجموعتين يدعى إحداهما بالياجورا فيدا البيضاء والأخرى بالياجورا فيدا السوداء ويحوى القسمان التراتيل النثرية التى يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين .

* **القسم الثالث :** الساما فيدا (أى المعرفة الشمسية) وهى مؤلفة من قسمين ، الأول تراتيل دينية ، والثانى تعاليم متعلقة بالعبادات والواجبات الدينية . ويشمل الأغانى التى ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية .

* **القسم الرابع :** أثار فيدا أو أترا فيدا ويطلق عليه سفر الفقراء أو دين العوام وذلك لما يحويه من أساطير وخرافات وتعاويذ ورقى وطلاسم سحرية ، لتحضير الجان والغفاريت وقد كتب فى عهد متأخر . أما الأقسام الفرعية للفيدا فتتنقسم أيضاً إلى أربعة أقسام هى :

* **السامهيتا** وتمثل الأدعية البدائية التى يرددوها الهندوس القدامى عند تقديم القرابين .

* البراهمن ويمثل الشروح على متون الفيدا على نحو ما تستخدم في تقديم القرابين وأداب الطقوس ، وأنواع القرابين وتفاصيلها ومواسمها ، وتوضح المضمون الرمزي لأعمال الكهنة .

* الأرانياكا أى نصوص الغابة وتمثل الإرشادات والعبادات التى يقوم بها كبار السن الذين تجاوزوا سن الأربعين عوضاً عن القرابين التى يعجزون عن تقديمها .

* الأبانيشادات وهى الأسرار والكشوف والرؤى ، التى يختص بها الرهبان والمتصوفة ، الذين مالوا إلى باطن الحياة وتركوا ظاهرها وتمثل المذهب الروحي (١٤) .

ولا يستمد الفيدا قوته من سمو مصدره أو فصاحة أسلوبه بل يستمد هذه القوة من إقبال الناس على إعتناقه جيلاً بعد جيل . وقد ظهرت له شروحا وملخصات كثيرة تبعا لتطور اللغة وارتقاء الثقافات وكلها مقدسة عند الهندوس .

ومن الكتب التى يقدسها الهندوس أيضا " المهابهارتا " و " كيتا " و " يوجاواسستها " و " رامايانا " .

فالأول يرد الى الحكيم "وياس" وهو أشبه بالإلياذة والأوديسة فهو ملحمة الهند الكبرى وهى تصور قصة حرب جرت بين ملوك الهند مستعينين بالآلهة التى كان لها دور فى المعارك . أما الثانى فينسب إلى "كرشنا" أحد أبطال الهندوس المقدسين وهو يعد استطرادا للملحمة الكبرى . أما الثالث فمجهول المؤلف ويحتوى على أربعة وستين ألف من الأبيات ، ومختلف حول موعد ظهوره ويرجح أنه ظهر فى القرن السادس الميلادى . وهو يقص حواراً بين تلميذ وأستاذه حول المعتقدات واللاهوت والفلسفات التى يدين بها الهندوس .

أما الكتاب الرابع وهو كذلك مجهول المؤلف وتاريخ التأليف ويعنى بشرح الجانب السياسى ونظم الحكم التى يؤمن بها الهندوس . والجافاجيتا هى من أوسع الآداب الكلاسيكية إنتشاراً عند الهندوس وأوفرها نصيباً من الرعاية والإعزاز وهى بمثابة العهد الجديد فى الهند . والهنود يبجلونها بعد كتب الفيدا نفسها ثم يستعملونها لحلف الأيمان فى المحاكم كما يستعمل الإنجيل .

ويجدر بنا الإشارة إلى وجود بعض رسائل إصلاحية وأدبية قد

حظيت بقدر وفير من التبجيل والاحترام عند الهندوس منها :-
* الأرتا شاسترا التى كتبها "كوتبلايا" وهو من كبار رجالات السياسة والإقتصاد الهندوسي ، وهى تقوم بتبرير الحاجة إلى وسائل المعيشة المختلفة وأهميتها .
* المانوشاسترا التى كتبها المشرع الهندى ذو الشهرة الأسطورية وهى تقوم بتوضيح كيفية ضمان وجود العدالة والنظام فى المجتمع على يد الملك والمؤسسات الحكومية (١٥) .

مفهوم النبوة والوحي :

لقد كانت صفات براهمان المجردة من جهة ، وغيبة المعابد والطقوس الكهنوتية فى الديانة الهندية من جهة أخرى ، وراء ظهور فكرتى النبوة والوحي فى الديانة الهندية وقد أدرك جماعة من الحكماء والساسة الهندوس ، أن معتقداتهم فى حاجة إلى التقويم والتنظيم . فزعموا أن "براهمان" المجرد قد تجلى فى صورة براهما الإله الخير الذى تجلى بدوره فى صورة إنسان خرج من رأسه طبقة البراهمة ، ومن ذراعية طبقة المحاربين ، ومن فخذيه طبقة التجار ، ومن قدميه طائفة الخدم .
ويعد البراهمة بذلك أول من أدخلوا النظام الكهنوتى فى الديانة الهندوسية ، ويرد إليهم فكرة بناء المعابد وما بداخلها من تماثيل للآلهة والنار المقدسة والمباخر ... وكذا الأعياد الدينية وطقوس الصلوات ونظم الحج وشروط الصوم .

وينسب لهم كذلك فكرة الوحي أو الإلهام السماوي الذى خصوا به أنفسهم عن سائر الهندوس فكل ما يأتون به من نظم وقيم ومناسك من عند براهما . وعلى المؤمنين به التسليم والطاعة . وأنهم دون سواهم المنوطون بتسليم القرابين ، والإشراف على الطقوس الجنائزية، وتلقى الآمال والدعوات من عبدة براهما وتبليغها له، ثم حمل البركات والنعم لأصحابها .
وقد تبوأوا بذلك أعلى مراتب السلم الاجتماعي الهندوسي فالبراهمانا أو البراهمة هم الكهنة والمعلمون الذين يعدون بصفة عامة حملة الثقافة، والمعنيون بالإرشاد والتوجيه ، والحفاظ على المعارف التراثية وحقوق الآلهة وحراسة العدالة والأخلاق (١٦) .

* * *

أهم المعتقدات والطقوس :

إن من يتأمل المعتقدات الهندية على تعددها وتباينها سوف يدرك أنها ترد إلى فكرة جوهرية رئيسية وهي روحانية العالم بدءاً من عقيدة وحدة الوجود ومروراً بخلود النفس الإنسانية وتناسخ الأرواح وإنهاءً بعقيدة الاتحاد التي تعيد الكثرة المادية إلى وحدتها الروحية بعد تطهرها .

وسوف نحاول في السطور التالية توضيح مدى اتساق الفكر العقدي الهندوسي مع الأصول التي نبع منها من جهة ، وفكرة الألوهية التي كرس لها كل تراثه الأسطوري من جهة أخرى .

وحدة الوجود :

يرى فقهاء الهندوس أن العلاقة بين سائر الموجودات وبراهمان (الإله المطلق) هي علاقة انبثاق الضوء عن الشمس وأن الصلة بين الروح الإنساني والروح الإلهي هي الصلة التي تربط البذرة بالشجرة . ومن ثم يكون الموت هو بداية رحلة التطهر التي تسلكها الروح للعودة مرة ثانية للاتحاد بالله صاحب القوى الثلاث الخلق والحفظ والهلاك .

وترد إلى هذا المعتقد العديد من الأفكار والأعراف .

فهو يتسق تماماً مع جل الأساطير التي حاولت توضيح العلاقة بين وجود الإله ووجود العالم - التي أشرنا إلى بعضها سالفاً - . ويتفق كذلك مع فكرة تعدد الآلهة وتباين المعبودات في الديانة الهندوسية .

وذلك لأن المعبود وثناً كان أو حيواناً أو إنساناً ، ما هو في حقيقته إلا جزءاً من الإله . ومن ثم ليس هناك شركاً أو إلحاداً في تغيير المعبود أو تفضيل إلهاً على غيره .

ويفسر هذا الاعتقاد أيضاً علة عزوف الهندوس عن الحرب والقتال وتحريمهم قتل الحيوانات والحشرات بحجة أنها إحدى تجليات الإله . ويبرر كذلك عدائهم للمسلمين الذين يذبحون الأبقار وهي من أكابر معبوداتهم (١٧) .

وقد نشرت الأهرام في عددها الصادر يوم ٢٠٠١/١/١٠ أن

القردة بالهند قد استولت على دور الحكومة ، واقتحمت على سكان المدن منازلهم ، ولم تستطع الشرطة الهندية وقوات الأمن مجابهة هذا الهجوم إلا بجمع هذه القردة وتوزيعها على الولايات الهندية دون أدنى قدر من العنف . الأمر الذي يؤكد رسوخ هذا المعتقد إلى الآن .

تناسخ الأرواح :

وهي عودة الروح مرة ثانية بعد خروجها من الجسد بالموت إلى العالم الأرضي ويبرر المعتقدون في عودتها هذا الارتداد بأمر عديده :-
منها تعلق الروح بالعالم الأرضي بكل ما فيه من أهواء ورغبات ومن ثم يكون العود رغبة من الروح في تحقيقها ورغبتها في الاتصال بالآخرين وداً أو عداءً أو قصاصاً .

وقد اختلف القائلون بتناسخ الأرواح حول دوافعه ونتائجه .
وذهب البعض الى أنه عمل إرادي تقوم به الروح في جسد ويرى البعض الآخر أن التناسخ والعود يتم وفق عدالة عالم الروح التي تقتضى عودة الروح الشريرة إلى الأرض ثانية لتكفر عن آثامها مرتدية أجساد الحيوانات أو الحشرات أو الأفاعي تبعاً لطبيعة الذنوب وكثرتها . أما الأرواح الخيرة فتهم في العالمين الروحي والمادي تبعاً لإرادتها وفي نهاية المطاف تتحد بالبراهما وتمتزج به .

ويرتبط هذا الاعتقاد بنظام الطبقات الهندوسي الذي يقضى بعدم تناسل طبقة مع دونها من الطبقات حفاظاً على نقاء الأعراق وأصالة الأنساب . وذلك لأن هذا المعتقد يعطى الأمل للطبقات الدنيا في الاتصال بالطبقات العليا في دورة أخرى من دورات حيواتهم المقبلة إذا أحسنوا وخفت موازينهم ، ويحذر كذلك أصحاب الطبقات العليا من الذلل والخطيئة التي تسوقهم إلى المذلة والاسترقاق ، بل وإلى الجحيم عند عودتهم ثانية إلى الأرض للتفكير عن ذنوبهم وآثامهم وهي تبرر كذلك ذلك التقسيم الطبقي أغنياء وفقراء ونبلاء وصعاليق بحجة أن مصير اليوم وغداً صنيعة الأمس (١٨) .

الإعتاق والاتصال :

هو الامتزاج ببراهما ، الأمر الذي لا يتحقق إلا للروح التي تخلصت تماماً من أهواء وميول ورغبات الجسد الترابي وأنطلقت

طواعية نحو الحقيقة الأبدية لتتحد بها . ومن ثم فالزهد فى الدنيا والعزوف عن الشهوات ، والتضرع للعبادة هو السبيل الأقوم للاتصال بالآله .

الكارما " الجزء من جنس العمل "

الكارما كلمة سنسكريتية من لغة الآريين ومعناها الجزء . وهذا القانون هو المسئول عن الثواب والعقاب وإليه يرجع اختيار الصورة التى تتناسخ فيها الروح على أساس ارتباط المعلول بالعلة فتتساق الروح تلقائياً داخل إطاره للتلبس بالجسد الجديد الذى تتوافق ملابسات حياته مع الميول الذاتية لهذه الروح ومع أعمالها فى دورة حياة سابقة . أى أن نظام الكون يقتضى أن أفعال المرء المسئول عنها يجب أن يجازى عنها ثواباً أو عقاباً فى حياته الدنيوية أو فى حياته الروحية وذلك عن طريق تناسخ الأرواح .

النار المقدسة :

وهى نار يشعلها جل المؤمنين بالفيدا فى بيوتهم عقب الزواج مباشرة " البيت الآرى " وهى تشتعل بحك أنواع خاصة من الخشب بعضها ببعض ويقوم رب البيت برعايتها حتى لا تخدم فيزودها بالأخشاب ويقوم بتضحيات خمس هى :-

- عبادة براهمان روح العالم وذلك بتلاوة الفيدا .
- عبادة الآباء بتقديم الطعام والماء لتغذيتهم حتى لا تفنى أرواحهم ، وكذا إعداد كرة الأرز لهم فى أول كل شهر قمرى .
- عبادة الآلهة بإحراق القرابين .
- عبادة بهوتاس وهى الموجودات الحية أو الأرواح بنثر الحبوب فى الجهات الأربع والمركز وفى الهواء وعلى أوانى المنزل ووضع الطعام على عتبة الدار للمنبوذين والحيوانات والطيور والحشرات .
- عبادة الرجال عن طريق تقديم الضيافة الى الآرى ويفضل البرهمى العليم بالفيدا .

ويبدو أن هذا المعتقد دخيلاً على الديانة الهندوسية . ولا يخلو من أثر فارسي كبير وعلى الرغم من ذلك فإن الهندوس قد طوعوه لخدمة الفكرة الرئيسية لعالم الروح . فالنار هى أكثر العناصر الأربعة قدرة

على تحويل القرابين على اختلافها الى أبخرة تتصاعد إلى السماء ،
وتنتشر فى الآفاق لتغذى أرواح الأجداد والآلهة الصغرى على حد
سواء .

التنسك :

وهو الانقطاع للعبادة وهو لا يتم إلا بعد المرور بثلاثة مراحل
هى :- التفقه والدراسة على يد البراهمان ثم الزواج والإنجاب ثم
التنسك فى الغابة حتى يرقى إلى رتبة الناسك المتجول وذلك اعتقاداً
منهم بأن هذه المراحل بمثابة ديون يجب على الفرد أدائها .
ويعتبرون الأول والثانى ديون عامة وهى للآلهة والآباء . أما دين
الحكماء من الديون الخاصة وتوفى هذه الديون بقراءة الفيدا وإنجاب
الابن وتقديم أضحية . ويعد الزوج الكاهن الأكبر لعائلته وذلك لأنه
المنوط بتقديم القرابين لأجداده ، والمعلم الذى يعد أبنائه الذكور
ليخلفوه فى هذه العمل . ذلك فضلاً على تدريبهم على خدمة النار
المقدسة .

وملاحظ أن هذه المعتقدات قد ضعفت بمرور الوقت ولم يظل
منها إلا المظاهر الخاصة بالاحتفالات فحسب . وقد حلت عقيدة تناسخ
الأرواح بدلا منها .

وقد انتشرت عبادة إله السموات بدلا من عبادة الأسلاف .
والتنسك فى الهندوسية يعنى السبيل للخلاص من عذابات الكارما
وتكرار حيوات الروح وذلك بالإتحاد بالبراهمان أى الإله حيث عالم
السعادة الأبدية . وذلك لا يتحقق عندهم إلا بالتكفير عن الخطايا التى
ارتكبتها الروح فى حياتها السابقة وذلك عن طريق التأمل الدائم ،
والانصراف عن سائر الذات أو تعذيب البدن باعتباره مصدر كل الشرور
وذلك بالإضجاع وسط النيران والتحديق فى الشمس ، والوقوف على ساق
واحد أو الجلوس جلسة غير مريحة لفترات زمنية طويلة (١٩) .

الخلاص الإلهي :

وهو الاعتقاد بأن الإله فشئ الإله الحافظ وناصر الخير على
الشر يهبط إلى الأرض عند نهر الكانج لإغاثة المحتاجين والمظلومين

ويهلك الأشرار ، ممتطياً طائر الكارودا وحاملاً سيفاً من لهب . ويعتقد أنه أنحدر تسع مرات وما يزال له انحدار عاشر يأتى فيه راكباً جواداً أبيض ومتسيفاً بسيفه الفارسى لخلاص العالم وذلك فى الدورة الرابعة من عمر الأرض .

ويبدو أن هذا المعتقد دخيلاً أيضاً على الديانة الهندوسية القديمة ولعله مأخوذ عن فكرة المخلص أو المهدي المنتظر فى الآداب الشرقية العريقة . وذلك لأن الخلاص فى العقيدة الهندوسية يلقى على عاتق المرء نفسه طبقاً لقانون الكارما الذى أشرنا إليه .

الموت والعالم الآخر :

توجد ثلاث نظريات رئيسة مترابطة تتناول مصير النفس الإنسانية بعد مفارقتها البدن .

تذهب الأولى إلى أن النفس تعيش حياة لا نهائية وذلك بتكرار حركة الميلاد والتجسد مرة تلو مرة وهى العقيدة التى تسمى السمسارا التى تؤمن بخلود الروح وتعدد الحيات للنفس الواحدة . وتذهب الثانية الى أن عملية التناسخ تمضى وفق قانون الكارما الذى يرى أن مصير الروح بعد مفارقتها البدن مرهون بالأعمال الخيرة والشريرة التى ارتكبتها خلال اتصالها بالبدن وهى تمضى إلى أعلى أو إلى عالم السعادة تبعاً لأعمالها بينما تسوقها أفعالها الشريرة إلى عالم الجحيم ، وهكذا تتكرر دورة الحياة بالنسبة لها (الجزاء من جنس العمل) . أما الخلاص من تكرار هذه الحيات لا يتحقق إلا بالموكشا أى الإتحاد بالإله أو المكوث فى عالم الأرواح الأعلى (٢٠) + (٥٦) .

القدر :

يبدو أن فكرة القدر متمثلة عند الهندوس فى تلك العلاقة القائمة بين الروح والبدن فالإنسان المكون من روح وبدن مسئول مسئولية كاملة عن كل أفعاله التى يخلقها بإرادته الحرة ويخطط بمقتضاها مستقبل الروح فى حيواتها المقبلة . ويستوى فى هذا الأمر الإنسان والإله :- فالآلهة لا تملك إلا أقدارها الفردية ومن ثم لا جبر ولا قدر مكتوب من قبل الآلهة على البشر .

الأهمسا أو اللاعنف :

هو معتقد يرى أن إزهاق حياة حيوان أو إنسان تحت أى ظرف من الظروف هو عمل آثم ويؤدى إلى ميلاد جديد فى كائن حى آخر أدنى وهذا المعتقد ظهر مع ظهور الحركات الإلحادية ولاسيما الجينية الأمر الذى أدى إلى ظهور النباتيين ومقدسى الأبقار .

وإذا ما انتقلنا إلى الطقوس فسوف نجد معظمها من اختلاق البراهمة الذين يرد إليهم الجانب الأكبر من المعتقدات الدينية ولاسيما المتأخر منها وكذا بناء المعابد والاحتفالات الطقسية وتقديس التمايم والأيقونات -كما ذكرنا سلفاً- والطقوس الهندوسية بالجملة تتفق إلى حد كبير مع العقائد الرئيسية مع تأثرها بالديانات المنشقة عليها مثل الجينية والبوذية والسيخية وسوف نشير إلى أهمها بشئ من الإيجاز .

احتفال البندا :

وهو يقام مع بداية كل شهر قمرى يقدم فيه كرة الأرز لأرواح الآباء أو الأسلاف وإلى روح البيت التى تسكن الركن الشمالي الشرقي فى المنزل وتسمى العناصر الأساسية فى هذا الاحتفال شراذا وهى كما يلي :-

يجلس كبار فقهاء البراهمة فى مكان مكشوف على العشب المقدس ثم يقوم رب الأسرة بحرق قرابين الآلهة فى النار المقدسة ثم يقوم بالحدث الرئيسي ألا وهو تقديم كرات الأرز إلى أرواح الآباء والأسلاف فيقوم برش الماء ثم نسج سجادة من العشب المقدس ووضع فوقها ثلاث كرات مطهية من الأرز . أما الأرز العالق فى يديه من أثر صناعة كرات الأرز فيقوم بمسحه فى تلك السجادة العشبية ويقوم بعد ذلك بسكب الماء المبارك من الفقهاء على الأرض بالقرب من البندا (أى كرات الأرز) .

أما الكرات الثلاث يقوم بتوزيعها على أضيافه من البراهمة ، وما تبقى منهم يقدم إلى سائر الضيوف بالمنزل ثم يقوم بعد ذلك بجمع العشب ويلقيه فى النار المقدسة ليكون طعاماً لأرواح الآباء التى تقوم بدورها بمنحهم البركات والنجاح والذرية . ويشرب الهندوسي شراب السوما عند تقديم القرابين للنار وهو مصنوع من نبات القنب الهندى المخمر (٢١) .

الطقوس الجنائزية :

تحمل الجثة بعد الوفاة بقليل إلى أرض المحرقة في موكب من الأقارب يتقدمه الابن الأكبر الذى يسير على رأس المحزونين ويخلف المرحوم كرب للبيت ثم تلقى الجثة فى المحرقة ويطوف حولها أهل الميت بعكس اتجاه عقارب الساعة ثم يغتسلون ويعودون إلى منازلهم يتقدمهم أصغر الأبناء . وفى اليوم الثالث من حرق الجثة تلقى العظام فى الأنهار المقدسة ومنها نهر الكينج ، ثم يقوم أهل الميت بسكب الماء وتقديم قرابين الأرز لروح الميت لمدة عشر أيام متواصلة . وبعد عام يقام له احتفال يسمى السبندكرانا وذلك ليتمكن روح الميت من تناول كرات الأرز مع أسلافه فى احتفال الشرذا الذى يقام له شهرياً ويحرم من هذه الطقوس الصبى والفتاة العذراء والناسك الذى لم يتزوج فأولئك يدفنون فى الأرض بحجة أن روحهم سوف تبعث فور دفنهم لتقوم بدورة حياة جديدة تمارس فيها ما كفت عن ممارسته فى حياتها السابقة .

السمسكار (الترسيم) :

وهو الاحتفال الذى يتم فيه ترسيم الأفراد عند انضمامهم لآى جماعة دينية وهى تنقسم الى ثلاثة طقوس :-
أولها تقام قبل الولادة لتشجيع الحمل وإنجاب طفل ذكر وضمان صحة الجنين .

وثانيها تقام بعد الولادة لمدة عشر أيام وتتوالى بعد ذلك الطقوس الصغرى عقب خرم أذنه ثم عقب تناوله أول طعام جاف وأول مرة يرى فيها الشمس بعد خروجه من المنزل وعقب حلق رأسه ماعدا حصلة فى قمة الرأس يتركها طيلة حياته .

أما الطقس الثالث فهو الترسيم ويتم عندما يكون الطفل بين سن الثامنة والثانية عشرة وذلك بارتداء الطفل زى الناسك ويمسك فى يده صولجان مع خيط مقدس يوضع على كتفه اليسرى ويتدلى من ذراعه اليمنى ثم يتلوا الكاهن الرسمى بعض أبيات من الريج فيدا ثم يقوم الطفل باستجداء الصدقات ويتخير له معلماً من البراهمة ليفقهه فى الدين حتى ينعم على يديه بالخلود والسعادة الأبدية وتستمر مرحلة

التعليم والدراسة إثنًا عشرة سنة يقوم بعدها الطالب بالاغتسال وعندئذ يتوقع أن يتزوج الأرى فى الحال .

القرايين :

أما القرايين فلم تكن فى بداية الأمر إلا طقوساً تؤدي بأضحية عند تنصيب الملك أو عند موت عائل الأسرة وقد تطورت على يد البراهمة الذين ألبسوها ثوباً سحرياً وألصقوا بها عشرات الأناشيد والترانيم الخاصة بها الأمر الذى جعل منه سلطة كهنوتية لتوصيل القرايين ومنح البركات .

التبرك بالأيقونات :

وهى تلك الصور أو التماثيل التى تشبه الإله ويقدسها البعض تبركاً يذكرهم بالإله ويحفظهم من الشرور ، وهى نحلة هندوسية لم تكن موجودة فى الديانة الفيدية الأولى التى لم تقم معابداً للإله ولا طقوساً كهنوتية لعبادة النار المقدسة . ويرجعها البعض الى سكان وادى السند الذين برعوا فى صناعة الأيقونات وتماثيل الآلهة . ولا سيما الإلهة الأم الكبرى التى صوروها على صورة أنثى حامل . أما باقي الآلهات فمعظمها نسائية عارية أما الآلهة الذكور على هيئة رجل جالساً متخذاً أحد أوضاع اليوجا (٢٢) .

الوشم والهيئة :

لقد اتخذ الهندوس المتأخرون بعض الأشكال والهيئات ليميزوا بين فرقهم . فعلى سبيل المثال نجد عبدة فشنو لهم علامتان متوازيتان من وشم ترابى أبيض ، ينحدر من خط الشعر حتى قصبة الأنف مع خط رأس يربط بينها فى الأسفل ، مع إضافة علامة مميزة خاصة بالفرقة التى ينتمون إليها وارتدائهم عقوداً ومساح مصنوعة من خشب شجيرة مقدسة عند فشنو .

أما أتباع شيفا فهم يضعون ثلاثة خطوط أفقية متوازية من وشم ترابى على جباههم . وهذه الأشكال لا تعدو أن تكون إلا شفرات لا يقدر على حل طلاسمها إلا المعلم الروحى لهذه الطائفة ، الذى يحدد لهم طرق العبادة ومواقيت الصلاة .

اليوجا :

اليوجا تعد بمثابة عقيدة الخلاص من الكارما أى التناسخ فى حيوات متعددة للتكفير عن الخطايا حتى لا تستمر عملية التناسخ إلى مالا نهاية متفادية لهذا العبث الذى تقوم به الروح . اخترع الهندوس شعيرة اليوجا بغية السيطرة على النفس إتقاء لعمل الخطايا أو إرتكاب الذنوب من جهة، وميرانا على التحكم فى العالم بعد ذلك من جهة أخرى فقد بدأت بحركات رياضية وتنفسية ثم أصبحت نظاماً للتفكير مع إعتبار النقشف تعليمياً أولاً لها ، وزعموا أن اليوجيين يستطيعون تطهير أنفسهم وإخراج أرواحهم من جسدها لإنقاذ أنفسهم من عذابات الجسد وتهيأتها للاتحاد بالذات الإلهية العالية . ذلك فضلاً عن صنع المعجزات كالسير فى الهواء والخوض فى النار والتقاط الأعيرة النارية (٢٣) .

* * *

المجترؤون والملحدون

يبدو أن التجديف والإلحاد فى الديانة الهندوسية له مفهوم خاص جداً فالشرك أو تفضيل إله عن آخر لا يعد فى الهندوسية إلحاداً وكذا استحداث طقوس للعبادة لا يعتبر من باب البدع ولا يدرج تحت التجديف فتهمة الهرطقة أو الإلحاد أو الكفر لا توصم عندهم إلا لمن يخرج على تعاليم البراهمة بوصفهم ظل الله على الأرض ولسانه الذى يحاورهم أو ينكر قداسة نصوص الفيदा . وسوف نستعرض فى السطور التالية أهم الفرق والنزعات الإلحادية طبقاً لهذا المفهوم .

المنبوذون :

ويمثلهم زنوج الهند الذين لم يعتنقوا الهندوسية وتتلخص عبادتهم

فى عبادة الأرواح ، وأشهر آلهتهم كومة من الأجر تمثل أم القرية أو شيطانها الذى يمنح الخصب للعواقر . وقد تمردوا على تعاليم البراهمة التى تفرق بين طبقات المجتمع الهندى ، وتجعل منهم مجرد خدام لا حقوق لهم فى مجتمع السادة . الأمر الذى جعلهم يجحدون كل التعاليم الهندوسية وقد جمعوا فى دعوتهم بين الأساطير الخرافية التى تؤكد وجود عالم الآلهة وعالم الشياطين وبين بعض التعاليم المسيحية والإسلامية التى تدعو إلى التسامح والمساواة . ويرى أتباع هذه الفرقة أنهم أحق الطبقات بثروات الهند لأنهم سكانها الأصليون (٢٤).

الشكاك والمرتابون :

إن جذور الهرطقة والارتياب يمكن التماسها فى ملحقات كتاب الفيدا نفسه وبالتحديد فى الأوبانيشاد حيث ورد قصة شاب يدعى ناسيكيثاس أرسله والده إلى إله الموت فلم يجده فراح ينتظره حتى جاء وقام الإله بالاعتذار للشاب عن التأخير وطلب منه أن يتمنى ثلاثة أمنيات فسأله الشاب أن يخبره بمصير الروح بعد الموت وأخبره إله الموت بأن هذا السر لا يعلمه الآلهة . فانصرف الشاب عنه وهو مرتاب فى أمر خلود الروح والتناسخ والكارما .

ويمكننا الوقوف كذلك على إحدى دروب الارتياب فى تعاليم الفيدا وأحاديث البراهمة عند السوفسطائيين الهندوس أولئك الذين سخروا من كل ما جاء فى أساطير الفيدا وأشعار الكهنة وشككوا فى المعارف التى حوتها . وأكدوا أن الحقيقة لا توجد فى الكتب المقدسة بل التى يرونها بحواسهم ويحكمون عليها طبقاً لوجودها فى الواقع .

وبدا الإلحاد كذلك واضحاً عند الماديين اللادينيين أولئك الذين راحوا يسخرون من تعاليم الفيدا ومن أقاويل كهنة البراهمة وأولئك عرفوا " باللوكايانا " (أى بالماديين) .

وتبدو كذلك عند المدرسة اليوجية التى لم تعبأ بتعاليم البراهمانية بحجة أنها تافهة وغير معقولة ، وباعتقادها أن الإنسان هو الحقيقة الوحيدة فى العالم . ويؤمن أنصار هذه المدرسة بأن الدين الحق يخلو من الطقوس والقرايين . بل يقوم على نبذ الشهوات واجتناب الرذائل وذلك عن طريق ترويض النفس على الفضيلة .

البوذية :

وهى حركة إصلاحية دينية ضد سلطة البراهمة وتعاليمهم واستحالت بعد ذلك إلى ديانة كبرى سوف نتحدث عنها بشيء من الإسهاب فيما بعد .

الجينية :

وهى حركة روحية أقرب فى تعاليمها من طرق الصوفية وترمى إلى الخلاص والإنعتاق من تعدد الحيات وتناسخ الأرواح وقانون الكارما . وقد تحولت إلى ديانة فى القرن الخامس عشر وسوف نتناولها بشئ من التفصيل فى الصفحات التالية (٢٥) .

السيخية :

وهى فرقة حاولت الجمع بين التعاليم الهندوسية والديانة الإسلامية وسوف نتناولها أيضاً بشئ من التفصيل .

فرقة براهمو :

وهى ترد الى " رام موهان روى " وقد ظهرت فى كلكتا عام ١٨٢٨ وقد حاول مؤسسها الجمع فى دعوته بين الأديان السماوية والمعتقدات الهندوسية . فراح يؤكد على أن جوهر البوذية والجينية والمسيحية والإسلام واحد ، وناذى بعقيدة التوحيد وعبادة الله المنزه عن التجسيد والتشبيه وأنكر أساطير الفيدا وشكك فى مصداقية أقوال البراهمة .

حركة أريا :

نادى أصحابها بالعود الى النصوص الفيدية الساذجة باعتبارها الكتاب المقدس الذى يحوى كل القيم والمبادئ والنظم وسائر العلوم وذلك بعد تخليصها من المؤثرات الدخيلة عليها من مسيحية وإسلامية وبوذية وجينية والأساطير الوثنية والنظريات الفلسفية وعلى رأسها فكرة وحدة الوجود ودعا مؤسسها إلى الوحدانية ونبذ طقوس البراهمة والتأويل العلمى لأشعار الفيدا .

وقد أنقسم أتباع هذه الحركة المعاصرين إلى فريقين : - محافظين وهم الذين تمسكوا بحرفية نصوص الفيدا . ولبيرالين وهم الذين أعملوا

العقل فى تلك النصوص وأولوها بما يتوافق مع ثقافة العصر .

الحركة العلمانية :

وترمى إلى نبذ الهندوسية بكل ما فيها من أساطير ومعتقدات روحية بوصفها درب من الخرافة وإتباع الأسلوب العلمى فى التفكير والاتخاذ من الفلسفات المادية ولا سيما الشيوعية سبيلا للتقدم وإقامة العدالة الاجتماعية .

وإذا ما استعرضنا المحتوى العقدي للفرق السابقة سوف نتبين أنها تشتمل على جل أشكال الإلحاد واتجاهاته :-

فالمنبوذون يمثلون الإلحاد الناقص لأنهم مؤلهة أما وجهتهم فهي أقرب إلى الثورة على الفكر الاجتماعى الدينى الذى سلبهم حقوقهم وأحط من شأنهم .

أما الشكاك والمرتابون فهم يمثلون إحدى صور الكفر بالمحتوى المعرفى للدين وتمثل نقودهم عزوفاً عن التراث الغيبي العقدي .

أما إلحاد البوذيين والجينيين فلا يعد تجديفاً على جوهر العقيدة الروحية أو إنكاراً للألوهية بل بعد إنكاراً لتعاليم البراهمة والشعائر والطقوس التى ابتدعوها . ومن ثم يعد هذا الإلحاد لوناً من ألوان الثورة على سياسة رجال الدين من جهة ، وشكلاً من أشكال الإلحاد التقويمي الذى يسعى إلى الإصلاح العقدي من جهة أخرى .

بينما يمثل إلحاد العلمانيين صورة الإلحاد الكامل وذلك لأنه يرفض الدين الهندوسى بالجملة (العقيدة - الشريعة - الطقوس والشعائر) . ويدين بالعلم والفلسفة بدلاً منه غير عابئ بقضايا التآليه وعالم الروح (٢٦) .

تعقيب

* لا ينبغي علينا تقدير تلك المؤثرات أو مواطن الشبه التي تجمع بين بعض المعتقدات الهندوسية وآراء بعض الصوفية من جهة ، وفرقة السيخية من جهة أخرى . وذلك لأن جميعها لا يربو أن يكون لونا من ألوان الإلحاد أو المستقد الفاسد الذي يخرج صاحبه من الهندوسية والإسلام معا ولم نورد هذه الأوجه من التشابه إلا مسaire لطبيعة المنهج المقارن المتبع في دراسة الملل والنحل وإن كانت هذه الأفكار كلها من منظور الإسلام ملفوظة تماما باعتبارها إلحادا خالصا .

قال تعالى : {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} (المائدة الآية ٧٧) .

* إن محاولة البراهمة لتجريد الآلهة وجمعها في صورة براهمان محاولة فاسدة لأنها لم ترق إلي التنزيه الذي يخرج الإله من صيغ التأنيث والتذكير والصور المحسوسة والنسب والمحاكاة والتولد التي نفتها الأديان السماوية باعتبار أنها تكلمت عن الله بما أخبر رسله .

جاء في القرآن الكريم {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الشورى الآية ١١) .

وأيضا سورة الإخلاص : {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ} إلي آخر السورة .

ولا يعد ما جاء في الأنجيل والتوراة من صور للتجسيد حجة ضد صفات التنزيه الخالص التي وردت في القرآن . وسوف نتناول ذلك بشيء من التفصيل في موضعه من هذا الكتاب .

* أن صفة القداسة التي يضيفها علي كتبهم لا تعدو أن تكون إكبارا وتبجيلا لموروث فاسد ، يضم بين جنباته كما هائلا من الآداب والأشعار والأساطير وأقوال الكهنة السابق منهم واللاحق - إلي غير ذلك كما بينا :- .

الأمر الذي يصرف صفة القداسة عن دلالتها ومعناها فالمقدس عندهم من صنع أيديهم علي حين أن الأمر يختلف تماماً في الأديان السماوية بعامة وفي الإسلام علي وجه الخصوص .

فالقداسة في الدين الإسلامي محصورة في القرآن وما صح عن رسول الله وما دونهما قابل للنقد والنقض .

قال تعالى : {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (الزمر الآية ٢٣).

وأيضاً : {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} (النساء الآية ١٢٢) .

وأيضاً : {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} (النساء الآية ٨٧) .

وقد وضع العلماء بعض الضوابط التي تغلق الباب أمام كل من يريد إضفاء صفة القداسة علي تعاليم أو معتقدات مغايرة لأصول الديانة . ويدخل في هذا الباب تعاليم الشيعة والبابية والبهائية والقدانيية وغيرها من الفرق الفاسدة .

قال تعالى : {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (الحشر الآية ٧) .

وقول النبي ﷺ : {من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه رد} .

* أن مفهوم النبوة في الديانة الهندوسية يجمع بين الكاهن والفيلسوف والعراف وأصحاب القدرات الخاصة من السحرة والمشعوذين مما يجعل من النبوة أمراً مكتسباً وهذا المفهوم يخالف تماماً المفهوم الشرعي للنبوة . إذ النبوة في الشرع اصطفاء من الله لمن يشاء من عباده .

جاء في القرآن : {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (الحج الآية ٧٥) .

والجدير بالإشارة أن بعض فلاسفة الإسلام قد دنا من هذا الرأي

ومنهم الفارابي وغلاة الصوفية والشيعة علي مختلف طوائفهم وقد وضعوا نصوصاً مكذوبة لخدمة أفكارهم . وقد أغلق القرآن الكريم هذا الباب تماماً .

قال تعالى : { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا } (الأحزاب الآية ٤٠) .

* إن اعتقاد الهندوس بالتناسخ ، وإنكار البعث وإيمانهم بقانون الكارما، الذي يجعل من الإنسان ربا لمقدراته . وكذا فكرة وحدة الوجود، وجعل الاتحاد بالله هو الملجأ والخلص . وتحول الكائنات من جنس إلي آخر .

كل ذلك يتعارض مع ما جاء في القرآن .

قال تعالى: { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } (الإسراء الآية ٧٠) .

وقال تعالى: { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } . * الصفات الآية ٩٦ .
وأيضاً قوله تعالى : { ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } (الأنعام الآية ١٠٢) .
وأيضاً قوله تعالى : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (البقرة الآية ٢٨) .

والجدير بالذكر أن هذه القضايا العقدية والفكرية كانت مسار متناقضات ومساجلات المتكلمين والفلاسفة والصوفية في الحضارة الإسلامية أولاً ثم انتقلت لمفكري اليهودية والمسيحية بعد ذلك .

* أن مفهوم القرابين في الديانة الهندوسية يختلف تماماً عن مفهوم الأضاحي في الديانة الإسلامية وذلك لأن الله لا يناله شيء البتة مما يُقدم من الأضاحي والنذور والهبات قرباناً لله تعالى .

قال تعالى : { وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَن يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِن يَبَالُ النُّفُوسَ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } (الحج الآيات ٣٦ ، ٣٧) .

مراجع الفصل الثالث

مرتبة حسب ترتيب الورود

- (١) أورسيل بول ماسون : الفلسفة في الشرق ، ترجمة محمد يوسف موسى ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
- (٢) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة عبد الغفار مكاوي ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ١٧٣ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مايو ١٩٩٣ ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
- (٣) أ. و. ف. توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم ، مراجعة علي أدهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .
- (٤) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : الندوة العلمية للشباب الإسلامي ، الرياضي ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٩ هـ ، ص ٥٣١ .
- (٥) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين ، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ١٩٩ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يوليو ١٩٩٥ ، ص ٣٩ ، ٤٢ .
- (٦) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .
- (٧) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ٢٨٣ .
- (٨) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٩١ : ١٩٣ .
- (٩) أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١١ ، ١٩٩٩ ، ص ٥٠ ، ٥١ .
- (١٠) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٩٦ ، ٩٧ .
- (١١) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .
- (١٢) أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، ص ٤٦ .
- (١٣) محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، ص ١٠٢ .
- (١٤) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ .
- (١٥) محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، ص ٩٧ ، ١٠٥ .
- (١٦) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .
- (١٧) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص ١٥٨ ، ١٦٢ .
- (١٨) نفس المرجع ، ص ١٤٧ : ١٤٩ .

- (١٩) محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، ص ٩٤ .
- (٢٠) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص ١٥٦ .
- (٢١) أحمد شلبي ، أديان الهند الكبرى ، ص ٤٨ .
- (٢٢) أورسيل بول ماسون : الفلسفة في الشرق ، ص ١٢٨ : ١٣٠ .
- (٢٣) أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، ص ٣٨ .
- (٢٤) أديب صعب : الأديان الحية نشوؤها وتطورها ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص ٣٠ .
- (٢٥) أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، ص ٤٠ .
- (٢٦) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص ٤٢ .

الفصل الرابع

الديانة

الكونفوشوسية

النشأة والتطور

يجمع معظم الباحثين في تاريخ الأديان علي أن الكونفوشيوسية أقرب إلي ميدان الفلسفة منها إلي ميدان الدين والعقائد . فهي لا تعد عندهم إلا نسقاً أخلاقياً وسياسياً واجتماعياً ، استمدته من الثقافة الموروثة .

وأن كونفوشيوس الذي ترد إليه هذه الفلسفة لا يعدو أن يكون أحد الحكماء الذين قاموا بتهذيب الموروث من العادات والتقاليد والأعراف.

متجاهلين بذلك المظاهر الدينية الكونفوشية من طقوس وعبادات وقرابين ومعابد وآلهة وغير ذلك من الأمور المعهودة في الديانات الوضعية القديمة (١) .

- ويبررون ما ذهبوا إليه بأن كونفوشيوس قد ظهر في عصر ازدهار الفلسفة الصينية * الممتد من القرن السادس حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، وأن جل أفكاره جاءت مبررة للتغيرات السياسية والاجتماعية التي عاشها الصينيون آنذاك . وأن تعاليمه لا تعدو أن تكون نظرية أخلاقية فلسفية وإن بدت في ثوب ميثولوجي أسطوري (٢) .

ذلك فضلاً عن اعتراف كونفوشيوس نفسه بأنه ليس قديساً بل حكيماً . بينما يعدها بعض الدارسين تطوراً لديانة أسرة شانج - التي حكمت الصين من القرن السادس عشر حتى القرن الحادى عشر قبل الميلاد - تلك التي كانت تؤمن بالعرافة وعالم الروح وإمكانية الاتصال به ومخاطبته عن طريق الكهنة ، وتؤله قوى الطبيعة بجانب

* ظهرت الفلسفة الصينية في طبقة النبلاء وقام المشتغلون بها بمهمة تعليم أبناء الطبقة الأرستقراطية (فن الحياة - الحكمة العامة - الحكمة الدينية - الشعر والموسيقى) وظهرت أول أكاديمية للفلاسفة في القرن الرابع قبل الميلاد وكانت بمثابة الإرهاصات الأولى لأكاديميات العصر الإمبراطوري والجماعات الصينية الحديثة . وقد حرص الأمراء منذ ذلك الحين على مصاحبة الفلاسفة والتأدب عليهم وعقد المناظرات بينهم في قصورهم . وكان كونفوشيوس واحد من أولئك الحكماء الذين اشتغلوا بالتدريس وكان لهم مدرسة فلسفية عريقة .

أرواح الموتى التى عرفت بنحلة الأرواحية * التى عملت أسرة تشو - التى حكمت الصين من ١٠٢٧ الى ٧٧١ ق.م - على ترسيخها حتى أضحت أقوى الديانات الشعبية الصينية آنذاك .

وقد ذهب أنصار هذا الاتجاه الى اعتبار كونفوشيوس مهذباً لهذه الديانة وأنه نجح بإصلاحاته وتقويماته فى تطويرها ويستشهدون على صحة آرائهم بهائتيك التعاليم والمبادئ التى انتحلها كونفوشيوس من ديانة أسرة تشو باعتبارها الأصول الروحية والتراثية المقدسة لدعوته الجديدة المتمثلة فى إقراره بنظرية التنصيب السماوى لحكماء الصين، وقدرية حركة التاريخ التى تولد وتبقى وتنفى بمقتضاها الحضارات ، وإيمانه بوجود الموجود الأسمى إله السماء. ذلك كله فضلاً عن تقديس الصينيين له باعتباره إلهاً معبوداً تقدم له القرابين (٣) .

وإذا تجاوزنا هذا الخلاف الذى مازال قائماً بين الباحثين المعاصرين حول طبيعة الفكر الكونفوشيوسى ونظرنا إلى الكونفوشيوسية باعتبارها إحدى الديانات المعاصرة العريقة فسوف ندرك أن أصولها ومعظم تعاليمها ترد الى كونفوشيوس ** (٥٥١ - ٤٧٩ ق .م) أما تأويلاتها

* الأرواحية ANIMISME إحدى النحل التى تؤمن بأن العالم مكون من كائنات روحية. وأن هناك ملكات غير محسوسة كامنة وراء الاحساسات والعقل . وأن التفكير والإبداع الفنى وليد الإلهام الذى أحدثه نشاط غير عادى لهذه الملكات . وتعتقد كذلك فى نظرية الطرح الجزئى التى تقضى بأن الأرواح البشرية تقوم بسياحات كونية بعيداً عن الجسد أثناء النوم وقد تتحد بالروح الكلى أو تهبط لمحادثة أرواح الجن والعفاريت أو تتصل بأرواح الكائنات الدنيا كالحوانات والنباتات والحشرات والجمادات . ويعد هذا الاعتقاد من أقدم المعتقدات الروحية المعروفة فى الديانات الشعبية العريقة .

** كونفوشيوس هو كونج فوتسو أى المعلم كونج وقد انحدر من أسرة نبيلة كانت تحكم ولاية سانج وهى إحدى ولايات الصين . وتروى بعض الروايات أنه كان ابناً غير شرعى عاش والده " هو " أمه دون موافقة أسرته وقد توفى بعد ولادته مباشرة وقد نشأ كونفوشيوس نشأة دينية وعمل برعى الأغنام والإشراف على الحدائق والأشغال العمومية عند أحد الأمراء وقام بتنقيف ذهنه بقراءة التاريخ وحفظ الشعر وسماع الموسيقى ثم ارتحل بعد ذلك وراح يبشر بحكمة أخلاقية جديدة وأنشأ مدرسة لذلك وهو فى الثانية والعشرين . وبلغ عدد تلاميذه ثلاثة آلاف تلميذاً أصبحوا بعد ذلك من أكابر رجالات السياسة والفلسفة فى عصره . وكان كونفوشيوس طويل القامة أنيق الملبس كثير المرح دائم السخرية فصيحاً وخطيباً بارعاً عميق الفكرة موجز فى حكمته محافظاً فى آرائه وكان عل دين العوام ، وقد أخذ عنه تلاميذه معظم هذه

فترد إلى تلاميذه وأتباعه (٤) .

وقد مرت الكونفوشيوسية بأطوار عديدة :- فظهرت بدايتها على شكل حكم أخلاقية ونصائح تربوية على لسان كونفوشيوس الذى ما برح يطورها لتشمل كل أمور الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى أضحت تعاليمه بمثابة حلماً يوتوبياً أو مدينة فاضلة وعلى الرغم من افتقار الحكم الكونفوشيوسية للاتناق الفلسفي المعهود فى النظريات الفلسفية الكبرى إلا أن شذراتها على تباينها كانت تخلو من مواطن النقص والتناقض الأمر الذى كان وراء رسوخها عند تلاميذه ومريديه (٥) .

وقد ساهمت وجهة كونفوشيوس المحافظة تجاه المعتقدات السابقة عليه [الاعتراف برب السماء - احترام الطقوس الدينية - الإيمان بعبادة أرواح الأجداد - تأليه الحكام والأبطال] وتجنبه الصدام بالقوى

الخصال . وسرعان ما أدرك كونفوشيوس أنه فى حاجة لتعلم الحكمة العقلية والدينية فارتحل برفقه أحد تلاميذه إلى مقاطعة تشو وتتلذذ هناك على الفيلسوف الصينى لاوتسو (نحو ٦٠٤ ق.م) - وهو مؤسس الديانة الطاوية وصاحب كتاب الطريق والفضيلة - وتعلم الموسيقى على هيسانج تسى وتعلم كذلك الحساب وقيادة العربات والرسم والرماية والطقوس الدينية على كثير من حكماء الصين الذين قابلهم فى ترحاله . وفى سن الثلاثين أى نحو عام ٥٢٢ ق.م عاد إلى بلده " لو " ليعمل بالتدريس ثانية فى مدرسته ويتأديب أبناء الأمراء . وفى سن الخمسين عمل قاضياً بمقاطعة شانج تى وقد أطلق عليها سكانها المدينة الفاضلة نظراً لعدالة وحكمة كونفوشيوس فى تسييسها . وقد أهله كياسته فى السياسة إلى بلوغ منصب رئيساً لوزراء دوق مدينة لو ، وقد بلغت حكمته السياسية مداها واخترقت شهرته الآفاق حتى لقبه الصينيون بالمعلم الداهية ، وراح أمراء الصين يستشيرونه فى كيفية تدبير شئون مقاطعتهم . غير أن حاكم " لو " أهمل شئون دولته واستجاب لإغراءات النساء الأمر الذى دفع كونفوشيوس إلى مغادرة مدينته إلى ولاية " واى " غرب " لو " ولم يستقم هناك له المقام فارتحل ثانية إلى ولاية " تشن " ومنها إلى ولاية واى وفى أبريل عام ٤٧٩ ق.م توفى كونفوشيوس فى مدينة لو مسقط رأسه ودفن على نهر إبتس وقد تجمع حول مقبرته تلاميذه وعائلاتهم حتى أضحت هذه المنطقة قرية قديمة أطلق عليها كونج أو كنج واستحال قبره إلى معبد تقام عنده الذبائح وحفظت فى هذا المعبد ملابسه وآلاته الموسيقية وكتبه وعرياته . وقد بالغ تلاميذه وأتباعه فى تعظيمه حتى رفعوه إلى مصاف الآلهة وفى عهد الإمبراطور الأول لأسرة " هان " أى حوالى عام ٢٠٦ ق.م عبد كونفوشيوس مع آلهة الصين وقدمت لروحه القرابين .

السياسية الحاكمة في انتشار تعاليمه ورفعة مكانته عند الصينيين (٦). وقد تطورت تعاليمه على يد تلاميذه الذين انقسموا من بعده إلى اتجاهين وذلك منذ مطلع القرن الرابع قبل الميلاد ويمثل الاتجاه الأول "منج كو" الملقب بمنشيوس (٣٩٠-٣٠٥ ق.م) وقد وصفه المؤرخون بأفلاطون الصين ويرجع ذلك لوجهته المثالية في تأويل تعاليم كونفوشيوس . إذ ذهب إلى أن غاية الإنسان هي الوصول إلى الخير الأسمى والتخلي بالفضيلة التي تميزه عن سائر المخلوقات وأن الحب هو الطريق الذي يؤدي إلى العدالة المطلقة وأن الحاكم الحق هو الذي يرفع شعبه ويحقق لهم بحكمته العدالة والمساواة (٧).

ومن ثم ذهب إلى أن الفضيلة وحدها لا القوة هي التي تعلو من شأن الحاكم ، وتؤهله لاعتلاء العرش وتضمن له ولاء رعيته . وعلى الرغم من مثاليته الأخلاقية رفض شعار المحبة الإنسانية الذي رفعه كونفوشيوس وأعلى عليه الولاء العائلي والاجتماعي ، وجعلهما نقطة الانطلاقة للولاء والتأخي الإنساني (٨) . وأقر كونفوشيوس على أن الإنسان خير بفطرته وأن الفضيلة مقرها العقل وأن الإنسان يستطيع أن يتحكم في مقدراته عن طريق تهذيب نفسه وتقويم عقله وتنقيته من الأفكار الفاسدة غير أنه خلص الإنسان من قدرية الحاكم التي كانت تؤيدها المعتقدات السابقة . وفرق بين الطبيعة الفطرية الخيرة للإنسان وبين السلوك الأخلاقي الذي يكتسبه بمحض إرادته وبقدر علمه . ورد وجود الشر إلى سوء التربية ، وعجز الفرد عن قمع شهواته وأخيراً جهله وقلة معارفه (٩) .

وقد عالج بذلك مواطن القصور في تعاليم كونفوشيوس إذ انصب اهتمامه على الشعب ، وجعل مصلحته في مقدمة الفضائل التي يجب على الحاكم تحقيقها حتى يصبح إنساناً فاضلاً وبطلاً معبوداً .

أما الاتجاه الثاني فيمثلته هسون تسو (٣١٢ - ٢٣٨ ق.م) وهو يعد الرجل الثالث في الديانة الكونفوشية ، ويرد إليه صياغة تعاليمها في صورة منطقية . حيث ذهب إلى أن الفضيلة ليست إرثاً ولا فطرة بل هي متمدن ومطعم وسعى يجب أن يسلكه الفرد من أجل التخلص من فطرته الشريرة . ومن ثم تكون الفضيلة عنده مكتسبة وتكمن سبل تحصيلها في التعليم والإقتداء بسنة الحكماء الأجداد وقد جعل العلم لا القوة هي السلم

الأوحد للإرتقاء إلى كرسى الحكم (١٠) .

وقد نحى هسون تسو منحى إلهياً مغايراً لسابقه إذ رغب عن فكرة إله السماء وفكرة المثال الأخلاقي . وأعرب عن انكاره لفكرة وجود إله متعالى ، والإعتقاد فى الصيرورة والطبيعة غير المشخصة .

ويبدو أن هذا التطور الذى طرأ على تعاليم كونفوشيوس لم ينجح فى إقناع رأى العام الذى لم يجد فى تلك التعاليم جواباً شافياً عن العديد من التساؤلات التى طالما سعت الأديان إلى الإجابة عنها منها : ما الموت ؟ وما هو مصير الروح بعده ؟ وما هو الثواب الذى يثابه المرء عن أفعاله الخيرة ؟ وغير ذلك من الأمور الغيبية التى لم يتطرق إليها شراح كونفوشيوس فى هذه الآونة .

ذلك فضلاً عن عزوف تلاميذه عن مناقشة النظام الاجتماعى الطبقي السائد فى الصين آنذاك . الأمر الذى كان وراء إقبال الصينيين على اعتناق البوذية التى تسلت إلى الثقافة الصينية منذ أواخر القرن الثانى الميلادى

وانتحال بعض الأفكار التاوية التى قام بتطويرها " شوانغ تسو " فى هذه الحقبة ذاتها (١١) .

فقد تأثرت الكونفوشية تأثراً كبيراً بالمعتقدات الروحية الصوفية للديانتين البوذية والتاوية فى عهد أسرة هان (٢٠٦ ق.م - ٢٢٠ م) الأمر الذى دفع أتباع كونفوشيوس لصياغة بعض الأساطير التى تجعل لفكرة تأليه الأبطال أسس عقدية وأنساب إلهية محاولة منهم للتصدى للأفكار البوذية واستمالة الأباطرة والنبلاء إليهم . وفى عام ٢١٢ ق.م واجهت الكونفوشية اضطهاداً عظيماً فى عهد الإمبراطور " تشى إن شهوانج " إذ قام بحرق كتبهم وتفسيراتهم ودفنهم أحياء ثم ثار الشعب على الحاكم من جراء هذا الفعل (١٢) .

وفى عهد الإمبراطور ووتى (١٤٠ - ٨٧ ق.م) أصبحت الكونفوشية ديناً رسمياً فى الصين .

وفى عام ٥٩م صدر مرسوم إمبراطورى بتقديم القرابين لكونفوشيوس باعتباره أحد الآلهة .

غير أن هذه المحاولات كلها لم تغلح فى الحد من انتشار البوذية التى كان يعتبرها الجمهور طوق النجاة من الحكم الطبقي وظلم الحاكم

الذى جعلته الكونفوشية قدرا عليهم لا مرد له .
فتذكر بعض الكتابات أن البوذية في عام ٣٨١ م قد انتشرت في
شمال غرب الصين انتشاراً كبيراً ، بلغت نسبة معتققيها ٩٠% من
سكان هذه المنطقة . على حين انتشرت التاوية في جنوب غرب
الصين ، وقد بلغت الكتب البوذية المقدسة المترجمة إلى الصينية في
هذه الفترة أربعة وتسعين كتاباً .

غير أن كفاح الكونفوشيين للبوذية والتاوية لم ينقطع ففي عام
٥٠٥ م أوغزوا للإمبراطور "وو" ببناء معبد لكونفوشيوس في
عاصمة الصين (١٣) .

بيد أن جهودهم لم تفلح أيضاً فسرعان ما تحول الإمبراطور في
أخريات عهده - الذى امتد من (٥٠٢ - ٥٤٩ م) - إلى البوذية فسن
أول قوانين صينية بوذية حرم فيها ذبح الحيوانات أو إيذاءها ، لتتأفى ذلك
مع تعاليم بوذا . وزاد في عهده عدد المعابد والأوقاف والنساك البوذيين .
وقد استشعر الإقطاعيون وكهنة الكونفوشية وأمراء وأباطرة
الصين خطر تعاليم بوذا على كيانهم السياسى . فحاولوا بعث تعاليم
كونفوشيوس في الثقافة الصينية من جديد فقرر الإمبراطور " تاي
تسانج " في عام ٦٣٠ م بناء معابد مزودة بتمائيل لكونفوشيوس في
جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأنشأ أيضاً في عام ٦٤٧ م كليات
إمبراطورية لتعليم الآراء والفلسفة والدين الكونفوشى (١٤) .

وفى عام ٦٦٥ م أطلق على كونفوشيوس لقب الأستاذ العظيم .
وفى هذه الآونة تسللت الديانة المسيحية والمانوية والمزدكية
والإسلامية الى الصين بيد أن أثرها جميعاً كان محدوداً جداً .

وفى عام ٧٣٥ م منح كونفوشيوس لقب ملك .
وعلى الرغم من ذلك لم تتجح الكونفوشية فى القضاء على البوذية
فى الصين . الأمر الذى دفع بعض رجالاتهم بمعاونة كهنة التاوية فى
تحريض الأباطرة الصينيين على البوذية ففي عام ٨٤٥م أمر
الإمبراطور بهدم نحو أربعين ألفاً من المعابد البوذية وتحويل مائتين
وستين ألف ناسك وراهبة عنها (١٥) .

وفى الفترة من القرن التاسع إلى بدايات القرن الثانى عشر نجحت
الكونفوشية فى استرداد بعض هيمنتها على الثقافة الصينية بفضل

نزعتهما التوفيقية التي نجحت في طبع المسيحية والبوذية والتاوية بطابعها وأطلق زعماءها على مذهبهم اسم الكونفوشية الجديدة .

وقد مثل هذا الإتجاه أتباع منشيوس الذين أضفوا على الكونفوشية طابعاً صوفياً يجمع بين تعاليم كونفوشوس الأخلاقية الإنسانية وبين رهبنة بوذا الروحية ، وزعموا أن روح كونفوشوس قد أملت عليهم تعاليم جديدة أو ملاحق عالج فيها الأمور التي لم يتعرض لها في حياته الأرضية مثل خلق الكون ومصير الروح .

ويعد "تشو هي" (١١٣٠ - ١٢٠٠م) "ليو هسيانج شان" (١١٣٩ - ١١٩٣م) من أعظم ممثلي هذه المدرسة . فيمثل الأول إتجاه المبدأ الذي يرى أن كل الأشياء مكونة من مبدأ روحي ومادة ، تُرد أصوله إلى مبدأ أعظم هو الأول الأسمى السرمدى .

أما "ليو هسيانج شان" فيمثل الاتجاه الحدسي ، الذي يرى أن إدراك الحقيقة يتم عن طريق الحدس أي المشاهدة الذهنية (١٦) .

وفي عام ١٠١٣ م لقب كونفوشوس بالقدّيس الأعظم . وفي عام ١٣٣٠ م منح الأفراد المنحدرون من سلالته مرتبة الشرف وأصبحوا من طبقة النبلاء .

وفي عام ١٥٣٠ م بدلت تماثيل كونفوشوس باللوحات حتى لا تختلط الكونفوشية بالوثنية (١٧) .

وفي عام ١٦٠٠ م نجحت جمعيات الجيزويت التبشيرية في دخول الصين ونشر المسيحية على نطاق أوسع وذلك بمعاونة الخارجين على الكونفوشية .

ومنذ مطلع القرن العشرين بدأ نجم الكونفوشية في الأفول ففي عام ١٩٠٥ م ألغيت الحكومة شرط الحصول على شهادة من مؤسسة التعليم الكونفوشية للتوظيف في الحكومة . وذلك عقب إنتحال أساتذتها العديد من عقائد الديانات إذ تأثروا في تعاليمهم بصابئة الشرق فأقروا عبادة النجوم ، وفكرة وحدة الوجود البوذية ، وتقديس الإله المتجسد في صورة الإنسان التي جاءت في المسيحية .

وفي عام ١٩١٢ م ثار الشعب الصيني على النظام الإمبراطوري عقب سقوط الشهاب " هالي " إعتقاداً منهم بأن سقوطه يعبر عن استياء إله السماء من أفعال أسرة مانتشو وللنظام الإمبراطوري كله

الأمر الذى برر تبني الصين النظام الجمهورى . وفى نفس العام ألغت الدولة تدريس تعاليم كونفوشيوس فى مدارسها الحكومية (١٨) . وفى عام ١٩١٤ حاول رئيس الصين "ياه شاه كى" إحياء الديانة الكونفوشية فقدم القرابين وأقام الطقوس لإله السماء وفق تعاليم كونفوشيوس ، وبنيت كنيسة كونفوشية وجامعة للعلوم فى بكين . غير أن هذه المحاولات لم تستطع الصمود أمام جحود الشباب للعقيدة الكونفوشية وتعاليمها التى وصفوها بأنها رجعية تعمل على تقييد الحريات .

وفى عام ١٩١٦ م أسس " تشين تو - هسيو" مجلة الشباب الجديد وتزعم حركة تستند على دعامتين هما الديمقراطية والعلم . وأعرب عن رفضه لكل المعتقدات الدينية التليدة (التاوية - البوذية - الكونفوشية) ، ونادى باقتفاء الغرب فى نظمه السياسية . وفى عام ١٩٢٨ م حرمت الدولة تقديم القرابين إلى كونفوشيوس . وفى عام ١٩٣٤ م عادت فألغت القانون ، وأباححت تقديم القرابين له . وأصبح يوم ٢٧ أغسطس عيداً وطنياً فى الصين . وتزعم الجنرال تشانج كاي تشك (١٨٨٧ - ١٩٧٥) حركة البعث الجديد للديانة الكونفوشية ، وأشاع أتباعه أن علة هزيمة الصين فى حربها مع اليابان عام ١٩٣١ م ترجع الى إهمال الكونفوشية (١٩) . ولم تتوقف هذه الحركة إلا بعد سيطرة الشيوعيين على الصين عام ١٩٤٩ م .

وفى عام ١٩٣٧ م أقامت الحكومة الصينية هيكلاً فى نانكينج بكينانج عاصمة كوانج سى . يجمع بين الطابع الكلاسيكى الدينى والسمات العلمانية المعاصرة . رفعت أعلاه لوحة تحوى حكماً لكونفوشيوس وتحتها تمثال رخام نصفى لمؤسس الصين الحديثة صن يات سين ، ومن حوله لوحات تمثل آباء الحضارة الحديثة مثل نيوتن وباستور وجاليليو وجيمس واط وبنجامين فرانكلين . وأراد المستنيرون الصينيون بذلك التعبير عن السمات الثقافية التى تترسمها الصين لمستقبلها (٢٠) .

ويبدو ذلك بوضوح فى تصريحات ماوتسى تونج (١٨٩٣ - ١٩٧٦ م) فى أخريات العقد السادس من القرن العشرين . التى

رفض فيها منطق القوة الشيوعي السوفيتي في القضاء على المتناقضات الثقافية الداخلية إيماناً منه بأن الشيوعية لن تستطيع إقتلاع الدين من تربة الثقافة الصينية مؤكداً أن المساواة التي يدعو إليها ماركس ولينين ليست أعز على الصينيين من تاويتهم أو بوذيتهم أو كونفوشيتهم . وأن تقدم الصين مرهون بقدرة زعماء الشيوعية ، على استحالة شيوعيتهم إلى دين يجمع بين الثوابت الأخلاقية " التابوذ فوشية " ، وبين العلوم الحديثة والديمقراطية التي تعمل على توعية الشعب وترقيته .

وقد ظهرت تأويلات كونفوشية جديدة على يد شوانج شيه لي (١٨٨٥ - ١٩٦٨) لتأكيد هذا المنحى (٢١) .

وفي عام ١٩٧٦ م دعا موتسي تونج الى إعادة المعابد التاوية والبوذية وبعض الكنائس والمساجد ، إعترافاً منه بفسوخ الوازع الديني في الثقافة الصينية ، وتعبيراً عن تسامحه تجاه المتدينين .

وقد أيدت هذه الحركة من قبل بعض الصحفيين الشيوعيين ، الذين أعربوا عن تسليمهم بأن الدين من الثوابت التي لا يمكن الإطاحة بها . وذلك في صحيفة العلم الأحمر عام ١٩٨١ .

ويبدو أن الثقافة الثنائية الصينية التي جمعت بين الدين والعلم في سياق واحد قد مكنت قادتها المعاصرين من تفسير وتبرير وتغيير سياساتهم تبعاً للظروف المحيطة .

فها هي الكونفوشية تقف وراء الاتجاه الليبرالي المعاصر في الصين وتساند التسامح الديني ، الذي أتاح للمبشرين المسيحيين ودعاة الإسلام قدراً موفوراً من حرية الدعوة (٢٢) .

ويجمع المعنيون بتاريخ الأديان على أن الجانب العقدي والأخلاقي من الكونفوشية لم يتزعزع في وجدان الصينيين . وأنه كان وراء ثبات الهوية الصينية ووحدتها القومية .

ويجدر بنا الإشارة إلى أن الكونفوشية قد تخطت حدود الصين منذ عشرين قرناً .

فقد ظهرت في كوريا واليابان في القرن الثالث الميلادي . وسادت على غيرها من الديانات في العصور الوسطى ولا سيما في البرامج التربوية والمناهج الدراسية . لا في كوريا واليابان وحدهما

بل في معظم دول شرق آسيا وجنوبها الشرقي (٢٣) .
ففي القرن السابع الميلادي درجت جامعة " نارا " اليابانية مؤلفات
كونفوشيوس ضمن مناهجها التعليمية .
وفي عام ١٨٩٠ حاكت القواعد الإمبراطورية اليابانية في التربية
تعاليم كونفوشيوس .
أما في أوروبا فظهرت الكونفوشية في القرن السابع عشر على
شكل مؤلفات فلسفية مترجمة منها أحدث الطرائف الصينية للفيلسوف
الفرنسي ليبنز عام ١٦٩٧ م .
وقد ترجمت أعمال كونفوشيوس إلى اللغات الحية على يد الأب
اليسوعي بيتر نويل عام ١٧١١ م (٢٤) .

* * *

مفهوم الألوهية والكتب المقدسة

لقد جمعت الديانة الكونفوشية في فكرها الإلهي بين العديد من
الصيغ والأنماط المتناقضة فعلى الرغم من اعترافها بوجود إله مجرد
نجدها تقر تأليه البشر ويتمثل ذلك في عبادة الأبطال والأباطرة بحجة
أن لهم أنسابا إلهية مقدسة . وتجمع كذلك بين فكرة الوحدة ، والثنائية
والكثرة :-

فتبدو الوحدة في إله السماء السرمدي الذي ترد إليه كل
الموجودات وتتمثل الثنائية في دربين :- أولهما علاقة إله السماء بإله
الأرض وتعاونهما في خلق الحياة . وثانيهما تبدو في تفويض إله
السماء ابنه الحاكم في تسييس شئون دولته (٢٥) .

أما الكثرة فتتمثلها عبادة أرواح الأجداد والأجرام السماوية .

وسوف نتحدث عن هذه الصيغ بشئ من التفصيل

* شائع تى إله السماء الأعلى وهو لفظ مرادف لتين أى السماء .
ومن أسماءه فى العصور الحديثة " تاو " إله النظام العالمي ، وهو

عند البروتستانت الصينيين الإله الأب بجانب " تشن شن " ، ويطلق عليه الكاثوليك الصينيون لقط " تين شو " ، وهو عند المسلمين الصينيين الله (٢٦) .

ويعده كونفوشيوس العلة الأولى لجميع الموجودات ، وواضع السنن الكونية التى تسير عليها كل المخلوقات ، والمتحكم فى مقدرات الآلهة والمصطفى لحكام الممالك - الذى ينعم عليهم بتأييده ونصره فى رضاه ، وينقم عليهم فيدحر ممالكهم عقاباً لعصيائهم له وتعبيراً عن غضبه عليهم - وهو المتحكم فى حركة التاريخ .

* تشن تزو Chun Tze ابن إله السماء المتحكم بتقويض منه فى تنظيم العالم الأرضي والمخول باختيار من ينوب عنه من الملوك والحكام الذين يقومون بدورهم بإعداد التقارير الخاصة بأحوال الممالك الأرضية وأخبار الزرع وتقديم القرابين لأرواح الأسلاف بعامه والإله الأعلى بخاصة وغير ذلك من الطقوس وهى بمثابة الموائيق الدينية المثبتة لحكمه على الأرض والضامنة لرضا وولاء شعبه نحوه .

* الآلهة الخمسة ظهرت هذه الفكرة عقب موت كونفوشيوس وتأليهه . فقد نحى تلاميذه منحاه التوفيقى فى معالجتهم لفكرة الألوهية إذ جمعوا بين الآلهة التليدة المعبودة ، وبين الفكر الثقافي السائد ، وبين الفكر الوليد المطروح . فعبد كونفوشيوس باعتباره إلهاً بجانب أربعة آلهة أخرى تليدة وهى إله السماء الأعظم وإله الأرض وأرواح الأجداد والأبطال وآلهة الجبال والأنهار . وكانت تقدم لهم جميعاً القرابين خرافاً وثيراناً وخموراً وعطوراً ، وأقيمت لهم تماثيل منصوبة فى متحف العظماء (٢٧) .

* أرواح الأجداد تعد فكرة تأليه الأجداد من الأفكار التى ورثتها الكونفوشية من الديانات الشعبية القديمة وأكدتها الهندوسية والتاوية ولم تنكرها البوذية .

ويبرر الكونفوشيون عبادة أرواح الأجداد بعدد من المبررات منها أنها تعبيراً عن الحب والشوق الذى يكنه الأبناء نحو الآباء . ومظهراً للطاعة والانصياع لهم تقديراً للبركات التى تمنحها هذه الأرواح لأحفادها مثل وهبهم القدرة على الإنجاب ، والمباركة فى الزرع والبيع .

وشكراً لهم على النصائح التى يسدون بها تبعاً لعلمهم غير المحدود .
فيعتقد الكونفوشيون بأن هناك لغة رمزية يرسلها ساكنوا السماء إلى
ساكني الأرض لإنبائهم عن الأخطار الآتية والخيرات المنتظرة (٢٨) .
هذا كله فضلاً عن حق التبعية الذي نص عليه عقد الاستخلاف
على الأرض المبرم بين إله السماء وبين خليفته البشرى (الأمير أو
الإمبراطور) فكان يعتقد الكونفوشيون فى أن تنصيب الحاكم من
الأقدار السماوية ومن ثم على المؤمنين طاعة أوامر الحاكم باعتبارها
أوامر إلهية أفضى بها إله السماء لمن استخلفه على الأرض .
وقد طور كونفوشيوس هذا المعتقد إذ جعل طاعة الآباء الأحياء
واجباً مقدساً يجب على كل من يؤمن بالكونفوشية أدائه حتى لا
تصيبه اللعنات . الأمر الذى جعل بعض الباحثين فى فلسفة الدين
تشبيهه بسقراط الذى أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض (٢٩) .
* البطل لقد قدس الكونفوشيون البطل فى صورتين .

أولهما صورة القائد أو البطل البشرى ويمثله " يو " الأكبر
باعتباره منشئ النظام الملكى وبطل الطوفان الأول وجد لأسرة تسو .
وهو - تش أمير ميلت والجد الأكبر لعشيرة تشى .

وقد روى عن كونفوشيوس أنه أباح الكفر بعبادة البطل الحاكم،
والخروج عليه . وذلك عند تخليه عن فضيلة العدالة ، ونكسه العهد
الذى أبرمه مع إله السماء عند توقيع ميثاق تفويضه فى حكم الأرض .
ومما جاء عنه فى ذلك >> أن أساس التفويض الإلهى هو أن يستخدم
الحاكم هذا التفويض لمصلحة الشعب ، وهنا يكون الشعب ملزماً
بالخضوع والطاعة لإدارة الحاكم - أما إذا حاد الحاكم عن الأخلاق
الفاضلة واستغل التفويض لمصالحه الذاتية فإن الشعب لا يكون ملزماً
بأية طاعة له ، وعليه أن يثور لى يأتى مكانه مفوض آخر يراعى
حدود التفويض << .

وثانيهما صورة البطل الإلهى الأسطورى ويمثله " فو - هي " و
" نيو - كوا " وهما زوجان قد أوكل لهما عملية تنظيم وجود الأجناس
فى سائر الموجودات . و " ياؤو " ذو الشكل الشمسى ، المتحكم فى
الكواكب المضيئة ومؤسس الآداب الإجتماعية والأخلاقية . و " شوين
" وهو راعى الإخلاص وغارس بذور المحبة بين البشر (٣٠)

وتتميز فكرة عبادة البطل الصينية عن دونها من الديانات . بأن البطل فيها ينال حظاً موفوراً من التقدير والتقدير والقرايين شأن الآلهة الكبار . ولا شئ يميزه عنهم إلا أن عبادتهم صوريه مرهونة بوجوده ، فسرعان ما يتحول عنه عباده إلى عبادة بطل آخر إذا غاب أو انتهى عهده أو أفل نجمه .

***النجمة القطبية :** وهى من المعبودات المستحدثة فى الديانة الكونفوشية وذلك لأنها لم تظهر إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد بعد وفاة كونفوشيوس ولا يوجد ما يفسر عبادتها فى شذراته وتلاميذه الأول فذهب البعض إلى أن الصينيين يعتبرونها رمزاً للحاكم ويرى البعض الآخر أنها كانت عندهم تمثل إحدى تجليات إله السماء بينما يرى فريق ثالث أنها فكر صابئ قد انتقل إلى بعض الصينيين من ديانات الشرق الأوسط (٣١) .

الكتب المقدسة

يجمع المعنيون بمقارنة الأديان على أن الكتب الكونفوشية المقدسة تحمل طابعاً يميزها عن مثيلاتها فى الديانات المختلفة ويرجع ذلك إلى أن صفة القداسة التى وسمت بها هاتيك الكتب لا ترد إلى قوى غيبية عليا [وحى - حديث الأرواح السماوية] ولا ترجع كذلك إلى مؤسسها الذى طالما أكد على أنه ليس بمبتدع فى تعاليمه . بل أكد على أن حكمه مستقاه من تراث الأجداد الزاخر . وأن تعاليمه ما هى إلا إحياء لسنن السابقين عليه ولم يصرح بأنه يأتيه الخبر من السماء إلا فى شذرات محدودة ، يبدو أنها قد نحتت عليه من قبل بعض تلاميذه الذين غالوا فى تبجيله . فزعموا أنه مفوض من السماء لهداية البشرية ، ووسموه بأنه . (معلم الجنس البشرى) . واعتبروا كتابه المنتخبات بمثابة الإنجيل الكونفوشى وفسروا وصيته لتلاميذه بحفظ حكمه وتبليغها من بعده باعتبارها وصية نبي (٣٢) .

غير أن مضمون التراث الكلاسيكى الكونفوشى يؤكد أن

كونفوشيوس لم يكن سوى مصنفًا ممتازًا لتاريخ أمته . أو قل إن شئت رائداً من رواد التحقيق القلائل الذين انتحوا النقد والتقويم منحاً في عرض وتحليل الفكر الموروث ، الأمر الذي يبرر تقديس الكونفوشييين لكتب كونفوشيوس . فهي عندهم المرآة الصافية التي تعكس لهم أخبار الأسلاف وتحديثهم عن أمجاد الأقدمين وتذكرهم بمجد حضارتهم العريقة التي يستمدون منها الولاء والانتماء والهوية الثقافية (٣٣) .

وسنستعرض في السطور التالية هذه الكتب المنسوبة لكونفوشيوس وتلاميذه من بعده ، مشيرين إلى محتواها ومضامينها العقدية .

كتاب الأغاني :

وهو مختارات من الشعر الصيني المبكر وترنيمات لملوك أسرة تشو وله أهمية خاصة بوصفه أول تعبير أدبي للصينيين عن المشاعر الدينية ويشتمل على عدة ترنيمات وابتهالات واعترافات موجهة إلى الأسلاف من الملوك ، وتراتيل قصصية تروى للآلهة أعمال البسالة وأخبار المعارك وأغاني تشيد بمحاسن الملك وأخرى عهود من الكهنة والرعية للطاعة له بوصفه الحاكم المختار من قبل السماء .

وتحدثنا بعض الكتابات على أن نصيب كونفوشيوس من هذا المصنف يتمثل في تلك الأناشيد الأخلاقية والترنيمات المنغمة التي تشرح أهمية الموسيقى في أداء الطقوس الدينية أثناء تقديم القرابين (٣٤)

كتاب حوليات الربيع والخريف :

يتضمن شذرات من تاريخ مملكة " لو " قام كونفوشيوس بتجميعه وقام من بعده الكتاب الصينيون بشرحه وتفسيره والتعليق عليه كما ظهرت له تفاسير خاصة عرفت بالتفاسير السرية كتبت في عهد أسرة هان . ويحتوى على الأفكار الدينية التي كانت سائدة في تلك الحقبة ونصوص بعض المعاهدات والطقوس الخاصة بالزواج والوفاة في البيت الملكي وبعض الأحداث المشؤمة مثل ظهور مواليد مشوهة أو الكوارث الطبيعية .

ويشيد بعض الباحثين بالشروح التي كتبت لهذا الكتاب ومنه من إرتأى أنها أهم من المتن الذي قام كونفوشيوس بوضعه .

* ترنيمات الشامان :

وهى عبارة عن تسع ترنيمات وهى جزء من مرثيات تشو وطقوس الإحتفالات وبعض الأشعار الجنسية والغزلية والنواح (٣٥) + (٦٥) .

* المختارات أو المنتخبات :

ويقع فى عشرين مجلداً تضمن أقوال كونفوشيوس وبعض التعاليم المنحولة عليه من أقوال السابقين وهى الجزء الأكبر من الشريعة الكونفوشية المقدسة - وقد قام تلاميذ كونفوشيوس بإضافة العديد من التفاسير والشروح إلى المختارات على متنه . وكان يعتبره الصينيون إنجيل كونفوشيوس المقدس .

* الأعمال الكلاسيكية الخمسة أو الجنجات الخمسة أو كتب القانون الخمسة :- وهى الأسماء التى أطلقها الكونفوشيون على مصنفات كونفوشيوس وشروحها وتأويلات تلاميذه وتشتمل على خمسة مصنفات هى :-

كتاب الشعائر

(لى - تشى) وهو جامع للمبادئ الأخلاقية الكونفوشية الخاصة بأداب السلوك الروحى والطبيعى .

كتاب التغيرات

(آى - تشنج) ويشتمل على شروح وتعقيبات وتأويلات مختلفة على كتاب الشعائر .

كتاب القصائد

(شى - تشنج) ويحوى نصائح وحكم ومواعظ كونفوشيوس الأخلاقية .

كتاب حوليات الربيع والخريف

(تشون - تشيو) الذى تحدثنا عنه سلفاً .

وكتاب التاريخ (شو - تشنج) .

كتاب الاتسجام المركزى

كتبه حفيد كونفوشيوس تزس ويعتبر من المؤلفات الأربعة

الرئيسية التى كتبها تلاميذ كونفوشيوس وأتباعه لعرض مبادئ
الكونفوشية ونشرها بين الناس .

المؤلفات الأربعة

وهى من أعمال تلاميذ كونفوشيوس وتحتوى أربع مصنفات تدور
كلها حول تأويلات أقوال كونفوشيوس وهى :-

- * كتاب الانسجام الطبيعي سابق الذكر
- * كتاب المقتطفات الأدبية أو الشذرات وهو عبارة عن أقوال مأثورة
لكونفوشيوس (٣٦) .

كتاب العلم العظيم

الذى يعتبره الكثيرون من طلاب العلم أوضح ملخص للعقيدة
الكونفوشية .

وهذين الكتابين الأخيرين لا يعرف لهما مؤلفاً على وجه الدقة
والتحديد .

أما الكتاب الرابع فهو :

كتاب منشيوس

وقد كتب على غرار المختارات ويحتوى على أقوال المنشيوس
وحكايات توضيحية وحكم وأمثال سائرة . وقد امتاز ببساطة أسلوبه
والإسهاب فى شرح التعاليم . ويعاب عليه تشتت أفكاره ، وتبعثر
آراءه التى قام فيها بتأويل الكتابات السابقة عليه (٣٧) .

* * *

أهم المعتقدات والطقوس

لقد اتخذت المعتقدات الكونفوشية منحى تقليدى محافظ الى حد كبير . فلا نكاد نلمح من بين العقائد التى أقرها كونفوشيوس فى دعوته ما يخالف المألوف والسائد فى مجتمعه . الأمر الذى جعلنا لا نجانب الصواب عندما نصف العقائد الكونفوشية بأنها عقائد تبريرية فى المقام الأول ، وأن دعوتها للتغيير أقل بكثير من الدور التفسيرى الذى اضطلعت به (٣٨) .

فقد عكف كونفوشيوس - كما أشرنا سلفا على دراسة الفكر الموروث ، لينتقى منه ما يعينه على تبرير الواقع الذى يعيش فيه . وقد مكنته أريحيته من فحص القيم الموروثة وانتخاب الأصيل والثابت منها، ليعيد تأويله وتفسيره ثم وضعه فى سياق يتواءم مع متطلبات عصره . وقد انتهج تلاميذه من بعده عين المنهج فظهرت العديد من الشروح والتفسيرات لكتابات أستاذهم ، وكلها تسعى إلى نفس المقصد أى تبرير الواقع والتأكيد على أن التراث المقدس قادر دائما على مواكبة المتغيرات الحضارية (٣٩)+(٦٣) .

أما الجانب الجديد والطريف فى المعتقدات الكونفوشية يكمن فى انتقاء الأفكار التليدة وتفسيرها وتأويلها . وسوف نحاول فى السطور التالية توضيح ذلك ،

الجين

وهو مثال المثل فى العقائد الكونفوشية وله عند كونفوشيوس وتلاميذه دلالات عديدة أهمها الفطرة ، الفضيلة ، الخير الإنسانى ، الرجولة الحققة ، الطابع الأخلاقى ، الإحسان ، الحب والعدالة .

وهو يرمز إلى العنصر المهيمن فى العشيرة الأولى التى يجب على كل فرد فى المجتمع الإقتداء بها ثم أصبحت بعد ذلك دلالة على كل الأفعال الخيرة مثل إنعدام الأنانية ، الإخلاص للأمير واحترام الآخرين . ثم أضحي مثلا للحاكم النبيل وسبيلا للارتقاء الروحى الذى ينتهى به إلى الألوهية والقداسة و يقول كونفوشيوس فى ذلك >> إن المتقف الحائق ،

ورجل الإنسانية " الجين " لا يسعى قط للحياة على حساب الإنسانية " الجين " وهو الذي يؤثر التضحية بحياته لكي يحقق الإنسانية >> .
الفضيلة " تى "

وهى القوة التى تدفع الفرد نحو الجين أى العمل الخير والحياة الروحية . وهى باطنية ملازمة للفرد يستمد منها قوته على إحداث الأفعال وأداء الطقوس الدينية ومراعاة الآداب الإجتماعية وقد أكد كونفوشيوس على أن كل أشكال العبادة وكل أنواع القرابين لا تحقق السعادة لمن يتجاهل الآخرين ويرفض مساعدتهم وتقديم العون لهم فالفضيلة عنده تبدأ من حب المرء لأخيه وطاعته للحاكم . ويعدها الوسط الذهبى بين رذيلتين *

فالطبيعة الإنسانية عنده تتكون من عنصرين أولهما الذات الإنسانية المحضة أو الذات المركزية أو الموجود الأخلاقي ويعدها كونفوشيوس الوسط أما العنصر الثانى فهو الانفعالات الإنسانية مثل (الفرح - الحزن - الغضب) ويؤدى انسجامها في النفس الإنسانية إلى القانون الأخلاقي (٤٠) .

والرجل الفاضل هو الذي يسير على نمط الطبيعة الإنسانية فيكيف نفسه وفق الظروف ويلزم الوسط في تصرفاته بلا إفراط أو تفريط .
والرجل غير الفاضل هو الذي يجنح عن القانون الأخلاقي إما بالتدنى أو بالتعالى (٤١) .

فالإفراط فى النبل رذيلة والإفراط فى التواضع نقيصة ويقول كونفوشيوس >> إننى أعرف الآن لماذا لا يفهم كثير من الناس القانون الأخلاقي فالأفراد ذوو الطباع السامية يعيشون فى مستوى أخلاقي يعلو القانون الأخلاقي أى أعلى من ذاتهم الأخلاقية العادية .
والأفراد ذوو الأخلاق المنحطة يعيشون فى مستوى يقل عن المستوى العادى للقانون الأخلاقي >> (٤٢)

* نظرا لتعاصر بوذا مع كونفوشيوس وإطلاع كل منهما على فكر الآخر لا يستطيع الباحثون القطع بنسبة هذه الفكرة لواحد منهم (أى الفضيلة وسط بين رذيلتين) غير أنه من الواضح أن أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) قد تأثر بها فى كتابه الشهير " الأخلاق النيقوماخية " وقد أخذها عن واحد منهما .

الواجب

يرد كونفوشيوس القانون الأخلاقي أو الخير الأسمى لإله السماء الذى ورثه بدوره لعقل الإنسان فأصبح بمثابة الجوهر الثابت الذى لا يتغير ، والفطرة السليمة التى لا تتحول . ويتمثل فى مبدأ الواجب الذى نشعر نحوه بالجبر والإلزام . ويرد كونفوشيوس الشرور إلى الجهل الذى يمرض الضمائر التى لا تتشط إلا بالتعليم والتزود بالمعارف المختلفة . الأمر الذى يبرر إعلائه من شأن الحكماء على غيرهم >> أن الناس يولدون خيريين سواسية بطبيعتهم ولكنهم كلما شبوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجياً وفق ما يكتسب من عادات << >> إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة فإذا افترق الإنسان هذه الإستقامة أثناء حياته افترق معها السعادة << >> إن الطريق العملى لتحقيق الواجب هو الإذعان لهذا الصوت الداخلى وأن الضمان المطمئن هو مداومة مراقبة النفس حتى يكشف جميع دواخلها ، فإذا حصل للفرد هذا الكشف وصل إلى درجة الحكمة لأن القلب حينما يقوده الهوى ينسحب إلى الشر دون أن يشعر فيصبح الإنسان يرى ولا يبصر ويسمع ولا يعقل (٤٣) . والعلة فى هذا هى أن العواطف والأهواء تسود أعمالنا وتمنعنا من أن نحكم أحكاماً صحيحة على أنفسنا وعلى العالم الخارجى . <<

الولاء (هسياو)

وهو إجلال الآباء والإخلاص لسيرة الأسلاف فيؤكد كونفوشيوس على أن احترام الأبناء لأبائهم من أعلى وأسمى الفضائل وهى القاعدة الأساسية التى شيدت عليها عبادة أرواح الأسلاف و الأجداد والولاء الذى قدم لهم فى حياتهم الأرضية . وللولاء عند كونفوشيوس صور خمس هى الولاء للأمير وللأبوين وللأخ الأكبر وللزوج وللصديق (٤٤) + (٦١) .

المانا

هى القوى الداخلية التى تمنحها أرواح الأسلاف لخلفائهم فتجعلهم أبطالاً أو ملوكاً وتمنحهم القدرة على الإنجاب وتضن بها إذا غضبت عليهم ، وهى كذلك علة تخصيص الأرض والحيوانات .

مدينة الله وطبقات المجتمع :

يرد الكونفوشيون الحاكمة الى إله السماء ويعبدون الحاكم كبير الكهنة المفوض بحكم الأرض من قبله أما المعلمون فهم بمثابة الرهبان والكهنة الصغار. أما التلاميذ فهم بمثابة الحواريين الذين يمثلون الطبقة الوسطى بين طبقة النبلاء والطبقة الشعبية وهم جميعا يعبدون إله السماء وإله الأرض وكونفوشيوس وأرواح الأجداد (٤٥)

* الوجود

يرى الكونفوشيون أن الموجودات وليدة العلاقة الروحية القائمة بين إله السماء والأرض تلك التى تمخض عنها كل الكائنات. والعالم عندهم ملئ بالأرواح المتجسدة فى صور متباينة والإنسان هو مركز الكون باعتباره الكائن الذى جمع بين عناصر إله السماء الروحية وإله الأرض المادية وقد ورث عنهما معا سبعة انفعالات هى البوح والغضب والحزن والحب والكره والرغبة والخوف .

وعلى الإنسان السوي أن يعتدل فى سلوكه بمقتضى هذه الانفعالات (٤٦) .

تقديس الخمسات :

يقدس الكونفوشيون رقم خمسة باعتباره أكمل الأشكال الهندسية وينسبون إليه العديد من الأسرار وله عندهم عدة دلالات وأشكال منها :-
- العناصر الخمسة التى تتكون منها الأشياء وهى المعدن، الخشب ، الماء ، النار ، التراب .

- الجهات الخمس هى شرق ، غرب ، شمال ، جنوب ، وسط .
- القرايين الخمس وهى الخمور، العطور ، اللبن ، الدماء ، الأرز .
- الآلهة الخمس إله السماء ، وإله الأرض ، إله الجبال ، إله الأنهار وأرواح الأجداد .

- درجات القرابة خمس هى : الأبوة ، والأمومة ، و البنوة والأخوة والزوجية .

- الألوان الخمس الرئيسية هى : الأبيض ، الأسود ، الأحمر الأخضر ، الأزرق .

- المفاتيح الموسيقية الخمس: ري، مى، صول، لا، سى (٤٧) .

الرهينة :

تعد رهينة كونفوشيوس متميزة عن سائر أنماط الديانات الأخرى وذلك لخلوها من شعائر التنسك ورفضها العزلة فى المعابد والأديرة والكهوف ، فالراهب عنده ذلك الذى يحمل بين يديه أنفـس الجواهر ليوزعها على الناس ويسدى لهم النصيحة ويرشدهم إلى الفضيلة ، وهو الرجل الأمين الصادق الذى لا يخشى فى الحق سطوة ظالم ولا يذله ويحط من كبريائه قوة حاكم ، وهو المعتدل فى حياته ، واللين فى نصحه ، والمحافظ على ميراث الأجداد ، معتزل الفتنة ، واسع المعرفة ، محب للناس كافة والحزم والتواضع والكرم (٤٨).

* الموسيقى والطقوس :

يبالغ الكونفوشيون فى إجلال وتعظيم الموسيقى فهى عندهم علة نظام الكون والنظم الإجتماعية والسياسية والأخلاقية وعلة إنسجام عناصر الطبيعة وهى السبب الأول فى تصالح الآلهة . أما الطقوس فهى التى تحدد مراتبهم ، وهى اللغة التى اخترعها الإله ليسوس مخلوقاته ، وهى كلمة الحب بين السماء إلى الأرض ، وهى كلمة الشكر من الموجودات الأرضية إلى السماء .

وهناك نوعان من الطقوس : الأولى تؤدى إلى أرواح الأجداد وهى مأخوذة عن الهندوسية والبوذية . أما البوذية فتؤدى فى المعابد ولها مراسم ونظم يقوم بأدائها الكهنة المنوطون بتقديم القرابين دون غيرهم وعلى رأسهم الحاكم باعتباره الكاهن الأكبر وابن السماء (٤٩) . ويقام لعبادة الأسلاف معبداً ضمن مجموعة مباني القصر فى المبنى المركزى ويتكون هذا المعبد من ضريح أسلاف أسرة تشو . ويقوم الكهنة (النبلاء والأمراء) بتجهيز الحاكم للدخول إلى المعبد والإشراف على تقديم القرابين ، ويستبّيح الكهنة دماء أسرى الحروب باعتبارها قرباناً لأرواح الأسلاف عندما يأتى بهم أمراء المقاطعات . ويقدم للملك ذبائح وخمور ثم يولم عليها فى اليوم التالى حيث تقدم أجزاء منها إلى الرعايا المجتمعين (٥٠) .

الروح ومصيرها بعد الموت :

لم يتطرق كونفوشيوس ولا تلاميذه من بعده إلى موضوع الروح وعقيدة التناسخ والثواب والعقاب وتحضير الأرواح الأمر الذى كان وراء إستمرار العديد من العقائد الشعبية وسيادتها على الثقافة الصينية قبل وبعد ظهور الكونفوشية باعتبارها دين قومى . ويبدو أن معتنقى الكونفوشية لم يجدوا غضاضة فى الإيمان بحلول الروح وتناسخها والاتصال بها وغير ذلك من الأفكار التى اعتنقتها الديانات الشعبية ويبررون ذلك بأن كونفوشيوس نفسه كان يؤمن بها إيمان العوام الذين يعدون الإرتياب فى هذه الأمور إثم وضلال ويروى أن كونفوشيوس سئل ذات يوم عن الموت فأجاب >> إننا لم ندرس الحياة بعد فكيف نستطيع أن ندرس الموت << وهو فى هذا قريب الشبه ببوذا (٥١) . ونخلص من العرض السابق إلى أنه على الرغم من المنحى التقليدى الذى اتسمت به الكونفوشية وانتحال معظم مبادئها من الفكر الموروث إلا أنها تتسم بسمات تميزها عن غيرها من الديانات الكبرى وعلى رأسها البوذية .

ويبدو ذلك بوضوح فى هذه المقابلة : -

فالبوذية تعد ثورة أو تمرد على الواقع وقد رمى معتقوها بالإلحاد من قبل براهمة الهندوسية (٥٢) . بينما الكونفوشية أقرب ما تكون إلى الاتجاهات التوفيقية الإصلاحية التى تعمل على استيعاب الموروث ، وتوظيف ثوابته فى دعوتها ، وتحديد الجانب الآخر وتجنب الصدام به مع حرصها على تبرير الفكر السائد (٥٣) .

وذلك من خلال مبدأى " الين " و " اليانج " أى الثبات والتغير الذين يتحكمان فى حركة الحياة والتاريخ (٥٤) .

- ترفض الأولى نظام الطبقات الاجتماعية فى حين أن الثانية تفسره وتؤكد

- أن الأقدار فى الأولى من صنع الإنسان وفى الثانية من صنع إله السماء .

- أن موقف الأولى من الغيبيات (الله - الروح) والعالم الآخر كان موقفا لا أدريا فى حين أن الكونفوشية سلمت بصحته تسليم السذج

- وأخفت الشكوك التى تطل من عقول معتنقيها . الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه أمام الملاحدة والمجترئين وكان وراء العزوف عنها واعتناق البوذية أو الإرتداد إلى التاوية
- أن الأولى لم تتدخل فى السياسة تدخلا مباشرا . فى حين أن الصينية ربطت السياسة بالدين وهى من أوائل النحل التى نزلت هذا المنزع .
 - إن بوذا يعترف بالمعرفة الإشرافية الحدس الفوجائى . فى حين أن كونفوشيوس لم يتعرض قط لهذا الموضوع ولم يدع أنه يأتيه الخبر من السماء .
 - إن القرابين فى البوذية من الشعائر الدينية . فى حين أنها فى الكونفوشية قيمة أخلاقية تعبر عن حمد وشكر العباد لإله السماء .

* * *

المجترون والملحدون

لم تكن وظيفة تبرير الواقع السياسى الدينى التى اضطلعت بها الديانة الكونفوشية وحدها وراء ظهور الاتجاهات الإلحادية . بل هناك عامل أهم حثت عليه تعاليم كونفوشيوس ذاتها ألا وهو التعقل وتحصيل العلم وتوظيف ذلك لخدمة الواقع .

الأمر الذى جعل الملحدين الكونفوشيين من أكثر المؤمنين بها، وذلك لأنهم استطاعوا استيعاب المعانى الكامنة وراء النص أى حكم كونفوشيوس >> إن المعلم الحق هو الذى يفتح لتلاميذه الطريق نحو ما يجب عليهم عمله دون أن يصحبهم فيه أو يدفعهم إليه كرها << وسوف يتضح من النماذج التى سنسوقها ونقوم بعرضها :-

أن جل الملحدين الكونفوشيين لم يسعوا إلى نقض صلب العقيدة أو إنكار جوهر الشريعة أو التجديف على مؤسسها بل على العكس من ذلك تماماً كان اجتراؤهم على ما نهى عنه كونفوشيوس ولم يهدم كفرهم إلا ما لا يتناسب مع الواقع وينكره العقل (٥٧) .

موتسو (٤٧٩ - ٣٨١ ق.م)

يمثل مذهب المنفعة وقد رفض سلطة القدماء ونقض كذلك التعاليم الصوفية وذهب إلى أن قضايا الواقع لا يمكن معالجتها إلا بنبذ السلطة القائمة والمعتقدات القديمة والإصغاء للعقل وحده والإيمان بأن العدالة الإلهية لم تفرق بين البشر ومن ثم لا توجد أدنى فروق بين الحاكم والمحكوم إلا العلم ونادى بالمحبة للناس جميعا . وذهب إلى أن القاعدة الأساسية التى يجب أن تقوم عليها السياسة هى المنفعة العامة والعمل من أجل الصالح العام بموافقة الرأي العام (٥٨) .

* هسون تسو

هو من أكابر رجالات الدين الكونفوشى الذين آمنوا بتعاليم كونفوشيوس وفطنوا إلى مقاصده واجتهدوا فى تأويلها وتقويمها وتطويرها - كما ذكرنا سلفاً - وقد أعلى من شأن العقل الإنسانى ووضعه فى مكان الآلهة ، وقام بنقض الطقوس و العبادات السائدة

منها صلاة الاستسقاء والعلاج من الأمراض بالرقى والتعاويذ ،
وقراءة بخت المرء من ملامح وجهه (٥٩) .

وأنكر وجود الأرواح الشريرة والأشباح الضارة وجعل من أرواح
الأسلاف وقوى الطبيعة مجرد رموز تحث على الإصلاح الخلقى .

* موتزو حوالى ٢٠٠م

وهو من المفكرين الذين نبذوا الكونفوشية واعتنقوا التاوية وانتهى
بهم الأمر إلى البوذية وقد رماه معاصروه بالردة والتجديف وذلك
لقلبه أن الكونفوشية القديمة تعادل الأزهار ولكن البوذية هي الفاكهة
وأن الحقيقة التي تقدمها البوذية أوسع مجالا وأوضح صورة من
الديانة التاوية (٦١) .

* * *

تعقيب

القدرية

يمكننا أن نلاحظ تشابها كبيرا بين قول كنفوشيوس بالجبر ونفيه
قدرة الإنسان على التغيير أو التحكم في مجرى التاريخ وبين القائلين
بالجبر من الفرق الإسلامية ، غير أن الإسلام قد منح الإنسان قدرا
كبيرا من الحرية في تفسير وتبرير وتغيير واقعه .

{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا
لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ
يَشْوِي الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَ مُرْتَقًا} (سورة الكهف الآية ٢٩) .
وقال أيضا : {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} (سورة البلد الآية ١٠) .

فهذه المسألة وإن كانت من أعوض المسائل العقدية إلا أننا اخترنا
فيها ما يتفق وروح الشرعية الإسلامية .

بيد أن كنفوشيوس قد قبل منطق الجبر مدفوعا بدافع سياسي ألا
وهو تبرير تعريفات الحاكم بأنها قدر إلهي .

العصور الإسلامية

إن مفهوم الألوهية في الديانة الكونفوشية مغاير تماما لمفهومها في

الإسلام ، وذلك لأنها تجمع في طياتها بين الشرك والتجسيد وبين الوحدة والتجريد ويتمثل ذلك في تأليه الحاكم وتجويز عبادة البشر وعبادة أرواح الموتى بجانب تقديس إله السماء المجرد الأمر الذي يعد كفراً بينا في العقيدة الإسلامية قال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} (سورة النساء الآية ٤٨) .

وقد أنكر القرآن الكريم تبرير المشركين لعبادة الأوثان قال تعالى {إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ} (سورة الزمر الآية ٣) .

أما اعتقاد الكنفوشيين بعصمة الحاكم وتنصيبه من قبل إله السماء الذي يقوم باستخلافه علي الأرض اعتقاد فاسد أيضاً من وجهة نظر الإسلام لأن خلافة الإنسان علي الأرض لا تعني كونه معبوداً مشاركاً لله بل هو خلق من مخلوقاته استخلفه الله علي الأرض لعبادته - {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (سورة البقرة الآية ٣٠) .

ولا نجد من بين الفرق الإسلامية من نحي هذا المنحي إلا غلاة الشيعة من الإسماعيلية الباطنية ومن لف لفهم .
يلاحظ أن الكنفوشية قد نجحت في صبغة العديد من المعتقدات بصبغتها فهناك كنائس مسيحية كنفوشية طوعت تعاليمها لتتوائم مع مفهوم الإله في هذه الديانة .

وهذا المنحي التلفي ملفوظ تماماً من وجهة نظر الإسلام لأنه لا تبديل لكلمات الله ولا تأويل لها يفسد جوهرها فالإسلام هو الإسلام في مكة كان أو في الصين ومفهوم الألوهية ثابت لا يتغير باختلاف الأمكنة والثقافات والأزمنة .

{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ - لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ - وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ - وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ - وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ - لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (سورة الكافرون) .

مراجع الفصل الرابع

مرتبة حسب ترتيب الورود

- (١) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين ، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام سلسلة عالم المعرفة ع١٩٩٤ ، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يوليو ١٩٩٥ ، ص٣٣٣.
- (٢) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة عبد الغفار مكاوي ، سلسلة عالم المعرفة ع١٧٣٤ ، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت مايو ١٩٩٣ ، ص٢٧٠ ، ٢٧٦.
- (٣) حسن شحاتة : كونفوشيوس النبي الصيني ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص١٣.
- (٤) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٨٩ : ٢٩٣.
- (٥) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص٣٦٩ : ٣٧٢.
- (٦) هـ. ج. كرييل : الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتس تونج ، ترجمة عبد الحميد سليم مراجعة على أدهم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص٢٤٤.
- (٧) جعفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٧٨.
- (٨) حسن شحاتة : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص١٢٠.
- (٩) هـ. ج. كرييل : الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتس تونج ، ص٢٣٥ ، ٢٦٢.
- (١٠) حسن شحاتة : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص١٢٤.
- (١١) جعفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٢٩ ، ٢٣٠.
- (١٢) هـ. ج. كرييل : الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتس تونج ، ص٢٣٦.
- (١٣) حسن شحاتة : كزنفوشيوس النبي الصيني ، ص١٣٨.
- (١٤) هـ. ج. كرييل : الفكر الصيني ، ص٢٤٧ : ٢٤٩.
- (١٥) فؤاد محمد شبل : حكمة الصين : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ج٢ ، ص٤٨ ، ٤٩.
- (١٦) حسن شحاتة : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص١٢٤.
- (١٧) هـ. ج. كرييل : الفكر الصيني ، ص٢٦٤.

- (١٨) حسن شحاته : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص ١٢٢ : ١٢٥ .
- (١٩) فؤاد محمد شبل ، حكمة الصين ، ص ١٦٥ .
- (٢٠) حسن شحاته : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .
- (٢١) أديب صعب : الأديان الحية نشوؤها وتطورها ، دار النهار ، بيروت ط ٢ ، ١٩٩٥ ، ص ٩٣ .
- (٢٢) فؤاد محمد شبل : حكمة الصين ، ص ٢٣٧ .
- (٢٣) هـ . ج . كريل : الفكر الصيني ، ص ٢٥٦ .
- (٢٤) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص ٤٣٤ .
- (٢٥) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .
- (٢٦) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : السفارة العالمية للشباب الإسلامي ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ١٤٠٩ هـ ، ص ٤٢٧ .
- (٢٧) حسن شحاته : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص ١٢٨ .
- (٢٨) نفس المرجع ، ص ٦٥ : ٧٢ ، ١٢١ .
- (٢٩) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
- (٣٠) حسن شحاته : كونفوشيوس النبي الصيني ص ١٢٣ ، ١٢٤ .
- (٣١) رؤوف شلبي : التفكير الديني في العالم قبل الإسلام ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٤ : ١٠٧ .
- (٣٢) أورسيل بول ماسون : الفلسفة في الشرق ، ترجمة محمد موسى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .
- (٣٣) حسن شحاته : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص ٧٢ .
- (٣٤) أورسيل بول ماسون : الفلسفة في الشرق ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .
- (٣٥) حسن شحاته : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص ١٢٢ .
- (٣٦) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٧٤ .
- (٣٧) حسن شحاته : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص ١٧ .
- (٣٨) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٧٨ .
- (٣٩) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، ب د ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٢٥٣ .
- (٤٠) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٧٩ .
- (٤١) نفس المرجع ، ص ٢٨٦ .
- (٤٢) حسن شحاته : كونفوشيوس النبي الصيني ، ص ٦٩ .
- (٤٣) أ . و . ف . توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم ، مراجعة على أدهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

- (٤٤) حسن شحاته : كونفوشيوس النبی الصيني ، ص ١٣ .
- (٤٥) أ . و . ف . توملين ، فلاسفة الشرق ، ص ٢٩٧ .
- (٤٦) جفری بارندر ، المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
- (٤٧) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص ٢٥٠ .
- (٤٨) جفری بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
- (٤٩) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص ٢٥٠ .
- (٥٠) جفری بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
- (٥١) حسن شحاته : كونفوشيوس النبی الصيني، ص ٤١ .
- (٥٢) نفس المرجع ، ص ٥٠ ، ٥١ .
- (٥٣) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، ص ٢٦٦ .
- (٥٤) جفری بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٨٨ .
- (٥٥) نفس المرجع ، ص ٢٧٦ .
- (٥٦) حسن شحاته : كونفوشيوس النبی الصيني، ص ١٢١ .
- (٥٧) نفس المرجع ، ص ٦٤ .
- (٥٨) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .
- (٥٩) حسن شحاته : كونفوشيوس النبی الصيني، ص ٣٨ .
- (٦٠) نفس المرجع ، ص ٩٥ ، ٩٦ .
- (٦١) جفری بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٧٤ .
- (٦٢) نفس المرجع ، ص ٣٠٩ .
- (٦٣) حسن شحاته : كونفوشيوس النبی الصيني، ص ٥٤ .
- (٦٤) نفس المرجع ، ص ١٠١ .
- (٦٥) جفری بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ٢٩٧ .
- (٦٦) نفس المرجع ، ص ٢٩٥ .
- (٦٧) هـ . ج . كريل : الفكر الصيني ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

الفصل الخامس

الديانة البوذية

النشأة والتطور

ظهرت البوذية كحركة إحادية عن الديانة الهندوسية وهي أقرب في تعاليمها إلي الزهد والتقشف مع إيمانها بعقيدة الهندوس الروحية حيث التناسخ والكارما ، ومن ثم سعت منذ نشأتها إلى البحث عن الخلاص من الدورات اللانهائية للروح . وذلك عن طريق تأمل الذات والتقشف والزهد في الحياة . الأمر الذي أضفى عليها صبغة تشاؤمية في أول عهدها . وقد ناهضت كذلك تعاليم البراهمة ورفضت سلطتهم الزائفة ومجت مجادلاتهم العقيمة الأمر الذي كان وراء خلو البوذية من السلطة الكهنوتية .

وقد ظهرت في الهند على يد جوتاما بوذا * (٥٦٠ - ٤٨٠ ق.م)

* هو سيدارثا جوتاما ولقب ببوذا ويعنى العالم وأطلق عليه أيضا بسكيا مونى أى المعتكف ، والتتاجانا أى الغامض . ولد فى منطقة سهلية خصبة على سفوح الهملايا بالقرب من بينارس شمال الهند من أبوين نبيلين إذ كان والده زعيما لإحدى القبائل الهندوسية فشب مترفا . وفى سن التاسعة عشر تزوج من إحدى أميرات منطقة الجوار وأنجب ابنا أسمه راهولا . وقد اتصل فى هذه الأونة بأحد الرهبان المتقشفين فأدرك أن السعادة ليست فى البذخ والترف . فخلع ثياب الإمارة وارتنى جلبابا أصفرا خشنا وضرب فى البراري وحيدا ليبدأ رحلة تنسكه واستمر على هذه الحال مدة ست سنوات جمع فيها بين دربين من دروب الرهينة الهندوسية والتأمل الفلسفى ، شأن الهندوس الأوائل ، والتنسك الصارم على غرار الجنيين وسرعان ما رغب عن الدربين وقام فى كهف تحت شجرة عرفت بعد ذلك بشجرة العرفان أو شجرة " بو " وراح يتأمل ذاته وأدرك أن تأمل الكون أو إذلال البدن لا يؤدى كلاهما إلى الحقيقة ، بل إن ترقية النفس من الأثام وتطهيرها من الأحقاد وكفها عن الشهوات هو الطريق الأوحى للوصول للحقيقة . وعلم من ساعته أنه أصبح بوذا (أى الإنسان المستنير) فراح يبشر بطريق الخلاص الذى اهتدى إليه فبدأ دعوته بأصحابه النساك الخمسة الذين قد قابلهم فى بداية رحلة تنسكه فراح يعظهم وقد أطلق على النصائح التى أسداها إليهم (موعظة حديقة الأيائل) وظلت تعاليم البوذية مجرد دعوة تنويرية أخلاقية حتى وفاة بوذا . وقد نسجت بعد ذلك حول مؤسسها الأساطير مثل ولادته العذرية ، وظهور نجم فى السماء يبشر بقدومه ، وتحدثه فى المهد ، وحديثه مع الشيطان الذى انتهى بانتصار بوذا ، وأن اثنا عشر تلميذا قد اتبعوه ، ووقوع زلزال عند وفاته ، ثم تأليهه فى نهاية المطاف . وقد اختلف المعنيون بدراسة الأديان المقارنة حول تبرير التشابه الواضح بين الأساطير التى نسجت حول بوذا وبين ما صورته الأناجيل لحياة المسيح .

وسرعان ما نقلها أربابها الى الصين واليابان والتبت ونيبال
وسومطرة وسيلان وبورما وسيام (٢٥)

البوذية فى الهند :

وقد انتشرت تعاليم بوذا فى حوض نهر الكنج وعقب وفاته مباشرة اجتمع خمسمائة من النساك ، وأقروا قداسته واعتبروا كتاب " السلال العظيم " بمثابة دستورهم العقدي . وبعد مرور قرن على هذا الاجتماع عقد مجمع ثان فى منطقة فيسالى لتيسير بعض القواعد التى وردت فى الكتاب المذكور .

وقد انقسم البوذيون عقب هذا المجمع الى فريقين أصوليين ومتحررين ، تمسك الفريق الأول بكل تعاليم بوذا بينما أحل الفريق الثانى لنفسه شرب الخمر وإقتناء الذهب والنوم على الأسرة المرتفعة وبعض الأطعمة التى كان يحرمها بوذا فى وصاياه العشر . وقد عرف المحافظون بعد ذلك باسم الهينايانا أى الوسيلة الصغرى ، وكتبت لهم الغلبة على المتحررين واعتبروهم مجدفين ولا سيما بعد انضمام الإمبراطور أسوكا (٢٧٣ - ٢٣٢ ق.م) حاكم ماغادا للبوذية فى القرن الثالث قبل الميلاد وهو يعد المؤسس الثانى للبوذية التى تحولت على يده من حركة الى ديانة عالمية واسعة الإنتشار . فقد حرص منذ انضمامه اليها على بناء معابد وأديرة لرهبانها وأرسل الدعاة للتبشير بها فى شتى أنحاء مملكته وكذا فى الإمبراطوريات المجاورة (٢٦).

وقد عقد فى عهده مجمعا بوذيا ثالثا نحو عام ٢٥٠ ق.م لمناقشة بعض الطقوس والممارسات الشكلية التى يمارسها النساك البوذيون ، وتحديد الأماكن المقدسة لشعيرة الحج ، وبحث الموضوعات العقدية التى انقسم حولها البوذيون وعلى رأسها عقيدة الصيرورة وطبيعة الحقيقة وقد انقسموا إلى فريقين :-

وقد اختلفوا أيضا حول شخصية بوذا فبعضهم وصفه بأنه نبي يتلقى الخبر من السماء ، والبعض الآخر يعبه فيلسوفا روحيا . ويعدده فريق ثالث مصلحا اجتماعيا أثر الثورة والإلحاد على قبول الدين السائد والفكر المهيمن فى عصره .

التقليديون أنصار الصيرورة (الستافيراس) والمثبتون العقليون (السارفا ستقادين) .

وقد اختلط البوذيون في هذه الآونة بالهلنستيين ولا سيما دعاة الفلسفة الرواقية فتأثرت أفكارهم ومعتقداتهم بفكرة الإخاء والمساواة العالمية والعدالة الاجتماعية التي كان يدعو لها الرواقيون .

وقد حاكوا اليونانيين في صناعة التماثيل العملاقة لأربابهم فظهرت في هذه الآونة العديد من التماثيل لبوذا وكانت قريبة الشبه من صورة أبولون إله النور والشعر والموسيقى والنبوءات عند اليونان .

وقد تأثرت البوذية بالعديد من الأفكار الكنفوشوسية والجينية والزرادشتية ، وكادت أن تمحى تعاليم بوذا الأصلية ولا سيما بعد ثراء الجانب الأسطوري في الفكر البوذي على يد بعض الرهبان ، الذين حاولوا الرد على التساؤلات الفلسفية المطروحة حول نشأة الكون ، ووجود الإله ، وطبيعة عالم الروح . وغير ذلك من الأمور التي عزف بوذا عن الخوض فيها بحجة أنها أمور غير مفيدة . ثم طور الراهب البوذي " نكارجونا " نظرية بوذا في صيرورة العالم الى نظرية فلسفية متكاملة أقرب ما تكون من نظرية النسبية لآينشتاين ، التي على الرغم من إثباتها بنسبية الزمان والمكان إلا أنها في الوقت نفسه تؤكد وجود المطلق المجرد (٢٧) .

وفي القرن الرابع الميلادي ظهرت مدرستان بوذيتان متباينتان هما : المينايانا والمهايانا .

فالأولى هي المدرسة العقيدة الكلاسيكية وهي تتحو منحاً بوذا في التسك والعبادة ، وقد أعلت من شأن الرهبان عن العوام . وذهبت الى أن الخلاص المرجو لن يتحقق إلا عن طريق التأمل الذاتي في الأديرة . أما الثانية فقد أولت تعاليم بوذا وذهبت إلى أن العبادة الحقّة هي خدمة الآخرين سواء داخل الأديرة أو خارجها ، وأكدت على أن الراهب البوذي لا يختلف عن سائر الناس إلا بقوة إيمانه . ورفضت كلية الجانب الكهنوتي للبوذية بحجة أنه يشكل سلطة تجعل من رجال الدين طبقة تميزهم عن سائر البوذيين . الأمر الذي حاربه بوذا طيلة حياته . وبينت أن طريق النرفانا أي الخلاص والعق من تكرار الميلاد لا يتعارض مع الإخلاص للمعبودات الشعبية . ورفضت شعار

وحدة جوهر الأديان والتسامح العقدي ، وأقرت مبدأ " البوذيستفا " فى الخلاص الذى يقضى بأن بداية طريق السعادة فى التفانى فى خدمة الآخرين ، وينتهى بإدراك أن الذات الفردية لم تبلغ كمالها إلا بعد إدراكها - عن طريق التأمل الداخلى - أنها جزء من كل وأنه لزاما عليها أن تذوب طواعية فى المجموع وتتخلص نهائيا من الأنانية وقد أحييت بذلك عقيدة " الأراهاات "

(أي أهل الفضل والاستحقاق عند بوذا) .

وفى نهاية القرن الرابع الميلادى ظهرت مدرسة " اليوجا كارا " أي اليوجا العملية وكانت تهدف إلى إحياء النزعة البوذية التأملية ، التي ترمى الى توقد الذهن وإيقاظ الوعي وتنقية الروح وكان يتزعمها اسنجا (٣١٠ - ٢٩٠م) وفاسوباندا (٣٢٠ - ٤٠٠ م) (٢٨) .

وقد ازدهرت البوذية فى القرن السابع الميلادى وتطورت مباحثها الفلسفية ولا سيما فى التبت على يد " بادما - سامبهافا " الذى قام بتهديب أناشيد الطقوس وأدعية الاحتفالات ، وقام بتقنين رموز اليوجا كارا السحرية . وعلى الرغم من الضعف الذى أصاب البوذية فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى فى الهند إلا أننا نجد فى القرن الحادى عشر محاولات لإحيائها من جديد على يد الراهب البنجالى " أتيشا " ، غير أن جهوده باءت بالفشل على إثر هدم معابدها على أيدى الهندوس من جهة ، والمسلمين الفاتحين من جهة أخرى .

وقد رحبت الهندوسية بانهيار البوذية وحفل رهبانها وكهننتها بهذا الميراث الثمين ، الذى عمل على تطور العديد من العقائد الهندوسية (٢٩) .

وبعد الفيلسوف الهندى " سنكارا " ثمرة مزج البوذية والهندوسية فى بوتقة واحدة . وعلى الرغم من ذلك لا تخلو الأراضي الهندية من وجود البوذيين إذ بلغ عددهم فى أخريات القرن التاسع عشر خمسة ملايين نسمة يتمركز معظمهم فى ولاية " مهاراشترا " (٣٠) .

انتشار البوذية وتطور معتقداتها :

لقد أدى اتصال البوذيين المباشر بجيرانهم من سيلان والبنجاب والصين وكوريا واليابان بداية من عام ٢٥٠ ق.م الى تطورها

ودخول العديد من المعتقدات على أصولها وظهور الفرق والمذاهب العقدية والفلسفية على معتقداتها .

فقد دخلت البوذية سيلان على يد دعائها الذين أوفدهم الإمبراطور أسوكا - كما أشرنا - وقد قوبلت هناك بالحفاوة والقبول وحفظ أهلها تعاليم بوذا عن ظهر قلب ، وأقاموا الأديرة والمعابد والنصب البوذية . وقد دونت هناك أقدم المخطوطات لتعاليم بوذا بلغة البالي (السيلانية) . وفى القرن الخامس الميلادى ترجمت النصوص البوذية من البالي الى اللغة الهندية وما يزال معظم السيلانيين ينتمون الى الثيرافادا أو الهينايانا وهى مدرسة الحكمة البوذية القديمة (٣١).

وقد دخلت البوذية فى البنجاب فى القرن الأول قبل الميلاد . عقب اعتناق ملكها " كانشيك " عقائدها وهو يعد الرجل الثالث فى البوذية - بعد بوذا وأسوكا - الذى يرد إليه تطور الطقوس والشعائر البوذية فى ظل ازدهار فن العمارة والنحت اليونانى هناك . فقد عني ببناء المعابد ونحت التماثيل لبوذا كما تطورت على يديه المهايانا وانتشرت على أوسع نطاق .

وفى أواخر القرن الثانى الميلادى دخلت البوذية الصين . وفى عهد الإمبراطور " مينغ تى " بنى أول معبد للبوذية هناك ، وترجمت نصوصها المقدسة إلى اللغة الصينية .

بيد أن البوذية وجهت بالرفض من المتعصبين الكونفوشييين والطاويين وفى عام ٨٤٥ م حطمت المعابد البوذية على يد الإمبراطور ووتسونغ . وظهر اتجاه حدسى باسم " تشان " عاد بالبوذية الى النزعة التأملية والمعرفة الإشرافية الحدسية التى يستقبلها الناسك بالسكون التام وتنقية الذهن من التفكير فى كل الأمور .

وظهرت هناك مدرستان :-

الأولى " لين تشى " تقول بالحدس المفاجئ لإكتساب المعرفة .
الثانية " تساو تونغ " تقول باكتساب المعرفة عبر قراءة الكتب ،
وتحصيل المعارف حتى الوصول الى التنوير التدريجى (٣٢) .

وانتشرت البوذية فى سرى لانكا فى القرن الثالث الميلادى على يد الملك " ديفا نمبيا " وكثرت المعابد وتماثيل بوذا ودخلت البوذية كوريا بعد انتشارها فى الصين خلال القرن الرابع الميلادى .

وفى عام ٥٨٨م دخلت البوذية اليابان على يد الإمبراطور شوتوكوتايشى وحلت محل الشنتو وهى الديانة اليابانية التقليدية .
وقد تأثرت المدرسة البوذية اليابانية بمثلتها الصينية فازدهر الاتجاه الحدسى ومدرسة الزن التى تعد امتداد لمدرسة تشان فأحييت فى البوذية فكرة وحدة الوجود الهندوسية وتجلى الإله فى كل الكائنات. وتطورت فكرة التأمل البوذية وأضحى لا فصام فيها بين الذات والموضوع ، وجعلت من الحاضر نقطة انطلاق إلى الفعل وذلك لأن اللحظة الراهنة التى يتأمل فيها الفرد لذاته وما يدور حوله تجمع بين الماضى والحاضر معا ، ومن ثم يصير التأمل فعلاً ويبدو ذلك بوضوح فى تعاليم دوجن - مؤسس اتجاه السوتو اليابانى فى القرن الثالث عشر وهو أحد اتجاهات مدرسة الزن - الذى يقر بأن الهدف الحقيقى للزن هو عيش الحياة العادية بكل ما فيها مع عدم تجاوز أى ناحية من نواحيها بالممارسة والإستنارة تتحقق السعادة والخلاص الأبدى .

وفى القرن السابع عشر تعرضت البوذية لحركة تمرد من قبل المؤمنين بديانة الشنتو فى القرن التاسع عشر ، اضطهد أتباعها من قبل المبشرين المسيحيين . ثم إستعادت البوذية قوتها منذ أخريات القرن التاسع عشر وما زالت تطور على يد اليابانيين .
ويرجع الفضل لمدرسة الزن اليابانية فى انتشار البوذية فى العالم الغربى ولا سيما فى الولايات المتحدة الأمريكية .
وما زالت البوذية تعد من أكبر الديانات فى آسيا ويتمركز المؤمنون بها فى اليابان وكوريا وبورما وتايلند والتبت وسومطرة ونيبال وسيلان وسيام وأنحاء مختلفة من الصين والهند (٣٤) .

* * *

مفهوم الألوهية

لقد اجتمعت الدراسات الحديثة المعنية بفلسفة الدين على أن فكرة الألوهية عند البوذيين تعد من أعقد أفكارهم وأكثرها غموضاً وتناقضاً ويرجع ذلك الى جمعهم بين العديد من صور وأشكال التأليه ونسبتها جميعاً الى شخصية بوذا .

فتتزع بعض الكائنات البوذية الى أن بوذا هو ابن الإله ، وكلمته التي جسدها في رحم أمه " مايا " بينما تصفه شذرات أخرى بأنه أحد المخلصين ، الذين يهبطون إلى الأرض كل خمسمائة عام لإصلاح الدين السائد .

ويروق لبعض أتباعه درجة ضمن الأبرار ، والصديقين الذين يتلقوا الخبر من السماء معتمدين في ذلك على تصريح بوذا نفسه، الذي روى في قصة تأمله بالكهف الذي انتهى به إلى المعرفة اليقينية عن طريق الحدث العقلي والإشراق القلبي .

ويغالى بعض أتباعه في تعظيمه ويرفعونه إلى مرتبة الألوهية. ويجزم بعضهم بأن بوذا غير مؤله ولم يتحدث قط عن وجود إله، بل لم يعنيه أمر عالم الروح السماوى الشاغل بالآلهة عند الهندوس من قريب أو بعيد . و يتجه البعض إلى أنه أقر بالوحدانية مع الإعراف بوجود إله سماوي مجرد .

وقد تباينت الآراء حول شخصية بوذا نفسه فزعم أحد الباحثين في فلسفة الدين وهو السير وليامز - الأستاذ بجامعة إكسفورد عام ١٨٤٥م في مؤتمر اللجنة الآسيوية الملكية بلندن - أن بوذا شخصية أسطورية ، وأن ما يروى عنه ما هو إلا من اختلاق الآداب الشعبية.

فى حين يعده الأستاذ حامد عبد القادر (١٨٩٥ - ١٩٦٦) - مدير عام شئون اللغة العربية والدين بوزارة المعارف ، ووكيل كلية أصول الدين بالأزهر وأستاذ الدراسات السامية والشرقية وفقه اللغة بالجامعة المصرية ، وعضو مجمع اللغة العربية - أحد أنبياء الله المرسلين ، وزعم أنه ذكر فى القرآن فى سورة التين :- إذ رمز الله فى قسمه بالتين إلى بوذا وبالزيتون إلى عيسى عليه السلام وبطور

سنين إلى موسى عليه السلام وبالبلد الأمين إلى سيدنا محمد ﷺ (٣٥).
وحسبنا أن نطرح هذه الآراء المتناقضة جانبا لنقف على أهم
الأساطير التي تصور فكرة الإله عند أتباع بوذا . فتعد قصة بوذا
الأكبر الذي تجسد ليخلص العالم من أكبر الأساطير التي نسجت حول
الألوهية عند البوذيين .

فتروى الأسطورة أن روح بوذا في إحدى دوراتها الحياتية قد
علمت بأنها سوف تهبط إلى الأرض ثانية وتحل في جسد المنقذ
المنتظر الذي سوف يخلص العالم من عذابات تكرار المولد وقانون
الكارما . وقد اختارت هذه الروح العصر والمكان وطبيعة الجسد
الذي سوف تتجسد فيه لتبدأ رحلة حياتها الجديدة . فاختارت زمن
ولادة بوذا وبلاد الهند ومايا محظية ملك ساكياس لتكون أما لجسد هذا
البوذا المنتظر.

وروى أن أمه رأت في أحلامها أن بوذا هبط من السماء واستقر
في رحمها في صورة فيل أبيض ، وأنه سوف يصبح ذات يوم من
أعظم الرجال . وفي طريق رحلتها إلى عائلتها جاءها المخاض
فجلست تحت إحدى أشجار السال ووضعت وليدها وأسماه سيدارثا
أى (محقق الآمال) .

ويقال أن الإله قد خلق شجرة "البو" يوم ولادته . ويقال أيضا أن
الكون احتفل بولادته فتفتحت عند قدميه الزهور ، واستحالت مياه
البحار إلى عذبة حلوة المذاق وأن رائحة ذكية انتشرت وعمت جميع
أرجاء الفضاء .

وروى أن بوذا تكلم في مهده وسار سبع خطوات إلى الأمام
وتفحص الكون ليتيقن خلوه من نظير له . وأنه قد حضر ولادته
بعض الآلهة في مقدمتهم أندرا اله الرعد والمطر وأن أربعة من
ملائكة براهما قد تلقوه عند الولادة (٣٦).

وفسر بعض البوذيين ذلك بأن بوذا ابن الإله وكلمته الخالدة .
وروى كذلك أن بوذا وقف ذات يوم في أصحابه مبينا أن فكرة
وجود الإله فكرة غامضة يجب التخلي عنها أو عدم إرهاق الذهن في
التفكير فيها >> إن الرهبان الذين يتكلمون عن الله ، وهم لا يرونه
وجها لوجه كالعاشق الذي يذوب كمدا وهو لا يعرف من هي حبيبته ،

أو كالذى يبني السلم وهو لا يدري أين يوجد القصر ، أو كالذى يريد أن يعبر نهراً فينادى الشاطئ الآخر ليقدّم له << .

وتحدثنا رواية أخرى أن بوذا كان لا ينكر وجود الإله بل كان يرى أن أثره محدود على البشر، وأن الروح شاغلة بخلاصها من دورات الحيات المتكررة . الأمر الذى يجعل دعوته للإستتارة وتأمل الذات أفضل من التفكير فى هذا العالم . وبذا جعل الخلاص من الأمور الإنسانية التى لا شأن للآلهة فيها (٣٧) .

وإذا ما انتقلنا بالحديث لمناقشة فكرة الوحدة والكثرة أو التجريد والتجسيد فى البوذية سوف نجد أنها لا تخلو من خلط شأنها شأن الديانة الهندوسية . فنجد من البوذيين من يوحد بين فكرة الإستتارة المجردة وبين الوحدة المطلقة والحقيقية الأبدية ، ونألف معظمهم يدرج بوذا ضمن الآلهة المختلفة المعبودة ، ومن أشهر الآلهة التى اعترفت بها البوذية :-

* مانجو سري إله المنطق ويصور على جدران المعابد برجل يمسك سيفاً يمثل المنطق وكتاباً يمثل الحقيقة البوذية أو القانون . أفالوكيتا وهو إله الرحمة وتمثله الرسوم بأمر يمسك فى يده اليسرى زهرة لوتس حمراء وماداً يده اليمنى دلالة على العطف .

* فيروكانا ابن الشمس ويعبد فى جاوا واليابان .

* أميتابا حاكم الفردوس ويعتقد عباده فى الصين واليابان بأن الصلاة له تكفى من غير أى عمل للحصول على الخلاص وهو يحضر فوق رؤوس المؤمنين به عند ساعة موتهم كى يموتوا براحة ويولدوا بعد ذلك فى الفردوس أى الأرض الطاهرة التى يحكمها أميتابا .

* الكامى وهى إلهة اليابانيين القديمة ، وقد أقر البوذيون بعبادتها بعد ذلك .

* بوذا وهو كلمة الإله التى تجسدت لتخليص العالم ، ثم تحولت إلى كائن نورانى ، وعاد مرة ثانية لطبيعته الإلهية حيث الإتحاد مع الحقيقة المطلقة والإستتارة الأبدية .

ويجمع المشتغلون فى مبحث فلسفة الدين على أن تناقض فكرة الألوهية وتهاافتها عند البوذيين ، وعدم اشتراط البوذية جحد من يؤمن بها لعقيدته السابقة ، وإلحاده الآلهة التى كان يؤمن بها . كل ذلك كان وراء اندحارها ، ونجاح براهمة الهندوسية فى القضاء عليها . بوصفها إحدى الحركات الإلحادية (٣٨) .

الكتب المقدسة :

تستمد الكتب البوذية مصداقيتها وقداستها من نسبتها إلى بوذا ولا نكاد نلمح من بين شراحها من يردها إلى وحى سماوى أو إلهام ربوبى إلا نفر من البوذيين المعاصرين الذين إعتبروا لحظة الحدث والإشراق التى مر بها بوذا فى كهفه تحت شجرة البو بمثابة الإلهام الإلهى الذى راح يبشر به ويفصح عن جوهره .

وترد معظم الشذرات المكتوبة لبوذا إلى طائفة السنغا الذين قاموا بحفظ أحاديث بوذا وحكمه وتعاليمه شفاهة ثم قاموا بتدوينها باللغة البالية * فى أسفار أطلق عليها القانون البالى نحو عام ٢٥٠ ق.م ومازالت جماعة السنغا تقوم بطبع الكتب البوذية الكلاسيكية حتى الآن ولا سيما مدرسة ترافادا البوذية المنتشرة فى سرى لانكا وجنوب شرق آسيا (٣٩). ومن أهم هذه الكتب :-

* كتاب السلال الثلاث وترجع تسميته بهذا الاسم إلى طريقة جمع وتصنيف الشذرات الشفهية من روايتها إذ عنى الكتبة بتقسيم أقوال بوذا إلى عقائد وشريعة وحكايات . وحرصا منهم على عدم اختلاط هذه الشذرات وضعوا كل مجموعة منها فى سلة . فأطلق على كتابهم الأول " كتاب السلال الثلاث " وهو أقدم المخطوطات البوذية وأقلها تحريفا . وهو الآن يقع فى عشرين مجلد وهو بمثابة النواة الأولى والنص الأصلي لجل المعتقدات البوذية وأطلق عليه أيضا البيتكات أى النصائح الناطقة بلسان بوذا نفسه.

* كتاب الجاتاكا ويروى قصة ميلاد بوذا العذرى حيث مروره بحيوات عديدة ارتقى فيها كل الكمالات حتى وصل أخيرا إلى الكمال المطلق فى السماء ، وهبط على الأرض ليخلص الإنسانية من شرورها ، ويعتقها من عذابات التناسخ ويهديها إلى طريق

* اللغة البالية : هى إحدى اللغات المنقرضة . وتنتمى إلى أسرة اللغات الهندية من الفصيلة الفرعية الهندية الإيرانية للغات الهندو - أوروبية ، وتعد كذلك إحدى اللهجات السنسكريتية .

الاستنارة . وهو من الشذرات المختلف على زمن تدوينها .
* كتاب لوتس القانون الصالح ويشتمل على مجموعة أقوال وأحاديث لبوذا كتبت باللغة السنسكريتية خلال الخمسة قرون الأولى بعد الميلاد .
* كتاب أميتابا وهو يصف الأرض الطاهرة وطريقة الوصول إليها .
* كتاب الحكمة الأزلية وهو شذرات فى الحكمة الإلهية ويرده البوذيون الى شراح بوذا الأول .

* كتاب الباتيموخا أى (النواهى والمحاذير) ويشتمل على ٢٥٠ بندا يجب على البوذيين اجتنابها بوصفها من المحرمات وهذه البنود تتلى فى كل اجتماع كامل تعقده الجماعة كل ١٤ يوم وعقوبة من ينتهك هذه البنود أذناها الإيقاف لمدة معينة ، وأقصاها الطرد من نظام الرهبنة .

* كتاب السيجالوفادا سوتا أى (آداب التعامل مع الآخرين) وهى تحدد آداب التعامل بين الأب وأولاده والأخت لأخيها والزوجة لزوجها والخدم نحو مستخدميهم والتلاميذ نحو معلمهم وواجبات الرهبان نحو عامة الشعب وواجبات عامة الناس نحو معلمهم الدينيين .
وقد ترجمت معظم الكتب المقدسة البوذية إلى جل اللغات الحية ولا سيما الصينية واليابانية والفارسية والإنجليزية والفرنسية وقد ظهرت شذرات منها فى العربية باسم إنجيل بوذا (٤٠) .

أهم المعتقدات والطقوس

لقد أوضحنا سلفا أن البوذية لا تعد ديانة كاملة الأركان وذلك لافتقارها للبنية العقدية التى تميزها عن غيرها . ومن ثم فهى لا تعدو أن تكون حركة إلحادية عن الديانة الهندوسية ، أو إتجاه تأويلي للمعتقدات السائدة يرمى إلى إصلاحها و ينشد تقويمها ، وسوف يتضح ذلك جليا فى موقف بوذا وأتباعه من العقائد الهندوسية .

التناسخ :

يسلم بوذا بنظرية التناسخ الهندية غير أنه يخالف ما جاء فيها عن خلود الروح ومفارقتها خصال البدن ، وثبات حركتها الدائرية . (ميلاد ووفاة) ويرى أن حركة الروح فى صيرورة أزلية ترتبط فيها إرتباطا وثيقا بالأبدان التى تحل فيها محملة بالطبائع والغرائز التى

اكتسبتها من حيواتها السابقة فى أجساد الحيوانات أو البشر. ويؤكد أن هذه الحركة لا تتوقف إلا بالاستتارة التى تؤدى الى النرفانا أو الخلاص . وإن كان لم يجزم بتوقف عملية التناسخ كلية بعد الوصول للنرفانا ، ولم يجب كذلك عن مصير الروح بعد تخلصها من قيد التناسخ ذلك فضلاً عن سكوته تماماً عن الأسئلة المطروحة حول طبيعة الروح وعلة وجودها(٤١) .

الكارما :

يوافق بوذا الهندوس على صحة قانون الكارما >> الجزاء من جنس العمل << ويبدو ذلك بوضوح فى الأسطورتين اللتين وردتا فى كتاب السلال الثلاث المقدس .

فأولهما تروى أن زاهدا جلس تحت شجرة وأطال التأمل والنظر فى عالم الملكوت ، ولما انتهى من تأمله هم بالقيام فصدمه غصن الشجرة فى رأسه فتألم ثم حمله الألم على قطع الغصن ولكنه لم يكد ينتهى من قطعه حتى وافته المنية وتقمصت روحه فى الحال جسم ثعبان وكانت صيرورته هذه ثمرة لعمله السيئ الذى هو الخضوع للغضب .

وتروى الأسطورة الثانية قصة زاهد طلب إلى أحد زملائه أن يعيره مصفاة يصفى بها المياه ، فلما رفض زميله فضل أن يموت عطشا على أن يشرب الماء بما فيه من حشرات فيقتلها فى بطنه وظل ظمآن حتى فارق الحياة مدفوعا بإشفاقه على تلك الحشرات فانتقل فى الحال إلى جوار الآلهة .

وقد عقب بوذا على هاتين الأسطورتين بقوله >> أن أثر الأعمال على مصيرنا من الأمور غير القابلة للنقاش فما هو كائن ثمرة ما كان وأن كل إنسان يولد من جديد حسبما فعل << .

ويضيف بوذا أن كف الأذى والتعفف عن الوقوع فى الرذائل والزهد والتعفف والاعتزال والتسك لا يكفى لتحقيق النرفانا والانعقاد من التناسخ بل فى معاونة الآخرين على إصلاح سلوكهم وإرشادهم الى طريق الإستتارة . الأمر الذى جعل دعوته تتحو نحواً إصلاحياً جديداً تأثرت به الهندوسية بعد ذلك ولا سيما عند مدرسة البراهمة الثانية (٤٢) .

وهناك بعض التأويلات للبوذيين حول هذه النظرية منها أن بوذا

أنكر خلود الروح الفردي ومن ثم خلاص الأنا المنعزلة عن المجتمع وحبته في ذلك بأنها لم تعيش الحياة الإنسانية الكاملة ولم تختبر في معتركاتها وعلى ذلك لم يكتب لها الخلاص لأنها لم تكفر عن ما ورثته من الآثام السابقة .

ويؤولها فريق آخر من البوذيين ، وهم الشخصانيون الذين ذهبوا إلى أنه علي الرغم من إنكار بوذا بحقيقة الروح الفردي فلا بد أنه أكد حقيقة الشخص بوصفه الأساس الدائم للوجود أى أن أفعال الشخص الخيرة تجاه الآخرين لابد أنها سوف تعتقه من التناسخ بوصفها كفارة قام بها لنفسه وذلك بعد اكتشافه لجوهر شخصيته وتنقيتها من الشهوات والغرائز والرذائل وتهيتها لتكون مركزا لعالم إنسان جديد مفعم بالروحية (٤٣) .

النيرفانا والخلاص :

ذهب البوذيون إلى أن النيرفانا هي >> الطريقة التي يمكن بها إنقاذ الإنسان إنقاذاً نهائياً من ربة الكارما ، وعدم اضطرابه لأن يحيا أو يولد مرة أخرى ، وذلك بأن تصفو روحه ، وتتخلّى عن الأوزار التي تطلب تناسخها وانتقالها إلى كائن آخر تسلك فيه مسلكاً خلقياً طيباً يبرئها من تلك الأوزار أو يجعلها صالحة للاتصال بالملا الأعلى وفقاً لمبدأ النيرفانا . وكان يقصد بالنيرفانا في أول الأمر : انتقال الروح إلى الملا الأعلى بعد أن يحى حياة خلقية صافية راقية لا تضطره لأن يحيا حياة أخرى كما قلنا من قبل .

ولكن هذا المبدأ طرأ عليه فيما بعد معنى جديد إذ قصد به : وصول الفرد الى أعلى درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه ، والقضاء على جميع رغباته المادية . والفرق بين المعنيين واضح ؛ فالمعنى الأول يقضى بأن هذا المبدأ لا يتحقق إلا بعد الموت . أما الثانى فيقضى بأنه من الجائز أن يصل المرء إلى مرتبة النيرفانا في حياته إذا أفلح في الوصول إلى الدرجات العليا من درجات الرقى الروحاني ولم يكن سمة داع إلى تناسخ روحي << .

التنسك والاستنارة :

اجتمع رهبان البوذية على أن طريق الخلاص يتمثل في اقتفاء

خطوات بوذا ، وعدم الانحراف عنها حيث ارتداء الثوب الخشن الأصفر وحلق الرأس ، والنظر لجميع الموجودات والآلهة المعبودة باعتبارها خاضعة جميعاً للصيرورة أى للعذاب (التناسخ والكارما) وليس هناك سبيل للانعقاد إلا بتخطي المظهر والنفاذ إلى الجوهر بكثرة تأمل الذات الذى يفضى حتماً إلى الاستنارة . (٤٤)

فكرة المهدي المنتظر :

وهي فكرة الخلاص الهندوسية وقد أضاف عليها البوذيون أن هذا المخلص يأتي كل خمسة آلاف عام ليهذب الديانة السائدة ، وأن بوذا أحد المخلصين وقد سبقه أربعة وعشرون مخلصاً وتبدو البوذية بذلك ديانة عريقة يرجع تاريخها إلى ١٢٠ ألف سنة . ويبشر البوذيون - ولا سيما جماعة الهينايانا - بقدوم مهدي جديد يدعى ماتريا ليهدي الناس ويقوم المعتقدات الفاسدة ويخلص العالم من الشرور .

الخطوات الأربعة للسعادة :

- ١- الاعتقاد بأن العالم في حالة من الشر والمرض والضيق والسخط والنقص والداء والعلة وهي تعرف " بالدوكا " .
- ٢- أن علة هذا الشر ترجع إلى الشهوة الإنسانية وتسمى " بالسامودايا " .
- ٣- الإيمان بأن طريق الخلاص في قمع هذه الشهوة وتعرف " بالنيروذا " وهي أولى خطوات النيرفانا .
- ٤- الإيمان بوجود طريق الطهارة الذي يفضى إلى الغبطة والصحة والتبرؤ من الأمراض ويسمى " ماجا " .

الرهينة :

وهي لون من ألوان التنسك الجماعي يلتحق بها الأفراد طواعية ويخرجون منها أيضاً بمحض إرادتهم ، أو عنوة إذا ما انتهكوا أنظمتها (٤٥) .

وصايا السنغا العشر :

وتتمثل في التعاليم الأولى لبوذا وهي الأسس التي قامت عليها البوذية وهي :- لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن ، لا تكذب ، لا تتناول المخدر ولا السم ، كل باعتدال ولا تتناول طعاماً بعد حلول الظهيرة ، لا تحضر

حفلات الرقص والغناء والتمثيل ، لا تستعمل الزينة ولا العطور ، لا تنام على الأسرة المرتفعة أو العريضة ، لا تقتنى الذهب أو الفضة .
ويقضى على من يعصى إحدى هذه الوصايا الاعتراف بخطيئته وسط جمع غفير من الناس حتى يتحقق خلاصه من الإثم الذى ارتكبه ولا يلتزم بالوصايا العشر إلا الرهبان أما العوام فيجب عليهم الالتزام بالوصايا الخمس الأولى فقط (٤٦) .

المبادئ الأخلاقية الثمانية

- وهي بمثابة الدستور المكمل للوصايا العشر والمتمم للعناصر الخمسة التى تتكون منها النفس وهى :-
- الإيمان الحق بأن الحياة والتناسخ هو العذاب بعينه وأن الخلاص من هذا العذاب لا يتأتى إلا لمن يقمع غرائزه .
 - الرجاء الحق يتمثل فى حب الآخرين وعدم السعي لإيذائهم وتجنب قتل الروح أينما كانت وأينما حلت .
 - الكلام الحق والسلوك الحق يتمثل فى الصدق مع الآخرين وتقدير النفس حق قدرها واختيار العمل المناسب لقدرات المرء ثم الإخلاص فى أداء المهام المنوط بها .
 - السعي الحق وهو التمييز بين الجيد والردىء فى الرغبات والعلاقات .
 - التفكير الحق يتمثل فى توجيه العقل نحو المواضيع المفيدة .
 - التأمل الحق وهو تتويج لكل المبادئ السابقة وهو الحرص على عدم العودة مرة ثانية فى دورة روحية أخرى للحياة .

وصايا أسوكا :

تشتمل على عدة وصايا نقشت على خمسة وثلاثين حجراً منها احترام الوالدين والعطف على الكائنات الحية والصدق ومحبة الناس .

البوذيستفا : أى (التسامح العقدي)

لا يرى البوذيون أدنى تجديف فى جمع بعض معتققيها بين الإيمان بآلهة بوذا ، والحفاظ على ديانتهم السابقة وعبادة معبوداتهم المتباينة .
وقد أدخلت فرقة المهايانا هذا المعتقد على الأصول البوذية رغبة منها فى انتشارها ، والتأكيد على أن الوصول للحقيقة وغبطة بوذا

والنيرفانا الأبدية أى الخلاص لا يحدث دفعة واحدة بل يسير اليه المرء تدريجيا بداية من تحرر المرء من فكرة الذات والأنانية حيث الحياة الروحية المفعمة بالفضائل والسمو الأخلاقي وتعرف عندهم بالأراهاات ومرورا بالإيمان بصيرورة عالم الآلهة وانتهاءً بمعرفة جوهر الأديان الواحد (٤٨) .

الفضيلة :

يعرفها البوذيون بأنها وسط بين رذيلتين >> الفهم :طرفاه التصديق لكل ما يقال ، وإنكار كل ما يقال ، والوسط بينهما التمييز بين الباقي والزائل والظاهر والباطن والثابت والذى ليس له ثبوت . والعزم : طرفاه التهافت ، والإهمال . والوسط بينهما إرادة الحكمة متى تبين السبيل إليها بالفهم الصحيح . والكلام : منه المهجور، ومنه المطروق . والوسط بينهما قول الصدق وصون اللسان عن العيب والنميمة والمحابة . والسلوك : طرفاه المحابة مع الغرض، والإجحاف مع الغرض . والوسط قوام بين الغرضين لا ينقاد لهذا ولا لذاك <<.

العدالة والمساواة :

لم يكن هناك شيء أبغض لبوذا من اليراهمة الذين نصبوا أنفسهم مناصب دينية مرموقة وتبوؤوا أرفع المراتب الاجتماعية بغير حق ومن أجل ذلك لم يخلف وراءه نظام كهنوتي ولم يعترف بنظام الطبقات الهندوسي (٤٩) .

الوجود والعالم :

ينكر بوذا فى بعض شذراته وجود الفيداتا أى الجوهر الحق علة كل المحدثات ويرد نشأة الكون إلى عناصر جزئية متغيرة سرعان ما تتحد وتتفصل تبعا لدورات الحياة .

بينما يتحدث فى شذرات أخرى عن النيرفانا ويعدها طريق الخلاص حيث الإتصال بالمطلق ، غير أنه يؤكد فى عديد من أحاديثه على أنه " لا أدرى " أى أنه لا يعرف شئ عن مصير النفس بعد الموت أو عالم الخلود أو وجود الله (٥٠) .

وحسبنا أن نسوق فى هذا المقام بعض الشذرات التى كتبها بوذا

معبرا عن حيرته >> هناك حيث الوجود واللاوجود يصبحان أمرا واحدا حيث الصيرورة التى تجمع بين الإثبات والإنكار القبلى والبعدى الماضى والمستقبل والأعلى والأدنى والفناء والخلود والنهار والليل والنور والظلمة . ولم يكن سوى الحقيقة الحية ودونها موتى ، فمنها انبثقت الحياة بباعث من الحب المستمد من العقل السرمدى الذى تدركه القلوب قبل العقول بهدى من الحكمة والإشراقية الكامنة فيها . وأصبحت الموجودات تحمل نواة قوتها وضعفها وقدرها وخلصها ولا أحد يعلم من أين جاء ولا أين يصير ثم جاءت الأرباب وهى لا تعلم أيضا خبر ما جرى فمن إذن عنده الخبر أهو الذى أحدث المحدثات أم تراه لا يعلم سوى ذاته ولا يشغله سواه << .

الدير البوذي :

الدير البوذي يختلف عن أديرة المسيحيين . فالأول ليس تفرغ تاما للعبادة والتتسك والانقطاع عن العالم بل إن الرهبنة البوذية وثيقة الصلة بالمجتمع المحيط بها إذ يقوم الرهبان بتعليم الأطفال القراءة والكتابة بالإضافة إلى واجب الإرشاد والتتوير بالقواعد العقديّة البوذية وطقوسها فى الانتقالات والأعياد والجنّازات (٥١) .

المجتروّن والملحدون

لقد أفضت أحاديث بوذا المشوشة عن نسبية وجود الأشياء وقانون الحركة والصيرورة الذى يسير بمقتضاه العالم الأرضي والسمائي . وتأرجحه بين مذهب اللاأدرية وبين الإلحاد الكامل عند تصديه لقضية الألوهية ، ومسألة مصير الروح بعد انفصالها عن البدن . وكذا عجز شراحه عن صياغة نظرية كاملة تقوم بتفسير وتبرير معتقداتهم . كل ذلك أدى لظهور الاتجاهات الإلحادية البوذية . ولعل ما يميز الملحدّين البوذيين هو تمسكهم بالجانب الأخلاقى من تعاليم بوذا . الأمر الذى جعلهم لا يشعرون بالبحود نحو العقيدة البوذية . بل يعتقد كل منهم بأنه البوذا المجدد والمهدي المنتظر (٥٢) . وسوف نعرض فى

السطور التالية أهم هذه الاتجاهات الإلحادية بحسب ظهورها .

مذهب سانك أو سانكهيا (أى مذهب التعدد)

ويرد الى الحكيم كابيلا وقد عاصر بوذا وذهب إلى القول بتعدد النفوس والأرواح وجدد عقيدة التناسخ ، وأنكر وجود إله واحد يتصرف وحده فى الكون . وقد حاول بذلك الإجابة عن الأسئلة التى عزف عنها بوذا .

مذهب اليوجية * الحديثة :

ويرد للحكيم " باتانجالى " وظهر فى القرن الثانى قبل الميلاد ويؤمن أتباع هذا المذهب بوجود وخلود الكائنات الروحية الكامنة فى الجمادات والنباتات والحيوان والإنسان والكائنات النورانية (الملائكة) والكواكب والكائنات النارية (الجن والعفاريت) ويعدون الأشكال المادية للأشياء مجرد أعراض زائلة ليس لها وجود حقيقى . وأكدت فى تعاليمها على ضرورة التمسك بعمل الخير والإحسان لكافة الخلق والسعى فى إخضاع الشهوات البدنية للقوة النفسية . وجاء عن البيرونى أن أتباع هذا المذهب كانوا من الموحدين والمؤمنين بوجود إله مجرد ترد إليه كل المخلوقات (٥٣).

مذهب الفيسيشيكا : (أى الفلسفة التحقيقية)

ويرد الى الحكيم البوذى كانادا فى القرن الثانى الميلادى وهو مذهب منطقى مادى يشبه المذهب الذرى الذى أذاعه ديمقريطس اليونانى الذى ذهب فيه إلى أن الكون يتكون من ذرات مختلفة الأنواع ينضم بعضها إلى بعض بطرق مختلفة فتنشأ الكائنات .

* اليوجا كلمة سنسكريتية تعنى الاتحاد وهى إحدى المدارس الهندوسية ومن أشهر كتبها المقدسة " سونر اللوجا " وهى فلسفة عملية أكثر منها نظرية ويبدو ذلك فى صلاتهم وطقوس عبادتهم التى تتمثل فى ضبط التنفس والجلوس فى وضع معين والامتناع عن الجنس وهى تختلف عن مدرسة اليوجا كارا البوذية التى تمثل الاتجاه المثالى فى جماعة المهايانا الذى نقد جل الاتجاهات البوذية وترد تعاليمها إلى الفيلسوف البوذى " فاسو بندو " وشقيقه " أسانجا " الذين أعليا من شأن العقل والمنطق . وكلا المدرستان اليوجا الهندوسية واليوجا كارا تختلف عن مذهب اليوجية الحديثة .

مذهب المنكرين :

ويرد إلى ناجارجينا الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى وينكر أصحابه حقائق كل الأشياء ويجحدون المدركات العقلية التى كان الأولون قد استخلصوها من المذهب البوذى ويعتقدون بأن المعرفة العليا هى الإعتقاد بالعدم العام المطلق وقد أطلق عليهم اللاأدريين وسفسطائى البوذية لاتخاذهم من الشك منهجا للتعرف على ما عساه أن يكون موجوداً فى عالمهم (٥٤)

مذهب نيابا: (أى المنطق)

ويرد الى جوتم أو جوتاما الثانى وظهر فى أخريات القرن الثانى وبدايات القرن الثالث الميلادى ذهب إلى أن الإحساس هو أساس الحياة العقلية وأن الحواس الخمس هى أبواب المعرفة وليس الحدس كما ذهب بوذا . وقسم الإنسان إلى الحواس والعقل والروح فالحواس تنقل المحسسات إلى العقل فيدركها ثم ينقلها العقل إلى الروح فتؤلفها وتتصرف فيها ويقر بصحة كل ما جاء فى مذهب سابقه كانادا عن الذرات الروحية . ويخالف بذلك أيضا بوذا الذى قام بتقسيم الإنسان إلى خمسة أقسام هى الجسد والإدراك الحسى والمشاعر الواعية والمشاعر غير الواعية والعقل .

مذهب اللامية :

وهم جماعة من رجال الدين البوذى أطلقوا على أنفسهم اللاميين أى الفقهاء المتفوقين وظهر هذا المذهب فى التبت نحو القرن السابع الميلادى ويعدون (دالاي لاما) . أى البحر العميق - الذى عاش فى القرن السادس عشر الميلادى مرشدهم وهاديتهم . وقد استباح رجالاته الزواج للرهبان وخلطوا الدين بعناصر سحرية مثل >> عجلة الصلاة التى تشبه برميلا يدور على قاعدة ويحمل فى جوفه كتابات مقدسة وأدعية وهو مغلف بجلد ثور الياك ونقوش مذهبة ويحمل المؤمنون نماذج مصغرة منه أينما ذهبوا. << وقد نجح أصحاب هذا المذهب فى إدخال نظام الطبقات على البوذية وخلقوا لأنفسهم مكانة رفيعة وسط البوذيين الذين كانوا يلتمسون منهم البركات ، ويقدمون لهم

القرايين فى المواسم والأعياد .

الأمر الذى يتعارض تماماً مع دعوة بوذا الأولى (٥٥) .

وإذا ما استعرضنا أشكال الإلحاد السابقة سوف نجد جل مذاهب المجترئين قد انحصرت - كما ذكرنا قبل ذلك - فى المسائل التى رغب عن مناقشتها بوذا ومن ثم ينحصر تجديفهم فى الخوض فى الأمور التى نهى عن البحث فيها .

أما البعض الآخر فقد جحد بعض تعاليم بوذا دون أن ينكرها كلية ومن ثم ينتفى فى البوذية شكل الإلحاد التام وذلك باستثناء مذهب المنكرين الذين كفروا بكل شيء بما فى ذلك تعاليم بوذا نفسه.

وهناك شكل من أشكال الإلحاد البوذي يجمع أصحابه بين مفهوم الردة والتجديف معا ألا وهو البراهمانية الثانية ويمثل جماعة من الهندوس قد اعتنقوا البوذية فى ازدهارها وعادوا إلى هندوسيتهم بعد ضعفها وأقول نجم رهبانها وراحوا يجارون العامة فى دياناتهم الشعبية وعملوا على إحياء الفيدا من جديد (٥٦) .

وسوف نتحدث عن هذه الفرقة ومعتقداتها فى موضع آخر من هذا الكتاب باعتبارها إحدى ديانات الهند التى مزجت فى عقائدها بين للهندوسية والبوذية .

تعقيب

- إن فكرة المهدي التى تعتقدها البوذية تعد من الأفكار المتناثرة التى ذاعت فى الديانات القديمة وهى ليست من الأصول الإيمانية الخمسة التى أقرها الجمهور . بيد أنها تعد من جملة العقائد الإيمانية التى وردت بها بعض نصوص السنة التى أكدت أن لامهدي إلا ابن مريم. أما ما جاء فى كتابات الشيعة والمتأخرين من فرق البابية والبهائية والقديانية لا يعتد به من وجهة نظر الإسلام . والمهدي بالمفهوم الإسلامى يختلف تماماً عن مفهوم المجدد أو المصلح الدينى وكذا عن مفهوم المهدي فى البوذية وسائر الأديان الوضعية فالمهدي موفد من قبل الله لحكمة شرعية ، وهو يدعو إلى نفس ما دعا إليه نبي الإسلام محمد ﷺ .

- والمسألة تحتاج لمزيد من البحث الذي سنرجاه إلي موضع آخر .
- إن ما ذهب إليه الأستاذ حامد عبد القادر حيال شخصية بوذا واعتباره إياه أحد الأنبياء يعد في رأينا محض اجتهاد لا سند له يقويه من الناحية الشرعية ولا دليل يبرره من الوجهة المنطقية وذلك لأن معظم التفاسير قديمها وحديثها لم تأول الآية علي النحو الذي يجعل من بوذا نبيا وتجعل من لفظة التين رمزا له وذلك للخلل التاريخي الواضح فيها إذ جعل التأويل سالف الذكر من بوذا سابقا علي عيسي ومتقدما علي موسي هذا فضلا علي أن مثل هذه التأويلات الرمزية لا يعتد بها في مجال العقائد أما من الناحية المنطقية فإن تعاليم بوذا تخالف تعاليم الإسلام ولاسيما في حديثه عن التناسخ والكارما وتجاهله لحقيقة الله وغير ذلك من المعتقدات الفاسدة التي أوردناها . الأمر الذي يخرج من زمرة الأنبياء .
 - أن تسامح البوذية المفرط ولا سيما في قضية تحديد مفهوم الألوهية يجعلها واحدة من الفلسفات المبكرة التي دعت لفكرة وحدة الأديان وهي في الوقت نفسه تخرجها من مفهوم الدين بمعناه الصحيح أي المؤمن بوجود إله واحد ترد إليه كل الأمور وتتضائل أمامه كل الموجودات كما أنها تعطينا دليلا واقعا علي فساد دعوى وحدة الأديان . وعلي ذلك فالبوذية لا تعدو أن تكون من وجهة نظر الإسلام إلا أحد الفلسفات الوثنية الفاسدة ولا يمكن الجمع بين بعض تعاليمها في سياق واحد مع الإسلام حتى في المسائل الفرعية والتأويلات الرمزية التي انتحلتها بعض الصوفية من معتقداتها مثل وحدة الأديان عند الحلاج ووحدة الوجود عند ابن عربي .

مراجع الفصل الخامس

مرتبة حسب ترتيب الورود

- (١) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص ٤١ ، ٤٢ .
- (٢) نفس المرجع ، ص ٧٤ : ٩١ .
- (٣) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٧٨ .
- (٤) جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص ٣٩ .
- (٥) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٥٤ .
- (٦) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص ٣٧ .
- (٧) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، ص ١٠٤ .
- (٨) جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص ٧٨ .
- (٩) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص ٦٤ ، ٦٦ .
- (١٠) نفس المرجع ، ص ٦١ ، ٦٢ .
- (١١) مصطفى الكيك : تناسخ الأرواح ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٠م .
- (١٢) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص ٦٤ .
- (١٣) مصطفى الكيك : تناسخ الأرواح ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٠م .
- (١٤) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص ٥٩ ، ٦٠ .
- (١٥) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٤٠ .
- (١٦) نفس المرجع ، ص ١٤٤ : ١٥٧ .
- (١٧) أديب صعب : الأديان الحية نشوؤها وتطورها ص ٣٨ .
- (١٨) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٥٥ .
- (١٩) نفس المرجع ص ١٥٦ .
- (٢٠) نفس المرجع ص ١٥٩ .
- (٢١) نفس المرجع ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٨ .
- (٢٢) نفس المرجع ص ١٤٢ .
- (٢٣) نفس المرجع ص ١٤٣ .
- (٢٤) نفس المرجع ص ١٥٠ ، ١٥١ .
- (٢٥) نفس المرجع ص ١٦٣ .
- (٢٦) نفس المرجع ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
- (٢٧) اورسيل بول ماسون : الفلسفة فى الشرق ص ١١٥ ، ١١٦ .

- (٢٨) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ص ٥١ ، ٥٢ .
- (٢٩) محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، ص ١٠٨ ، ١١٣ : ١١٦ .
- (٣٠) أديب صعب ، الأديان الحية نشوؤها وتطورها ص ٤٢ .
- (٣١) نفس المرجع ص ٣٩ ، ٤١ .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	الفصل الأول (مفهوم الدين ونشأته)
٣٣	الفصل الثاني (الديانة المصرية القديمة)
٩٣	الفصل الثالث (الديانة الهندوسية)
١٢٧	الفصل الرابع (الديانة الكونفوشيوسية)
١٥٩	الفصل الخامس (الديانة البوذية)

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

<https://www.facebook.com/books4all.net>